لا ريب فيه



د.فضل يسلم اليماني

تقديم

أ.د. رمضان خميس الغريب

دار البشير
للثقافة والعلوم

لاَ رَيْبَ فِيهِ

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: لا ريب فيه
التأليف: د.فضل يسلم اليماني
تقديم: أ. د. رمضان خميس الغريب
موضوع الكتاب: فكر إسلامي
عدد الصفحات: 240 صفحة
عدد الملازم: 15 ملزمة
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/20799

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

لا ريب فيه

تأليف

د. فضل يسلم اليماني

تقديم

أ. د. رمضان خميس الغريب

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله ربَّ العالمين، وأصلي وأسلّم على المبعوث رحمةً وهداية للعالمين، محمدﷺ، وآله وصحبه والتابعين.

اللهم إنّا نبرأ من حوْلنا وطوْلنا وقوّاتنا، ونلوذ بحوْلك وطوْلك وقوّتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضها يا أرحم الراحمين.

اللهم إنّا نسألك أن تجعل أقوالنا وأعمالنا فيكَ لكَ خالصة، إنك على كل شيء قدير.. وبعد،

فقد طالعتُ هذا الكتاب الماتع النافع في درْس آية من القرآن الكريم، والموسوم بـــ (لا ريب فيه) للعالم الجليل فضيلة الشيخ الدكتور/ فضل يسلم علي صنبور اليماني، ورأيته جمع فأوعى، وحشدَ من النصوص المباركة ما يكفي ويُغني، وهو بهذا الحشد الراقي والانتقاء النافع ليعيدُ إلينا صورةَ التقدير المبارك لكلام الأئمة الأعلام، والعلماء العظام الذين توفّروا على خدمة هذا الكتاب الكريم، وأفنوا فيه عمرهم ووهبوه حياته.

إنّ مجرّد اطلاع القارئ الكريم على تلك النصوص كفيلٌ بأن يفتح له آفاقًا من التفكر والتدبر واسعةً مناداحة، حول منهجيّات التعامل مع القرآن الكريم، وكيْفيّات تدبّره عبْرَ مدارس تفسيرية متعدّدة جمعت بين مناهج المأثور والرأي والمنقول والمعقول.

خاصّة أنّ هذا الجمع تنوّعت طرقُه، وتعدّدت أساليبه، واتّسم فيه بالدّقة في النقل، والأمانة في العزو، وحسن الاختيار، والحرص على التنوّع الباني الذي يقوم على تنوّع التعدّد لا تنوع التضاد.

ولقد كانت تطوافة الشيخ فضل- نفع الله به- تطوافة موفّقة، صنع فيها صنيع النّحل على أريج الزهور؛ فاختار لنا من النصوص أغلاها وأحلاها، فأخرج لنا عسلًا شهيًّا، ننعم بحلاوته ونتذوق شهده؛ وروحًا وريحانًا نتفيّؤ ظلاله ونتنسم عبقه.

بـدأ الكاتـب الكريـم بتتبّـع مـا يتعلـق بالجملـة الكريمـة: لا ريـب فيـه، وتتبـع أقـوال العلماء السـابقين بنصوصهـم البـاصرة بمضامـين القـرآن الكريـم، وأبَان الشـيخ الدكتـور جانبَ الإعجـاز القرآني في هـذه الجُملة الكريمـة، كـما ربـط بـين أسـلوب القـرآن وأسـاليب العـرب في الدّلالـة عـلى المـراد، واسـتدلّ بأشـعار العـرب ونثرهـم في ترسـيخ الدلالـة المـرادة بصـورةٍ تعمّـق الفهـم وتحسّـن الوعي.

كـما أنّ الشـيخ الكريـم أبـان- منـذ البدايـة- عن منهجـه في كتابة هـذا السّـفر الكريم، وبيّن أنه سـيتتبع أقـوالَ العلـماء السـابقين، وينقلها كسـبًا لآرائهـم وانتفاعًا بعباراتهـم الضّابطة، وقـد فعل وأجاد.

وعـرض الشـيخ لفوائـد هذه الآيـة الكريمة، وتتبّع هذه الفوائد حسـب نصوص العلـماء وحصدها حصدًا حتـى بـدتْ جليّـةً واضحـة. وبهـذا قـرّب للقراء الكـرام فوائد عـدّة من هذه الجملـة الكريمة، وفتـح عيونَهم إلى ضرورة تتبّـع الآيـات وتدبّرهـا والإفادة منها.

كما بانَ في تناوله وطرحه تواضع العلماء وأخلاق أهل الفضل، وبدا هذا في أكثر من مكان.

أسـأل اللـه تعـالى أن يتقبّـل جهـدَ الدكتـور الشـيخ/ فضـل اليـماني، وينفـع به، ويزيـد في عطائـه العلمي والعملي.

أ.د. رمضان خميس الغريب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

في جامعتي الأزهر وقطر

مقدمة المؤلف

الحمدُ لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، وأنزل عليه: ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾.

أحمدُه سبحانه أنْ خصّنا بالقرآن العظيم، والنّور المبين، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وأشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، علّم القرآن، وجعله معجزةَ خاتم أنبيائه باقيةً ما بقي الزّمان.

وأشهد أنّ سيّدنا محمدًا عبدُ الله ورسوله، المؤيّد بهذا القرآن، ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا دائمًا إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فإنّ العلماء قد عُنوا بالقرآن عنايةً بالغة من جميع جوانبه، فمنهم مَن عنيَ بحلِّ ألفاظه وبيانِ معانيه وأحكامه، ومنهم مَن عني بمعرفة ناسخِه ومنسوخه، وخاصّه وعامّه، ومنهم مَن كتب في أسبابِ نزوله، ومنهم مَن عني بذكر بلاغته وإعجازه، وكتبوا في ذلك الكثيرَ ممّا يعجز القلم عن حصره.

ولمّا كان الناس في عصرنا الحاضر قد أعرضوا عن القراءة، وأوقعوا بينهم وبينها خصومةً ألجأتهم إلى وسائل تضييع الأوقات وسرقة الأعمار والطّاقات، ممّا أفرزه العصر من تقنيات، ولمّا كان كذلك ما كتبه الأوّلون فيه من قوّة السّبك والمعاني وإيراد الألفاظ التي يعسر عليَّ وعلى أبناء عصري أن ندرك كُنْهها ونعقل مرادَها ومقتضاها يومَ أعرضنا عن العربية لغةِ الدّين والانتماء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

ولقـد كان يسـتوقفني كثـيرٌ مـن التسـاؤل والحـيرة عـن معـاني كثـيرٍ من الآيـات يأبي عـليَّ عقلي أن تمـرّ مرورَ الكـرام دون أن أعقلهـا وأحقّـق مـرادَ اللـه منهـا: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، فلجأت إلى جُملة من التفاسـير المشـهورة، وجمعـت منهـا في مكتبتـي مـا يزيـد عـن خمسـة وعشريـن تفسـيرًا، فلـم تنقـضِ النُّهمـة منهـا ولا سُـدَّ المسـد، فسـبرتْ أغـوارَ التفاسـير المبسـوطة في وسـائل التقنيـة كالشـاملة والموسـوعات، وكنـت أجـد مـا أبتغيـه، لكـنْ بإسـهاب يصعُـب معـه اجتـماع الفكـرة ووضـوح الصّـورة، فأحببـت أنْ أدلي بدلوي عـلى قلّة بضاعتـي وضعْف قـوتي، لعـلّ اللـه- عـزّ وجـل- يفتـح بصـيرتي أنـا أولًا، ومِـن إخـواني في الديـن ممّـن يعترضهـم مـا يعترضني من الغمـوض وصعوبـة الفهْـم، إمّـا **بسـبب** الحشـو في الـكلام أو الإطالـة فيه وتشـعُّب الحديث مـمّا لا صبر لي ولا لأبنـاء عـصري في متابعتـه إلى آخـر الطريـق، أو بسـبب مـا سـقط في بعـض الطّبعات مـن الحـروف والكلمات، والتـي اسـتنتجتها بجمـع القراءة لأكثر من نسـخة للتفسـير الواحد، وإمّـا **بسرد** الكلام دون فواصـل تفصل كلامَ القائلـين بعضـه عـن بعـض، ولسـت في هذه السلسـلة التـي توكّلت عـلى الله بعـد الاسـتخارة في إصدارها بآتٍ بجديـد، ولسـت بالمكانـة مـن العلـم والفقـه لأنتقـد عمـل أولئـك الرجـال الأفـذاذ والجبال الشـوامخ، ولسـت كذلـك باحثًـا وناقـدًا في عقائـد أولئـك العلـماء، وإن كان قـد لفـتَ نظري أشـعريّة كبـار أهل هـذا العلم ممّن حـقّ عليـه هـذا الوصـف بمـا تأوّلـه من الأسـماء والصفـات، أو من صرّح بـه صراحةً في كتبـه، أو ممّـن رُمي به نتيجـة كلمـة قالهـا في التأويـل أو التعطيـل، حتـى لم يُعذر شـيخُ أهـل التفسـير وإمامهم ومَن إذا ذُكر التفسـير ذُكـر اسـمه: **محمـد ابـن جريـر الطبري**، والذي عـاش في عصر أبي **الحسـن الأشـعري**، وكذلك الأئمـة: **كالقرطبي وابـن كثـير** الدمشـقي وغيرهـم من متقدّمـي العصـور أو متأخّريها من أهل هـذا العلم النافع عـلى خلافٍ بين أهـل العلـم ومتخصّـصي العقيـدة، هل الأشـعرية من السـنة، أم هي السـنة؟.

وأمّـا عمـلي في السلسـلة: فإننـي لم أضـفْ جديـدًا عـلى عمـل أولئـك الأفـذاذ، فلقـد شرَعـت في اختيـار آيـة مـن كتـاب اللـه- عـزّ وجـل- مـمّا كان يسـتوقفني عنـد قـراءتي، وقـرأت مـا كتـب عنهـا مـن

التفسير والبيان والبلاغة والبديع، ووجوه القراءة في أكثر من مرْجع، بُغية إملاء فراغٍ في فهم، أو تصحيح لفظٍ طُبع خطأ من حيث استقامة اللفظ ممّا أربأ بأولئك القوم الذين ما كتبوا في التفسير حتى تبحّروا في العربية؛ نحوِها وصرفِها وبيانِها وبلاغتِها وبديعِها وصنوفِ محسّناتها؛ أن يقعوا في مثل هذه الأخطاء اللغوية إلّا بسبب الخطأ في النّسخ أو الطباعة لا غير، وكذلك فصلتُ الكلامَ بعضه عن بعض، بعمل فواصل وأقواس تفصل مقولةَ كلّ مَن أُعزي إليه الكلام أو أُرجع إليه القول، ممّن أوردهم المفسّر؛ ليقرأها أهلُ زمانه الذين ما كان يعجزهم فهمهم للغة العربية وسليقيّة ألسنهم بها عن فصل الكلام بعضه عن بعض، وقمت بعمل لونِ التغميق عند كلّ كلمة (**قال**) ومشتقاتها، ووضعت تحتها خطًّا لأهيِّئ القارئ للانتباه أنّه سيرى قولًا مبيِّنًا لما لم يتّضح له معناه، أو بسبب السّرد تأبَّى عليه فهمُه، وقمت بالتعريف بالمفسّرين الأعلام الذين نقلت عنهم دون التعريف بغيرهم ممّن استشهدت بأقوالهم ولم أذكْر تراجمهم خشية الإطالة، وكذلك قمتُ بالإشارة إلى مراجع الآيات في سورها من كتاب الله عزّ وجل، وكذلك تخريج أحاديث المصطفى ﷺ ممّا استشهد به المفسّرون من مراجعها في كتب السنة المشهورة، وحرصت أن تكون الآيات الكاملة في الكتاب بالخطّ العثماني حفاظًا على مكانة كلام الله- عزّ وجل- وتمييزًا له عن سائر الكلام، ولست مدَّعيًا أني أتيت بالجديد، ولا أنا بالذي يستدركُ على القوم، لكني أردت- كما قلت- أنْ أقرِّب القولَ إلى فهمي أولًا، وأعقل ما قاله ربي لي وللمسلمين من حملة هذا الكتاب الكريم.

قدْ يتهيأ للقارئ في الصفحات الأولى مِن هذا العمل أنها نقولٌ متشابهةٌ ومتكرّرة، وأنّ التكرار ربما كثُرَ في ألفاظ معيّنة، **فأقول له**: أولًا: لا تعجل في الحكم حتى تأتي على آخره، فمِن حيث التشابه في الأسلوب فقليلٌ جدًّا، وإن وُجد التشابه فلن يوجدَ التماثل، حيث أنّ كلّ مفسّر وضع في تفسيره بصمةَ دهره، ونكهة عصره، وخلاصةَ عمره، بحيث أنّه ممّا لا شك فيه أنّ كلّ مفسّر قرأ تفسيرًا أو جملة من تفاسير مَن سبقوه، ثمّ كتب خلاصة ذلك في ظروفٍ تختلف عن

ظـروف مَـن سـبقوه فيضـع صبغـةَ مَن علمه بمـراد ربه الذي أنـزل القرآن هـدى للناس في كلّ زمـان ومكان، وإلى أن يـرث اللـه الأرض ومَـن عليهـا، وأمّا مـن حيث التكرار فغـيرُ مَعيب في العلم الشرعي تكـرار المعلومة لتسـتقرّ الفكرة ويترسّخ الفهم.

وقبل الختام: أقول لكلّ مطّلع على عملي في هذه السلسلة بقول الإمام القاسم بن فُيَّرة الشاطبي:

أخـي أيهـا المجتـاز نظمـي ببـابه يُنـادى عليـه كاسـد السـوق إقبـلا

وظُـنّ بـه خـيرًا وسـامح نسيجـه بالإغضـاء والحسـنى وإن كان هلهـلا

وسـلّم لإحـدى الحسـنيين إصابـةٌ والأخـرى اجتهـادٌ رام صوبًـا فأمحـلا

وإن كان خرقًـا فادَركـه بفضلـةٍ مـن العلـم وليصلحـهُ مَـن جـاد مقـولا

وختامًـا: هـي كـما ذكـرت في أوّل المقدّمـة أنّ هـذا العمـل مشـاركة منـي وإدلاءٌ بالدّلـو في الدعـوة إلى اللـه والنصيحـة للـه ولرسـوله ولكتابـه ولأئمـة المسـلمين وعامّتهـم، فـما كان فيه من صـواب فمِن اللـه عونًا وتوفيقًـا، ومـا كان فيـه مـن خطـأ أو زلـل فمنّي ومـن الشـيطان......

هذا وبالله التوفيق.....

جمعه وكتبه:

الشيخ الدكتور

فضل بن يسلم صنبور اليماني

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

قال الدكتور مساعد الطيار، وفقه الله: تأمّل هذه الثقة في إلقاء الخبر (**لا ريبَ فيه**): هل يقوله بشر، أبدًا والله، لقد كان هذا النظر إلى هذه الفكرة ممّا استوقف بعض الغربيّين الدارسين للقرآن الكريم، فدُهِش من هذه الثقة في إلقاء الخبر، وكان ما كان له من الإيمان، وإنّ الثّقة بأخبار القرآن ممّا تجعلنا نطمئنّ ونحن ندعو الناس إلى دين الله، فالوحي معصومٌ بلا ريب، ولا يهولنّك بعض ما يلبِّس به من ضعُفت بصيرته، وقلّت معرفته بأنّ هذا فهمُه للآية، وهناك فُهومٌ أخرى، فليس القرآن محلًّا لمثل هذه المحتملات المُلغِزة، بل هو آياتٌ بيّنات.

وعليه، فإنّ النقد لا محلّ له في هذا الكلام أبدًا، وما يعرف بـ(القراءة النقدية) أو التعقّب والنظر في الكلام المقروء وعدم التسليم لكلّ ما يقرأ لا تجري على القرآن، وما يسمّى عن التربويّين بعقلية القارئ الناقد لا محلّ لها في كتاب الله عزّ وجل، ولا يَرِد عليه الاستدراك مطلقًا، والتعقيب والتنبيه لا مكان لهما في ثنايا هذا الحديث.

يقول الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾: فعن أي كتاب تكلّم الله- عزّ وجلّ- هنا؟ أولَم ينزل القرآن ليحفظ في صدور المؤمنين؟ لم ينزل القرآنُ في شكل كتاب، وحتى الله تعالى لم يأمرْ نبيّه بحفظ القرآن في كتاب.

الكتاب: في **قوله تعالى**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هو القرآنُ بإجماع العلماء، كما نقله غيرُ واحد من العلماء، **قال الرّازي**: واتفقوا على أنّ المراد من **الكتاب:** (القرآن). **وقال ابن جزي:** والمقصود منها إثبات أنّ القرآن من **عند الله كقوله:** ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ

(١) سورة: البقرة، الآية رقم: ٢.

فِيـهِ مِـن رَّبِّ الْعَالَمِيـنَ ﴾[1]، يعنـي: القـرآن، باتفـاق، وإذا كان القـرآن محفوظًـا في صـدور المؤمنـين، وصـدور الذيـن أوتـوا العلـم، فـإنّ ذلـك لا ينـافي بوجـهٍ مـن الوجـوه: أنْ يكـون محفوظًـا في كتـاب مسْـطور، أيضًـا، وهـو المصحـف، وهـذا بإجـماع الأمّـة قاطبـة، لا يشـكّ في ذلـك أحـد، ولا يرتـاب، وقـد وردت الإشـارةُ إلى حفـظ القـرآن في الصـدور وفي السّـطور في عـددٍ مـن الآيـات، ومِـن أقربهـا الآيـات التـي وصفـت هـذا الـكلام مـن اللـه تعـالى بأنّـه (قـرآن)، وبأنـه (**كتـاب**)، فالتعبـيرُ عنـه بأنـه: (**قـرآن**) فيـه إشـارةٌ إلى قراءتـه سـواء أكان في الصّـدور أم في السّـطور، والتعبـير عنـه بأنـه: (**كتـاب**) إشـارة إلى كتابتـه، وأنـه سـيكون محفوظًـا في كتـب يقرؤهـا المسـلمون.

وأمّـا الإشـكال في الآيـة الكريمـة، وحاصلـه: كيـف يسـمّى القـرآن (**كتابًـا**)، ولم يكـن قـد كتـب في ذلـك الوقـت، ولم يكـن قـد جمـع في المصاحـف في عهـد النبـي- ﷺ- أصـلًا؟

فيُجـاب عنـه بوجـوه: الأول: أنّ مـادة (**ك ت ب**): تـدلّ عـلى الجمـع والضّـم، **قـال ابـن فـارس رحمـه الله:**(كَتَـبَ): الْـكَافُ وَالتَّـاءُ وَالْبَـاءُ أَصْـلٌ صَحِيحٌ وَاحِـدٌ يـدلّ عَـلَى جَمْـعِ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، مِـنْ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ وَالْكِتَابَـةُ، **يُقَـالُ:** كَتَبْـتُ الْكِتَـابَ أَكْتُبُـهُ كَتْبًـا، وحينئذ، فضمّ الحـرفِ إلى الحرف، هو (كَتْب) لـه، وكذلك: ضمّ الـكلام بعضـه إلى بعـض، وإنْ كان أصلـه في الخـطّ في الصحـف، فإنـه يطلـق عـلى اللفـظ، والنطـق بـه عـلى جهـة التوسّـع أيضًا.

قـال الرّاغـب الأصفهـاني رحمـه اللـه: (**الْكَتْـبُ**): ضـمُّ أديـم إلى أديـم بالخياطـة، يقـال: كَتَبْـتُ السّـقاء، وكَتَبْـتُ البغلـة: جمعـت بـين شـفْريها بحلقـة، **وفي التّعاريـف:** ضـمّ الحروف بعضهـا إلى بعض بالخـطّ، وقد يقـال ذلـك للمضْمـوم بعضهـا إلى بعـض باللّفظ، فالأصـلُ في الْكِتَابَـة: النّظم بالخـطّ، لكن يسـتعار كلّ واحد للآخـر، ولهـذا سـمّي كلام اللـه: وإن لم يُكْتَـبْ (كِتَابًـا) كقولـه: (**الم ذلِـكَ الْكِتـابُ**)، **وقيل إنّ:** الضـمّ والجمع، الـذي هـو مـرادف (**الكتْـب**) هنـا؛ ليس المراد بـه الخطّ واللفظ، بـل المراد به: مـا ضمّه القـرآن، وجمعه من المعاني، والأحـكام، والعِـبر، والآيات.

---

(١) سورة: السجدة، الآية رقم: ٢

قال الفيروزآبادي رحمه الله: قولُه تعالى: ﴿الم {١/٢} ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يعني: القرآن سُمّي كتابًا لما جُمع فيه من القصص والأَمر والنَّهي والأَمثال والشرائع والمواعظ، أو لأَنه جُمع فيه مقاصد الكتب المنزلة على سائر الأَنبياء، وكلُّ شيء جمعَت بعضَه إلى بعض فقد كتبتَه.

وقال العلّامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله: وأمّا (**الكتاب**): فأصلُه اسم جنسٍ مطلق ومعهود، وباعتبار عهده أطلق على القرآن كثيرًا، **قال تعالى:** ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، وإنّما سمّي (**كتابًا**): لأنّ الله جعله جامعًا للشريعة، فأشبه التوراة، لأنّها كانت مكتوبةً في زمن الرّسول المرسل بها، وأشبه الإنجيل الذي لم يُكتب في زمن الرّسول الذي أرسل به، ولكنّه كتبه بعض أصحابه وأصحابهم، وأنّ الله أمر رسولَه أن يكتب كلّ ما أنزل عليه منه ليكون حجّةً على الذين يدخلون في الإسلام ولم يتلقّوه بحفظ قلوبهم، وفي هذه التّسمية معجزة للرسولﷺ بأنّ ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(٢).

وقيل إنّ تسمية القرآن كتابًا: إنّما ينظر فيها إلى ما قد كُتب منه بالفعل، والقرآن متى كُتب منه لوح؛ فهو (كتاب)، وقد كانت الرّسائل التي تُرسل إلى الملوك ونحوهم، تسمّى: (**كُتُبًا**)، مع أنها ليست (**كتبًا**) بالمعنى الذي نعرفُه، ولا هي مجلّدات، ولا صحف عديدة، بل هي عادة: صحيفة واحدة، والقرآن: كان يُكتب ما ينزل منه، وقد كان **النبي**- ﷺ- قد اتخذ (**كُتَابًا**) للوحي، كما سبق نقله.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية رقم: ٩٢

(٢) سورة: الأنبياء، الآية رقم: ٥٠

بعضُ ما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال أبو عبد الله الإسحاقي: تقعُ هذه الآية في صدْر المصحف، فهي من أوائل ما تقع عليه عينُك من الآيات إذا فتحتَ كتاب الله، فكأنها ديباجةٌ للمصحف، وتوقيع صاحب الكتاب في طرّته، وقاعدة ينطلق منها قارئ هذا الكتاب جعلها في أوّله، وتصدير مهمّ وضعه في مقدّمته، لا بدّ أن يطّلع عليه مَن أراد قراءته.

إنّ هذه الآية: تنبيهٌ لكلّ مَن يقرأ هذا الكتاب أنّه لن يجد أي خطأ، فلا يتكلّف عناء البحث، ولا يتجشّم مشقّة التفتيش، ولا يحمّل نفسه مئونة التّنقيب، فلن يقف على خلل أيًّا كان، مهْما حاول ذلك جاهدًا فلا يتعب نفسَه، فقد نفى الله عن كتابه كلّ ريب.

وقال الدكتور مساعد الطيار: إنّ كلّ كتاب تقرأه غير القرآن تجد نفسَك لا تُسلِّم لكلّ ما في هذا الكتاب من قضايا، وأي مؤلَف تطالعُه فإنك لا تطمئن لكلّ ما فيه، وكم كتاب يقرأه الإنسان فيجد فيه التّناقض والاضطراب، وكمْ من كلام يطالعه المرء فيتّهم صاحبه بعدم الحياد والتّعصب أو المبالغة أو القصور، ونحو ذلك.

وأمّا القرآن: ففيه الطمأنينة، واليقين، والسّكينة، كما **قال تعالى**: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[١]، وقال ﷺ: «**تلك السّكينة تنزّلت لتلاوة القرآن**»[٢]، فللقرآن التسليم المُطلق، والقبول الكامل، والإذعان التّام، والخضوع الكلّي، وليس هذا إلّا للقرآن، وصدق ابن رجب الحنبلي حين قال: (**ويأبى اللهُ العصمة لكتابٍ غير كتابه**)[٣].

(١) سورة: الرعد، الآية رقم: ٢٨.

(٢) الحديث: رواه الإمام البخاري من رواية البراء بن عازب، برقم ٥٠١١ .

(٣) الأثر: جاء في كتاب القواعد الفقهية، لابن رجب الحنبلي، ص٣.

وذكـر الأسـتاذ: سـعيد مصطفـى ديـاب: أنّه قرأ أحـد الغربيّين هاتين الآيتين ثمّ أعلن إسـلامه، فلمّا سـئل عـن سـبب إسـلامه، قـال: هذا الـكلام لا يقوله إلّا اللـه، فإنّ النّقص مِن شـأن البشر.

قلـتُ صـدق واللـه، فإنـه لا يسـتطيع أحـدٌ مـن البـشر أنْ يؤلـف كتابًا، ثـمّ يقـول: كلامي صـوابٌ لا يحتمل الخطـأ.. وقديمًـا قـال القـاضي **عبـد الرحيم البيسـاني**: (إني رأيتُ أنّه لا يكتب أحـدٌ كتابًا في يومه إلّا قـال في غَدِهِ: لـوُ غُـيِّرَ هـذا لـكان أحسـن، ولـو زيـد هـذا لـكان يُستحَسـن، ولـو قُـدِّم هذا لـكان أفضـل، ولو تُـرِك هـذا لكان أجمـل، وهـذا أعظـم العِـبَر وهـو دليلٌ على اسـتيلاء النّقـص على جُملـة البشر).

فلقـد تحـدّى اللـه تعـالى العـربَ وهُم أسـاطينُ البلاغـة، وأربـابُ الفصاحة، أن يأتـوا بمثل القـرآن مع أنّه مـن الحـروف التـي يتكلّمـون بهـا، ﴿الـم ﴾، ﴿حـم﴾، ﴿عسـق﴾ فعجـزوا أن يأتـوا بمثلـه، ثـمّ تحداهـم أن يأتـوا بعـشرِ سـوَر مـن مثلـه، فعجزوا، ثـمّ تحداهم أن يأتوا بسـورةٍ من مثلـه، ولو كانت بقدر أصْغر سـوره، فعجـزوا، فتحـدّى الإنـس والجـنّ فعجـزوا، وأنّى لهم أن يعارضـوه وهو كلام اللـه العزيز الحكيم، **قَـالَ تَعَالَى**: ﴿قُـل لَّئِنِ اجْتَمَعَـتِ الإِنـسُ وَالْجِـنُّ عَـلَى أَن يَأْتُـواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُـرْآنِ لاَ يَأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ ظَهِـيرًا ﴾[1]، ومـع ذلـك يفـرط كثـيرٌ مـن المسـلمين في تلاوته وتدبّـره وحفظـه والعمل به.

وجاء في كتاب الحاوي لعبد الرحمن القمّاش:

قولـه تعـالى: ﴿ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْـبَ فِيهِ ﴾: قد يشـير هـذا التعبـيرُ إلى أنّ الله تعالى وعدَ نبيّـه أن ينزّل عليـه كتابًـا يهتـدي بـه مـن طلـب الحقّ، ولا يشـكّ فيه مَـن كان له قلـب أو ألقى السـمع وهو شـهيد، وها هو سـبحانه قـد وفّى بوعده الآن.

وقولـه: ﴿ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ﴾: ليـس ادّعـاءً، بـل تقريـر لحقيقـةٍ قرآنيـة مشـهودة، هـي أنّ القـرآن يشـهد بذاتـه عـلى حقّانيّتـه، وبعبـارة أخـرى فـإنّ مظاهـر الصـدق والعظمـة والانسـجام والاسـتحكام وعمـق المعـاني وحـلاوة الألفـاظ والعبـارات وفصاحتهـا مـن الوضـوح بدرجـةٍ تُبعـد عنـه كلّ شـكّ، ومـن

---

(١) سورة: الإسراء، الآية رقم: ٨٨

المشـهود أنّ مـرّ العصـور وكـرّ الدّهـور لم يقلّـل مـن طراوة القـرآن، بـل إنّ حقائـق القـرآن، ازدادت وضوحًا بتطـوّر العلـوم وبانكشـاف أسرار الكائنات.

وجاء في كتاب: إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز للعلامة النورسي:

اعلـم أنّ: مـن أسـاس البلاغـة الـذي بـه يبرقُ حُسـن الكلام تجـاوب الهيئـات وتداعـي القيـود وتأخذها عـلى المقصـد الأصـلي، وإمـداد كلّ بقـدْرِ الطاقـة للمقصـد، الـذي هـو كمجمّع الأودية أو الحـوض المتشرب مـن الجوانب.

فمثـلًا: ﴿ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾: هذه الآية ذُكـرت لمدح القـرآن وإثبات الكمال لـه، ولقـد تجـاوب وتآخـذ عـلى هـذا المقصد: القَسَـم بـ (**الــم**) على وجـه، وإشـارة (**ذلك**): ومحسوسـيّته و بُعديّتـه، والألـف والـلام في (**الكتـاب**)، وتوجيـه إثباتـه بــ (**لاريـب فيـه**)، فـكلٌّ كما يمـدّ المقصد ويلقـي إليه حصّتـه يرمـز ويشـفّ مـن تحتـه عـن مـا يسـتند إليـه مـن الدليـل وإن دقّ، فـإنْ شـئت تأمّـل في القَسَـم بـ (**الــم**) إذْ أنّـه كـما يؤكـد، كذلـك يشـعر بالتعظيـم الموجّه للنظـر الموجب لانكشـاف ما تحته مـن اللطائف المذكـورة ليبرهـن عـلى الدّعـوى المرمـوز إليهـا، وانظـر الإشـارة في (**ذلـك**) المختصـة بالرجـوع إلى الـذّات مع الصفـات لتعلـم أنهـا كـما تفيـد التعظيم لأنها: إمّا **إشـارة** إلى المشـار إليـه بـ (**الــم**) أو **المبشّر بـه** في التوراة والإنجيـل، كذلـك تلـوّح بدليلهـا، إذ مـا أعظـم مـا أقسـم بـه، وما أكمـل ما بـشّرت به التـوراة والإنجيـل، ثمّ أمعِـن النظـر في الإشـارة الحسـيّة إلى الأمـر المعقـول لترى أنها كـما تفيد التعظيـم والأهمية، كذلك تشـير إلى أنّ القـرآن كالمغناطيـس المنجـذب إليـه الأذهـانُ، والمتزاحـم عليـه الأنظـارُ المجْـبِر لخيـالِ كلّ على الاشـتغال بـه، ثـمّ تفكّـر في البُعديـة المسـتفادة مـن (**ذلـك**)، إذ أنها كـما تفيد علـوّ الرّتبـة المفيد لكمالـه، كذلك تومئ إلى دليلـه بأنّـه بعيـد عـن مـا سـلك عليه أمثالـه، ثـمّ تدبّـر في (**ال**) (**الكتاب**)؛ لأنّهـا كما تفيد الحـصر العرفي المُفيـد للكـمال، تفتـح بـاب الموازنـة وتلمّـح بهـا إلى أن القـرآن كما جمع محاسـنَ الكتـب قـد زاد عليها فهو أكملهـا، ثـمّ قـفْ عـلى التعبـير بــ (**الكتاب**) كيف يلـوّح بأنّ الكتـاب لا يكون مـن مصنوع الأمّـيّ الذي ليس من أهـل القـراءة والكتابة.

(١)

قال إمام أهل التفسير محمد بن جرير الطبري[١] رحمه الله (٣١٠هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قال عامّةُ المفسرين: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: هذا الكتاب، فإنْ **قال قائل**: وكيف يجوز أنْ يكون ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى (**هذا**)؟ و(**هذا**) لا شكّ إشارة إلى حاضر معاين، و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى غائب غير حاضر ولا معاين؟ **قيل**: جاز ذلك؛ لأنّ كلّ ما تقضى، أو قرب تقضيه من الإخبار، فهو وإنْ صار بمعنى غير الحاضر فكالحاضر عند المخاطب، وذلك كالرّجل يحدّث الرجل الحديث، فيقول السّامع: (**إنّ ذلك والله لكما قلت**)، و(**هذا والله كما قلت**)، و(**هو والله كما ذكرت**)، فيخبر عنه مرّة بمعنى الغائب، إذا كان قد تقضى ومضى، ومرّة بمعنى الحاضر، لقرب جوابه من كلام مُخبره، كأنه غير منقض.

فكذلك ﴿ذَلِكَ﴾ في **قوله تعالى**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ لأنّه جلّ ذكره لمّا قدم قبل ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ﴿الم﴾، التي ذكرنا تصرفها في وجوهها من المعاني على ما وصفنا، قال **لنبيه** ﷺ: يا **محمد**، هذا الذي ذكرته وبيّنته لك، ﴿الْكِتَابُ﴾، ولذلك حسن وضع (**ذلك**) في مكان

---

(١) محمد بن جرير: ابن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدّهر علـمًا، وذكاء، وكثرة تصانيف. قلّ أنْ ترى العيون مثله، سمع محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، وإسماعيل بن موسى السدي، وإسحاق بن أبي إسرائيل، ومحمد بن أبي معشر، حدثه بالمغازي عن أبيه، ومحمد بن حميد الرازي، وأحمد بن منيع، وأبا كريب محمد بن العلاء، وهناد بن السري، وأبا همام السكوني، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني، وبندارا، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، والفضل بن الصباح، وعبدة بن عبد الله الصفار، وسلم بن جنادة، ويونس بن عبد الأعلى، ويعقوب الدورقي، واستقرّ في أواخر أمره ببغداد. وكان من كبار أئمة الاجتهاد. انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٢٦٨.

(**هـذا**)، لأنّـه أشـير بـه إلى الخـبر عـمّا تضمنـه قولـه (**الم**) مـن المعـاني، بعـد تقـضي الخبر عنـه بــ (**الم**)، فصار لقـرب الخـبر عنـه مـن تقضّيـه، كالحـاضر المشـار إليـه، فأخـبر بـه بــ (**ذلـك**) لانقضائـه، ومصـير الخـبر عنـه كالخـبر عـن الغائب.

وترجمـه المفـسّرون: أنّـه بمعنـى (**هـذا**)، لقـرب الخـبر عنه مـن انقضائه، فكان كالمشـاهد المشـار إليه بـ (**هـذا**)، نحـو الـذي وصفنـا من الـكلام الجاري بـين النـاس في محاوراتهم.

وكـما قـال جـلّ ذكـره: ﴿وَاذْكُرْ إِسْـمَاعِيلَ وَالْيَسَـعَ وَذَا الْكِفْـلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَـارِ {٤٨/٣٨} هَـذَا ذِكْرٌ ﴾[1]، فهـذا مـا في (**ذلـك**) إذا عنـى بهـا (**هـذا**)، وقد يحتمـل قوله جلّ ذكـره: ﴿ذَلِـكَ الْكِتَابُ ﴾ أن يكـون معنيًّا به السـور التـي نزلـت قبـل سـورة البقـرة بمكة والمدينـة، فكأنّه قـال- جلّ ثنـاؤه- لنبيه **محمّـد** ﷺ: يا **محمد،** اعلـم أنّ مـا تضمّنتـه سـور (**الكتـاب**) التـي قـد أنزلتهـا إليـك، هـو الكتـاب الـذي لا ريـب فيـه، ثـمّ ترجمه المُفـسرون بـأنّ معنـى (**ذلـك**): (**هـذا الكتـاب**)، إذ كانـت تلـك السّـور التـي نزلـت قبـل سـورة البقـرة، مـن جُملـة جميـع كتابنـا هـذا الـذي أنزلـه الله- عـزّ وجل- عـلى نبينـا محمد ﷺ.

وكان التأويل الأوّل أولى بما قاله المفسّرون: لأنّ ذلك أظهر معاني قولهم الذي قالوه في (**ذلك**).

وقـد وجّـه معنـى: (**ذلـك**) بعضهـم، **وقـال بعضهـم**: (**ذلـك الكتـاب**)، يعنـي به التـوراة والإنجيـل، وإذا وُجِـه تأويـل (**ذلـك**) إلى هـذا الوجْـه، فـلا مئونـة فيـه على متأوّلـه كذلـك، لأن (**ذلك**): يكـون حينئـذ إخبارًا عـن غائـب عـلى صحّة.

---

(١) سورة: ص، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

(٢)

وجاء في كتاب معاني القرآن وإعرابه لإبراهيم بن السرّي بن سهل[١]**، الزجاج رحمه الله** (٣١١هـ)

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

زعم الأخفش وأبو عبيدة أنّ معناه: هذا الكتاب، قال الشاعر:

أقول له والرمح يأطر متنه تامَّلْ خُفَافًا إنني أنا ذَلكا

قال المعنى: إنّني أنا هذا.

وقال غيرُهما من النحويّين: إنّ معناه القرآن (**ذلك الكتاب**): الذي وعدوا به على لسان **موسى وعيسى**، صلى الله عليهما وسلم.

ودليل ذلك قوله تعالى:﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾[٢]، **وكذلك قوله**: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣]، فالمعنى: هذا ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿الم {١/٢} ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾فيقال: ذلك للشيءِ الذي قد جرى ذكرُه، فإن شئتَ قلت فيه **هذا**، وإنْ شِئتَ **قلت فيه**: **ذلك**، **كقولك**: أنفقت ثلاثة وثلاثة **فذلك** ستة.

---

(١) الإمام الزجاج: نحوي زمانه، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، مصنف كتاب: معاني القرآن، وله تآليف جمّة، لزم المبرد، فكان يعطيه من عمل الزجّاج كلّ يوم درهمًا، فنصحه وعلمه، ثمّ أدب القاسم بن عبيد الله الوزير، فكان سبب غناه، ثمّ كان من ندماء المعتضد، مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وقيل: مات في تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشرة وثلاثمائة.

انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٣٦٠.

(٢) سورة: البقرة، آية رقم: ٨٩.

(٣) سورة: البقرة، آية رقم: ١٤٦.

وقال عزَّ وجلّ: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾[1]، فقال: ﴿تِلْكَ﴾: فجائزٌ أنّ المعنى: تلك علاماتُ الكتاب، أي القرآن متكلّم به بحروف العرب التي نعقلها على ما وصفنا في شرح حروف الهجاءِ.

وموضع (ذلك): رفع لأنّه خبر ابتداءٍ على قول مَن قال: هذا القرآن (**ذلك**) (**الكتاب**): والكتاب رفع يسمّيه النحويّون عطف البيان، نحْو قولك: هذا الرجل أخوك، فالرّجل عطف البيان أي يبين من الذي أشرت إليه، والاسم من (**ذلك**): (**ذا**) والكاف زيدت للمخاطبة، ولا حظّ لها في الإعراب.

قال سيبويه: لو كان لها حظٌّ في الإعراب لقلت: (**ذاك**) نفسِه زيد، وهذا خطأ لا يجوز إلّا: **هذاك** نَفْسُه زيد، ولذلك (**ذانك**): يشهد أنّ (الكاف): لا موضع لها، لو كان لها موضع لكان جرًّا بالإِضافة، و(**النون**): لا تدخل مع الإضافة، و(**اللام**): تزاد مع ذلك للتوكيد، أعني توكيد الاسم لأنها إذا زيدت أسقطت معها: (**ها**)، **تقول**: (**ذلك**) الحقّ و(**ذاك**) الحقّ، و(**ها ذاك**) الحقّ، ويقبح: (**هذلك**) الحقّ لأنّ اللّام قد أكدت معنى الإشارة، وكسرت: (**اللام**) لالتقاء السَّاكنين، أعني: (**الألف**) من (**ذا**) و(**اللام**) التي بعدها، وكان ينبغي أن تكون ساكنة، ولكنّها كسرتَ لما قلناه، وكذلك يجب أن يكون موضع ذلك رفعًا فيمن جعل ذلك خبرًا عن (**الم**).

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: معناه لا شكّ فيه، **تقول**: رابني فلان إذا علمت الرّيبَة فيه، وأرابني إذا: أوهمني الرّيبة، قال الشاعر:

أخوك الذي إنْ ربتَه قال إنما ... أربتُ وإنْ عاتبته لان جانبه

وموضعُ (**لا ريب**): نصب، **قال سيبويه**: (**لا**): تعملُ فيما بعدها فتنصبه، ونصبها لَما بعدها كنصْبِ (إن): لَما بعدها إلّا أنّها تنصبه بغير تنوين، وزعم أنّها مع ما بعدها بمنزلة شيءٍ واحد، كأنها جواب **قول القائل**: هل مِن رجلٍ في الدار، (**فمن**) غير منفصلة من (**رجل**)، فإنْ **قال**

(١) سورة: الرعد، الآية رقم: ١.

قائل: فما أنكرت أن يكون جوابُ هل رجل في الدار؟ **قيل**: معنى (لا رجل في الدار): عموم النفي، لا يجوز أن يكون في الدار رجل، ولا أكثر منه من الرجال **إذا قلت**: (لا رجل في الدار)، فكذلك (هل مِنْ رجل في الدار): استفهام عنِ الواحد وأكثر منه، **فإذا قلت**: (هل رجل في الدار) أو (لا رَجُل في الدار): جاز أن يكون في الدار رجلان لأنّك إنما أخبَرْتَ أنّه ليس فيها واحد، فيجوز أن يكون فيها أكثر، **فإذا قلت**: (لا رجُلَ في الدار): فهو نفي عام، وكذلك (**لَا رَيبَ فِيهِ**).

(٣)

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم لابن أبي حاتم الرازي[1] رحمه الله (٣٢٧هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

عن عكرمة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ قال: (**هذا الكتاب**)، **قال**: وهكذا فسّره **سعيد بن جبير والسدّي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم**، وعن **الحسن**، في **قول الله تعالى**: ﴿الْكِتَابُ﴾ **قال**: القرآن.

قال أبو محمد: وروي عن **ابن عباس** مثل ذلك، **وقوله**: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، وعن **أبي الدرداء قال**: (**الريب**) يعني الشكّ من الكفر.

وقال أبو محمد: ولا أعلمُ في هذا الحرف اختلافًا بين المفسّرين، منهم **ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، ونافع مولى ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد، وقوله**: ﴿هُدًى﴾: اختلف في تفسيره **على أوجه**: فمنهم مَن **قال**: هدى من الضلالة، ومنهم مَن فسّره على نور: فعَنْ **السدي أنه قال:** وأمّا ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: نور للمتقين، ومنهم مَن فسّره على تبيان للمتقين.

(١) ابن أبي حاتم: العلامة، الحافظ، يُكنى: أبا محمد. ولد سنة أربعين ومائتين أو إحدى وأربعين، قال أبو الحسن علي بن إبراهيم الرازي الخطيب في ترجمة عملها لابن أبي حاتم: كان- رحمه الله- قد كساه الله نورًا وبهاء، يسر مَن نظر إليه، سمعته يقول: رحل بي أبي سنة خمس وخمسين ومائتين، وما احتلمت بعد، فلمّا بلغنا ذا الحليفة احتلمت، فسرّ أبي، حيث أدركت حجّة الإسلام، فسمعت في هذه السنة من محمد بن أبي عبد الرحمن المقرئ، قلت: وسمع من أبي سعيد الأشج، والحسن بن عرفة، والزعفراني، ويونس بن عبد الأعلى، وعلي بن المنذر الطريقي وأحمد بن سنان، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وحجاج بن الشاعر، توفي ابن أبي حاتم في المحرم، سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالري، وله بضع وثمانون سنة، انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٢٦٤.

فعَـن **سـعيد بـن جبير** أنّه **قـال**: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: تبيـان للمتّقين، و**قولـه**: ﴿لِّلْمُتَّقِـينَ﴾: ففيه أوجه:
الوجـه الأول: فقـد قـال **رسـول اللـه** ﷺ: «**لا يكـون الرجـلُ مـن المتقـين حتـى يدعَ مـا لا بأس بـه حذرًا لما به البـأس**»[1].

الوجـهُ الثـاني: فعَـن **معـاذ بـن جبـل** قال: يحبـس الناسُ يـوم القيامـة في بقيع واحـدٍ، فينادي منـاد: أين المتّقـون؟ فيقومـون في كنـف الرّحمـن، لا يحتجـب الله منهم ولا يسـتتر، **قلـت**: مَن المتقون؟ **قـال**: قوم اتّقوا الـشركَ وعبـادة الأوثان، وأخلصوا للـه العبادة، فيمـرّون إلى الجنة).

وأمّـا الوجـهُ الثالـث: فعـن **ابـن عبـاس قـال**: يقـول **اللـهُ سـبحانه** وبحمـده: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ﴾: أي الذيـن يحـذرون مـن اللـه عقوبتـه في تـرك مـا يعرفـون مِـن الهـدى، ويرجـون رحمتَـه بالتصديق بمـا جاء منه .

والوجـهُ الرّابـع: عـن **السـدّي قـال**: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ﴾: نـورٌ للمتقـين، وهُـم المؤمنـون، وعـن **قتـادة** في **قولـه**: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ﴾: مَـن هُم؟ نعتهم اللـه، فأثبت نعتَهـم ووصفَهم، **فقـال**: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ﴾.

---

(١) الحديث: ورد في سنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع، برقم ٢٤٥١، وفي تفسير ابن أبي حاتم برقم ٦١، من رواية أبي عفيف، أحد أصحاب معاذ بن جبل، ص٣٤، وفي رياض الصالحين بشرح الشيخ/ ابن عثيمين، ج١، ص٦٢٤.

(٤)

وجاء في كتاب بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي[1] **رحمه الله** (٣٧٣هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: أي هذا الكتاب لا رَيْبَ فِيهِ، أي لا شكّ فيه أنّه مني، لم يختلقه **محمد**- ﷺ- من تلقاء نفسه، وقد يوضع (**ذلك**) بمعنى هذا، كما **قال القائل**:

أقول له والرمح يأْطِرُ مَتْنَه تَأَمَّلْ خِفَافًا أَنَّنِي أَنَا ذَلِكَا

يعني هذا.

وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي كنت وعدتك يوم الميثاق أنْ أوحيه إليك.

وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي وعدت في التوراة والإنجيل أنْ أنزل على **محمد** ﷺ.

وروي عن زيد بن أسلم أنّه قال: أراد بالكتاب اللّوح المحفوظ، يعني الكتاب ثبت في اللّوح المحفوظ.

وقوله سبحانه: ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: أي لا شكّ فيه أنّه من الله تعالى، ولم يختلقه **محمد** من تِلقاء نفسه. **فإنْ قيل**: كيف يجوز أنْ يقال: لا شكّ فيه؟ وقد شكّ فيه كثيرٌ من الناس وهُم الكفار والمنافقون؟ **قيل له**: معناه لا شكّ فيه عند المؤمنين وعند العقلاء.

---

(١) أبو الليث السمرقندي: هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، وقيل: نصر بن محمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، وكنيته (أبو الليث)، وكان يلقَب بإمام الهدى والفقيه، نشأ وعاش بسمرقند، وولد فيها أيضًا، ولذلك نسب إليها، تاريخ مولده لم يشَرْ إليه بشكل محدّد، لكن ذكر أنّه ما بين ٣٠١ هـ - ٣١٠ هـ اشتهر مكان مولده (سمرقند) وهي إحدى مدن خراسان؛ بكثرة العلماء والوعّاظ فيها، ولهذا السبب كان يتوجّه لها طلاب العلم، وبالإضافة لهذا فقد امتازت بجمال مناخها. انظر: معجم البلدان، ج٥، ص١٢. طبقات المفسرين، ص: ٩١ - ٩٢، المؤلف: أحمد بن محمد الأدنهوي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧. سير أعلام النبلاء، ج١٦ ص٣٢٣.

وقيـل: معنـاه لا شـكّ فيـه، أي لا ينبغـي أن يشَـكّ فيـه؛ لأنّ القـرآن معجزٌ، فـلا ينبغي أن يشـكّ فيه أنّه من اللـه تعالى.

قولُه عزّ وجل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: بيانًا لهم من الضّلالة للمتقين الذين يتّقون الشّركَ.

والكبائـر والفواحـش، فهـذا القـرآن بيـانٌ لهم مـن الضّلالـة، وبيانٌ لهم من الشـبهات، وبيـان الحلال من الحـرام. **فإنْ قيـل**: فيـه بيـانٌ لجميـع النـاس، فكيـف أضافـه إلى المتّقـين خاصّـة؟ **قيـل لـه**: لأنّ المتقـين هُـم الذيـن ينتفعـون بالبيـان، ويعملـون به، فإذا كانـوا هُم الذين ينتفعـون؛ صار في الحقيقة حاصـل البيان لهم.

روي عـن أبي روق أنّـه قـال: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾ أي: كرامة لهم، **يعني**: إنّما أضيـف إليهم إجلالًا وكرامة لهـم، وبيانًا لفضلهم.

(٥)

وجاء في كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد الثعلبي[1] رحمه الله (٤٢٧هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

﴿ذَلِكَ﴾: قرأت العامّة ذلِكَ بفتح الذال، وكذلك هذه وهاتان، وأجاز أبو عمرو الإمالةَ في هذه، (**الذال**): للاسم، (**واللام**): عماد، (**والكاف**): خطاب، وهو إشارة إلى الغائب.

و﴿الْكِتَابُ﴾: بمعنى المكتوب كالحساب والعماد، **قال الشاعر**:

بشّرت عيالي إذ رأيت صحيفة أتتك من الحجاج تتلى كتابها

أو مكتوبها، فوضع المصدر موضعَ الاسم، كما يُقال للمخلوق خلق، وللمصوّر تصوير، **وقال:** دراهم من ضرب الأمير، أي هي مَضروبة، وأصلُه من الكتب، وهو ضمّ الحروف بعضها إلى بعض، مأخوذ من قولهم: كتب الخرز، إذا خرزته قسْمين، ويُقال للخرز كتبة وجمعها كتب.

قال ذو المرّجة:

وفراء غرفية أثأى؟ خوارزها مشلشل ضيعته فبينها الكتب

ويقال: كتبت البغلة، إذا حرمت من سفرتها الخلقة، ومنه قيل للجند كتيبة، وجمعها كتائب.

---

(١) **الثعلبي:** هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المفسّر المشهور، كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنّف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير، يقال له الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له، وليس بنسب، قاله بعض العلماء: توفّي سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وقال غيرُه: توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وقال غيره: توفي يوم الأربعاء لسبع بَقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، والثعلبي بفتح الثاء المثلثة وسكون العين المهملة وبعد اللام المفتوحة باء موحدة. **انظر:** وفيات الأعيان، ج١، ص٧٩.

قال الشاعر:

وكتيبة جاءوا ترفل ... في الحديد لها ذخرُ

واختلفوا في هذا:﴿الْكِتَابُ﴾، **قال: ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والضحّاك ومقاتل:** هو القرآن، وعلى هذا القول يكون (**ذلِكَ**) بمعنى: (هذا) **كقول الله تعالى:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[1] أي هذه.

وقال خفاف بن ندبه السلمي:

إن تكُ خيلي قد أصيب صميمها ... فعمدًا على عين تيممت مالكا

أقول له والرمح يأطر متنه ... تأمل خفافًا إنني أنا ذالكا

يريد هذا.

وروى أبو الضحى عن ابن عباس قال: معناه ذلِكَ الْكِتابُ الذي أخبرتك أن أوجّه إليك.

وقال عطاء بن السائب: ذلِكَ الْكِتابُ الذي وعدتكم يوم الميثاق.

وقال يمان بن رئاب: ذلِكَ الْكِتابُ الذي ذكرته في التوراة والإنجيل.

وقال سعيد بن جبير: هو اللوح المحفوظ.

وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة.

وقال الفراء: إنّ الله تعالى وعدَ نبيّه أنْ ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء، ولا يخْلَق على كثرة الردّ، فلّما أنزل القرآن **قال:** هو الكتاب الذي وعدتك.

وقال ابن كيسان: تأويله أنّ الله تعالى أنزل قبل البقرة بضعَ عشرة سورة، كذّب بكلّها المشركون، ثمّ أنزل سورة البقرة بعدها، فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يعني ما تقدّم البقرة من القرآن.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية رقم: ٨٣.

وقيل: ذلِكَ الْكِتابُ الذي كذب به مالك بن الصيف اليهودي.

﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شكّ فيه، أنّه من عند الله.

﴿هُدًى﴾: أي هو هدى، وتمّ الكلام عند قوله فِيهِ، **وقيل**: هو نصب على الحال، أي هاديًا تقديرُه لا ريب في هدايته للمتقين.

قال أهلُ المعاني: ظاهرُه نفي وباطنُه نهي، أي لا ترتابوا فيه، **كقوله تعالى**: ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[1]: أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الهدى، والبيان وما يهتدي به ويستبين به الإنسان.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾: اعلم أنّ التقوى أصلها: وقي مَن وقيت، فجعلت الواو تاء، كالتكلان، فأصلُه وكلان مِن وكلت، والتّخمة أصلها وخمة من وخم معدته إذا لم يستمْرئ، واختلف العلماءُ في معنى التّقوى وحقيقة المتّقي، فقال رسولُ الله ﷺ: (**جماع التقوى في قول الله تعالى**: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[2].

قال ابنُ عباس: المتّقي الذي يتقي الشرك والكبائر والفواحش.

وقال ابنُ عمر: التقوى أن لا يرى نفسَه خيرًا من أحد.

وقال الحسن: المتّقي الذي يقول لكلّ مَن رآه: هذا خيرٌ منّي.

وقال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار:«حدّثني عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمّرت، فقال كعب: ذلك التقوى»[3].

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم ١٩٧.

(٢) **سورة**: النحل، الآية رقم ٩٠، والحديث في روضة الواعظين للنيسابوري، ص٤٣٧.

(٣) **الأثر**: رواه البيهقي في الزهد الكبير، برقم: (٩٧٣)، من طريق عن هشام بن زياد، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: قال رجلٌ لأبي هريرة: ما التقوى؟ قال: (أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى، وعزاه في السيوطي لابن أبي الدنيا.

وقال عمرُ بن عبد العزيز: ليس التقوى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكنّ التقوى ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق بعد ذلك فهو خيرٌ على خير[1].

وقيل لطلق بن حبيب: أجْمِل لنا التقوى؟ فقال: التقوى عملٌ يطلبه الله على نورٍ من الله رجاءَ ثواب الله، والتقوى تركُ معصية الله على نورٍ من الله مخافةَ عقاب الله.

وقال بكر بن عبد الله: لا يكون الرجلُ تقيًّا حتى يكون يتقي الطّمع، ويتقي الغضب.

وقال شهر بن حوشب: المتّقي الذي يترك ما لا يأتمن به حذرًا لما به بأس.

وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّما سمّي المتقون؟ لتركهم ما لا بأس به حذرًا من الوقوع فيما به بأس»[2].

وقال سُفيان الثوري والفضيل: هو الذي يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه.

وقال الجُنيد بن محمد: ليس المتّقي الذي يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه، إنّما المتقي الذي يحبّ للناس أكثَرَ ممّا يحبّ لنفسه، أتدرون ما وقع لأستاذي سري بن المفلّس؟ سلّم عليه ذات يوم صديقٌ له، فردّ عليه وهو عابس لم يبشّ له، فقلت له في ذلك، فقال: بلغني أنّ المرء المسلم إذا سلّم على أخيه وردّ عليه أخوه قسمت بينهما مائة رحمة، فتسعون لأجلهما، وعشرة للآخر فأحببتُ أن يكون له التسعون.

وقال محمد بن علي الترمذي : هو الذي لا خصم له.

---

(١) **الأثر:** وردَ في الزهد الكبير، للبيهقي، برقم: ٩٧٠، وفي تاريخ دمشق، لابن عساكر، برقم: ٤٨١٠٦.

(٢) الحديث: أخرجه الترمذي (ك ٣٤ / صفة القيامة / ب ١٩ / ح ٢٤٥١) وقال: هذا حديث حسنٌ غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه. وأخرجه ابن ماجه (ك ٣٧ / الزهد / ب ٢٤ / ح ٤٢١٥) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة به، وأخرجه الحاكم (ك ٤٧ / الرقاق / ب ٣٣٠٢ / ح ٧٩٦٩) من طريق عبد الله بن الحسين، قال: حدثنا الحارث بن أبي أسامة به، بنحوه. وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه البيهقي في السنن (٥ / ٣٣٥ / كتاب البيوع) من طريق أبي طاهر الفقيه، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، قال: حدثنا أبو الأزهر به، وعزاه الألباني أيضًا في غاية المرام (ص ١٠٥) لعبد بن حميد في المنتخب من المسند وابن عساكر في التاريخ من طريق أبي عقيل عن عبد الله بن يزيد به.

وقال السري بن المفلّس:هو الذي يبغض نفسه.

وقال الشبلي: هو الذي يبغض ما دون الله.

وقال ﷺ: «**أصدق كلمةٍ قالها شّاعر؛ قول لبيد: إلّا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ**»(١).

وقال الثوري: هو الذي اتّقى الدنيا وأقلها.

وقال محمد بن يوسف المقري: مجانبة كلّ ما يبعدك عن الله.

وقال القاسم بن القاسم: المحافظة على آداب الشريعة.

وقال أبو زيد: هو التورّع عن جميع الشبهات.

وقال أيضًا: المتقي مَن إذا قال قال لله، وإذا سكتَ سكت لله، وإذا ذكرَ ذكر لله تعالى.

وقال الفضيل: لا يكون العبدُ من المتقين حتى يأمنه عدوّه كما يأمنه صديقه.

وقال سهل: المتقي مَن تبرّأ من حوله وقوّته.

وقيل: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك.

وقيل: هو الاقتداء **بالنبي** ﷺ.

وقيل: هو أنْ تتقي بقلبك عن الغفلات، وبنفسك من الشهوات، وبحلقك من اللذات، وبجوارحك من السّيئات، فحينئذ يرجى لك الوصول لمالك ملك الأرض والسموات.

---

(١) **الحديث**: أخرجه بهذا اللفظ الطبري في تهذيب الآثار(٩٧١)، وفيه شريك بن عبد الله النخعي وهو سيئ الحفظ، وبرقم (٩٧٢) وفيه قزعة بن سويد وهو ضعيف بزيادة «وكلّ نعيم لا محالة زائل» فهي شاذّة، وبغير هذه الزيادة أخرجه: البخاري برقم (٣٨٤١) (٦١٤٧)(٦٤٨٩)، ومسلم برقم (٢٢٥٦) والحميدي في مسنده برقم (١٠٥٣) وأحمد في مسنده برقم (٧٣٨٣)، (٩٠٨٣)(٩١١٠) (٩٧٣٧)(٩٩٠٥) (١٠٠٧٤)(١٠٢٣٠) والترمذي في سننه برقم (٢٨٤٩) وابن راهويه في مسنده برقم (٣٧٠)، وابن حبان في صحيحه برقم (٥٧٨٤)، وأبو يعلى في مسنده برقم (٦٠١٥) من طرقٍ عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ إِلاّ كلّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلٌ**».

وقال أبو القاسم (حكيم): هو حسن الخلق.

وقال بعضهم: يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث: بحسن التوكّل فيما لم يَنَل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات.

وقيل: المتقي مَن اتّقى متابعة هواه.

وقال مالك: حدّثنا **وهب بن كيسان** أنّ بعض فقهاء أهل المدينة كتب إلى عبد الله بن الزبير أنّ لأهل التقى علامات يعرفون بها: الصّبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر عند النعمة، والتذلل لأحكام القرآن.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون أشدّ محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر.

وقال أبو تراب: بين يدي التقوى عقبات، مَن لا يجاوزها لا ينالها، اختيار الشدّة على النعمة، واختيار القول على الفضول، واختيار الذلّ على العزّ، واختيار الجهد على الراحة، واختيار الموت على الحياة.

وقال بعضُ الحكماء: لا يبلغ الرجل سنامَ التقوى إلّا إذا كان بحيث لو جعل ما في قلبه على طبق، فيُطاف به في السوق لم يستحِ من شيء عليها.

وقيل: التقوى أنْ تزيّن سرّك للحقّ، كما تزيّن علانيتك للخلق.

(٦)

وجاء في الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القرطبي المالكي[١] رحمه الله (٤٣٧هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قولُـه عـزّ وجـل: ﴿ذَلِـكَ الْكِتَـابُ ﴾: أكـثر أهل التفسـير عـلى أنّ (**ذلك**) بمعنى هـذا، كما تقـول للرّجل وهو يحدّثـك: (**ذلـك والله الحـق**)، أي هـذا والله الحق.

قـال اللـه جـلّ ذكْـره: ﴿وَجَـاءتْ سَـكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَـقِّ ذَلِكَ مَا كُنـتَ مِنْهُ تَحِيـدُ﴾[٢]، أي: هذا مـا كنتَ منه تحيـد، **وقـال**: ﴿تِلْـكَ عَشَـرَةٌ كَامِلَـةٌ ﴾[٣]، أي: هـذه عـشرة كاملـة، **وقـال**: ﴿ذَلِـكَ لِمَـن لَّـمْ يَكُـنْ أَهْلُـهُ حَاضِرِي الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ ﴾[٤]، أي: هـذا الحكـم لمَـن لم يكـنْ أهله حاضري المسـجد الحرام، **وقـال**: ﴿إِنَّ ذَلِـكَ لَحَقٌّ﴾[٥]، أي: إنّ هـذا، وهـو كثـير في كلام العـرب والقرآن.

وقيل: إنّ ﴿ذَلِكَ﴾: على بابها للإشارة إلى شيء معلوم، واختلف في ذلك المشار إليه، ما هو؟

فقيل: إنّ ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما نزل من القرآن قبل سورة البقرة.

---

(١) **مـكّي**: العلامـة المقـرئ، أبـو محمـد، مـكي بـن أبي طالـب حمـوش بـن محمـد بن مختـار، القيـسي القـيرواني، ثـمّ القرطبي، صاحـب التصانيـف، ولـد بالقـيروان سـنة خمس وخمسـين وثلاثمائـة، وأخذ عـن: ابن أبي زيـد، وأبي الحسـن القابسي، وتلا بمـصر عـلى أبي عـدي ابـن الإمـام، وأبي الطيـب بن غلبـون، وولده طاهر، وسـمع من محمد بـن علي الأدفـوي، وأحمد بن فـراس المـكي، وعـدّة.. وكان مـن أوعيـة العلـم مـع الديـن والسّـكينة والفهم، ارتحل مرتين؛ الأولى في سـنة سـت وسـبعين، مـات في قرطبـة عـن بضـع وثمانين سـنة. **انظر**: سـير أعـلام النبـلاء: ج ١٧ ص ٥٩١.

(٢) **سورة**: ق، الآية رقم: ١٩.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٦.

(٤) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٦.

(٥) **سورة**: ص، الآية رقم: ٦٤.

وقال الكسائي: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى الرّسالة والقرآن، وعمّا في السماء.

وقيل: إشارة إلى اللّوح المحفوظ.

وحكى الطبري أنّ بعض المفسرين قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى التوراة والإنجيل.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما وعد به **النبي**- ﷺ- من أنّه سينزل عليه كتاب فوقعتِ الإشارة على ما تقدّم من الوعد، وجيء باللام في ﴿ذَٰلِكَ﴾: للتأكيد في بعد الإشارة.

وقال الكسائي: جيء بها لئلّا يتوهّم أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ مضافٌ إلى الكاف.

وقيل: جيء بها عوضًا عن المحذوف مِن (ذا)، لأنّ أصل (**ذا**): أنْ يكون على ثلاثة أحرف؛ لأنّ أقلّ الأسماء ما يأتي على ثلاثة أحرف.

وقال علي بن سليمان: جيء باللام لتدلّ على شدّة التّراخي، وكسرت لئلّا تشبه لام الملك.

وقيل: كسرتْ لأنّها بدلٌ من همزة مكسورة؛ لأنّ أصل (**ذا**): (**ذاء**) على ثلاثة أحرف بهمزة مكسورة، ومِن العرب مَن يقول في (**ذلك**): (ذاءك) بالهمْز، حكاه الفراء وغيره، قال: وإنّما أبدلوا من الهمزة لامًا لأنّ (**ذاء**): خرج عن لفظ المُضاف، وليس بمضاف، واللام من أدوات المضاف، فأبدلوا من الهمزة لامًا، وكُسرت لأنّ الهمزة كانت مكسورة لالتقاء السّاكنين، وكان أصل (**ذا**): أنْ يكون بألفين ليكون على ثلاثةِ أحرف، إذْ هي أقلّ أصول الأسماء فأبدلت الألف الثانية همزة، وكسرت لسكونها وسكون الألف قبلها.

وقد قال الكسائي: إنّما أبدلوا من الهمزة لامًا لئلّا تشبه المضاف.

وقيل: إنّما كسرت اللام لالتقاء الساكنين لأنّها اجتلبت ساكنة، وقبلها الألف من (**ذا**) ساكنة، وكسرت اللام لالتقاء السّاكنين.

والاسم من (ذلك): (**ذا**) وقيل: الاسم: (**الذال**)، وزيدتِ الألفُ للتقوية، ولا موضع للكاف من الإعراب، إنّما هي للخطاب، ولو كان لها موضعٌ من الإعراب لكانت في موضع

خفـض بالإضافـة عـلى ظاهـر اللفظ، و(**ذا**): لا يضـافُ في شيء من كلام العرب، لأنّه معْرفـة، ولأنّ اللام تفصل بينهـما، ولأنّ المعنـى على غـير معنى الإضافة.

و﴿الْكِتَـابُ﴾: مشـتقّ مـن الكتيبـة، وهـي الخيـلُ المجتمعـة، **يقـال**: تَكتَّب القَـوْمُ: إذا اجتمعوا، فسـمّي المكتـوبُ كتابًـا لاجتـماع بعـض الحـروف إلى بعـض، ومنه **قـولُ العرب**: كُتِبَـتْ القِرْبَـة: إذا جُمِعَتْ خُـرَزًا إلى خُـرَز، وكَتَبْـتُ البَغلَـةَ: إذا جَمَعْـتَ بين شُـفْرَيْهَا بِحَلْقَة.

قولُـه عـزّ وجـل: ﴿لاَ رَيْـبَ فِيـهِ﴾، الهـاء: تعـودُ على: (**الكتـاب**)، **وقيل**: عـلى (**ذلك**)، **وقيل**: عـلى: (**الم**)، عـلى أنْ تكـون (**الم**): اسـمًا مـن أسـماء القـرآن، **وقيـل**: هـي راجعـة عـلى: (**هُـدًى**) مقدّمـة عليـه، يُـراد بـه التقديـم، أي (**ذلـك الكتـاب**): (**هـدى لا ريـب فيـه**)، أي في الهـدى، ورجوعهـا عـلى (**الكتـاب**) أبينهـا.

و(**الكتـاب**): القـرآن هـو نفـي عـام، نفـى اللـه جـلّ ذكْـره أن يكـونَ فيـه شـكّ عند مَـن وفّقـه الله، وقـد ارتـاب فيـه مَـن خذلـه اللـه ولم يوفّقه، ولذلـك **قـال**: ﴿وَإِن كُنتُـمْ فِي رَيْـبٍ مِّمَّـا نَزَّلْنَا عَلَـى عَبْدِنَا﴾[1]، معنـاه: وإن كُنتـم- عـلى زعمكـم- في شـكّ مـن ذلـك؛ فأتـوا ببرهـانٍ عـلى ذلـك، فقد أتيناكـم بما لا ريـب فيـه لمَـن وُفِّق.

والرّيب: مصدر رَابَني الأَمْرُ رَيْبًا.

وحكى المبرد: رَابَني الشيء تبيّنت فيه الرّيبة، وأَرَابَنِي إذا لم أتبينها فيه.

وحكى غيره: أَرَابَ الرجل في نفسه، ورَابَ غيره.

وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الهدى: الرّشد والبيان.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٣.

(٧)

وجاء في تفسير القشيري لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري[(١)] رحمه الله (٤٦٥هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قيل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: أي هذا الكتاب، وقيل إشارة إلى ما تقدّم إنزاله من الخطاب، وقيل ذلك الكتاب الذي وعدتُك إنزالَه عليك يوم الميثاق، ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: فهذا وقتُ إنزاله.

وقيل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: الذي كتبتُ فيه الرّحمة على نفسي لأمّتك، لا شكّ فيه، فتحقّق بقولي.

وقيل:﴿الْكِتَابُ﴾: الذي هو سابقُ حكمي، وقديم قضائي لمَن حكمت له بالسّعادة، أو ختمت عليه بالشقاوة، لا شكّ فيه.

وقيل: حكمي الذي أخبرت أنّ رحمتي سبقت على غضبي، لا شكّ فيه.

وقيل: إشارة إلى ما كتب في قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان، والمحبة والإحسان، وإن كتاب الأحباب عزيزٌ على الأحباب، لاسيّما عند فقد اللقاء، وبكتاب الأحباب سلوتهم وأنسهم، وفيه شفاؤهم وروحهم، وفي معناه أنشدوا:

---

(١) **القشيري**: هو الإمام الزاهد، القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسّر، صاحب (الرسالة)، ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وعانى الفروسية والعمل بالسلاح حتى برعَ في ذلك، ثمّ تعلّم الكتابة والعربية، وجوَّد، ثمّ سمع الحديث من: أبي الحسين أحمد بن محمد الخفاف، صاحب أبي العباس الثقفي، ومن أبي نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، وأبي الحسن العلوي، وعبد الرحمن بن إبراهيم المزكي، وعبد الله بن يوسف، وأبي بكر بن فورك، وأبي نعيم أحمد بن محمد، وأبي بكر بن عبدوس، والسلمي، وابن باكويه، وعدّة. توفي الأستاذ أبو القاسم صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة، عاش تسعين سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء: ج١٨ ص٢٢٧

وكتبـك حـولي لا تفـارق مضجعـي وفيهـا شـفاء للـذي أنـا كاتـم

وأنشدوا:

ورد الكتـاب بمـا أقـرّ عيوننـا وشـفى القلوب فنلـن غايات المنى

وتقاسـم النـاس المسـرّة بينهـم قسـمًا وكان أجـلُّهم حظّـا أنـا

قولُـه جـلّ ذكْـره: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾: أي بيانًـا وحجّـة، وضيـاءً ومحجّـة، لمَن وقـاه الحقّ سـبحانه وتعالى مـن ظلـمات الجهـل، وبـصّره بأنـوار العقـل، واسـتخلصه بحقائـق الوصـل، وهـذا ﴿الْكِتَـابُ﴾ للأوليـاء شـفاء، وعـلى الأعـداء عمًـى وبلاء.

المتّقى: مَن اتقى ربّه تقاه، ولم يستندْ إلى تقواه، ولم يرَ نجاته إلّا بفضل مولاه.

(٨)

وجاء في كتاب التَّفْسِير البَسِيْط لأبي الحسن علي الواحدي، النيسابوري[1] رحمه الله (٤٦٨هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، **قال أبو الهيثم**: (**ذا**): اسم كلّ مشار إليه، يراه المتكلم والمخاطب **كقولك**: ذا الرجل، وذا الفرس، فإذا بعُد المشار إليه زادوا (**كافًا**) **فقالوا**: ذاك الرجل، وهذه (**الكاف**) ليست في موضع نصْب ولا خفض ولا رفْع، إنما أشبهت (**كاف**) (**أخاك**) و(**عصاك**) فتوهّم السامع أنّها في موضع خفض، فلـمّا دخل فيها هذا اللبس زادوا (لامًا) فقالوا: ذلك أخوك، فإنّ (اللام) إذا دخلت ذهبت بمعنى الإضافة، و(ذا) مبني، نصبُه وخفضُه ورفعُه سواء؛ لأنّ فيه معنى الإشارة إلى معرفة، فكأنّه قد تضمّن معنى من الحروف.

وهذا الذي ذكره أبو الهيثم: في (ذلك): إجماع من النحويّين.

وقال الزجّاج: كسرت (اللام) في (ذلك) لالتقاء السّاكنين، **قال**: ولم يذكر الكوفيون كسرةَ هذه (اللام).

---

(١) الواحدي: هو الإمام العلامة، الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب: (التفسير)، وإمام علماء التأويل، من أولاد التّجار. وأصله من ساوه، لزم الأستاذ أبا إسحاق الثعلبي وأكثر عنه، وأخذ علم العربية عن أبي الحسن القهندزي الضرير، وسمع من: أبي طاهر بن محمش، والقاضي أبي بكر الحيري، وأبي إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ، ومحمد بن إبراهيم المزكي، وعبد الرحمن بن حمدان النصروي، وأحمد بن إبراهيم النجار، وخلق، حدث عنه: أحمد بن عمر الأرغياني، وعبد الجبار بن محمد الخواري، وطائفة أكبرهم الخواري، صنّف التفاسير الثلاثة: (البسيط)، و(الوسيط)، و(الوجيز)، مات بنيسابور في جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وأربعمائة وقد شاخ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٨ ص٣٤٠.

قال أبو الفتح الموصلي: (اللام) قد تُزاد في الكلمة مبنيّة معها، غير مفارقةٍ لها، كقولهم: (ذلك) و(أالالك)، و(هنالك)، و(عبدل)، و(زيدل)، و(فيشله)، والذي يدلّ على زيادة (اللام) في هذه الحروف قولُهم: (ذاك) بمعنى: (ذلك)، و(أولئك) بمعنى: (أالالك)، و(هناك) بمعنى: (هنالك)، ومعنى: (عبدل كمعنى: (عبد)، ومعنى: (زيدل) كمعنى: (زيد)، ومعنى: (فيشلة) كمعنى: (فيشة)، وأمّا (الكاف): فهي في (ذاك)، و(ذلك)، و(تلك)، و(تانك)، و(ذانك)، و(أولئك) حرف يفيد الخطاب، وليست باسم، والدليلُ على ذلك: ثبوتُ النون في (ذانك، وتانك) ولو كانت اسمًا لوجب حذف النون قبلها، وجرّها بالإضافة، **كما تقول**: غلاماك وصاحباك.

والعربُ قد تزيد (**الكاف**) للخطاب، كقولهم: (**النجاءك**) أي: انْج، ولو كانت (**الكاف**): اسمًا لما جازت إضافة ما فيه (**الألف واللام**) إليهما، **وكذلك قولهم**: أبصرك زيدا، ولا يجوز أن تكون (**الكاف**) اسمًا لأنّ هذا الفعل لا يتعدّى إلى ضمير المأمور، إلّا ترى أنّك لا تقول: أضربك، ولا أقتلك، إذا أمرته بضرب نفسه وقتله إيّاها.

وزاد غيرُه بيانًا فقال: (**الكاف**) في (**ذلك**) حرف، وفي (**غلامك**) وأشباهِه اسم، الدّليل على هذا أنك تؤكّد (**الكاف**) في غلامك، كما تؤكّد الاسم، فتقول: جاءني غلامُك نفسك، ولا تؤكّد (**الكاف**) في ذلك، فلا يجوز أن تقول: ذلك نفسك، على معنى تأكيد (**الكاف**) بالنفس.

قولُه تعالى: ﴿الْكِتَابُ﴾، يقال: كتبَ يكتب كتابًا وكَتْبًا وكتابةً، و(**الكتاب**): أيضًا اسمٌ لما كُتب، وهو مِن باب تسمية المفعول بالمصدر، وهو كثير، وأصلُ (**الكتب**) في اللغة جمعك بين الشيئين، يقال: اكتب بغلتك، وهو أن يضمّ بين شفريها بحلقة، ومِن ذلك سمّيت (**الكتيبة**) لأنها تكتبت واجتمعت.

ويُقال: كتبت السقاء أكتبه كَتْبًا إذا خرزته. وهي الكُتْبة وجمعها كُتَب للخروز، ومنه قيل: كتبت الكتاب؛ لأنّه يجمع حرفًا إلى حرف.

فأمّا التفسير فقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: (**هذا**) عند كثيرٍ من المفسّرين وأهل المعاني.

قال الفراء: وإنّما يجوز ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى: (**هذا**): لما مضى، وقرب وقت تقضيه، أو تقضي ذكره، فأمّا الموجود الحاضر فلا يقال فيه ﴿ذَلِكَ﴾، مثاله: **أنّك تقول**: قد قدم فلان، فيقول السامع: قد بلغنا ذلك، وبلغنا هذا الخبر، فصلحت فيه (**هذا**)؛ لأنّه قرب من جوابه، فصار كالحاضر الذي تشير إليه، وصلحت ﴿ذَلِكَ﴾ لانْقضائه، والمنقضي كالغائب، **وتقول**: أنفقتُ ثلاثة وثلاثة، فذلك ستة، وإن شئت قلت: فهذا ستة، وقد **قال الله عزّ وجل**: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾[1]، ثمّ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[2]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[3]، ثمّ قال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾[4].

وقال محمّد بن جرير الطبري: أشار بقوله: (**ذلك**) إلى ما تقدّم ومضى من قوله: (**الم**) لأنّ كلّ ما تقضى وقرُبَ تقضّيه من الأخبار فهو في حُكم الحاضر، كالرجل يحدّث الرجل الحديث، **فيقول** السّامع: (**إنّ ذلك لكما قلت**)، و(**هذا والله كما قلت**)، فيخبر مرّة عنه بمعنى الغائب، إذا كان قد تقضّى، ومرّة بالحاضر لقرب جوابه من كلامه، كأنّه غير متقض، فكذلك لمّا **ذكر الله سبحانه**: ﴿الم﴾ التي ذكرنا تصرّفها في وجوهها من المعاني، قال: يا **محمد**، هذا الذي ذكرته وبيّنته لك: ﴿الْكِتَابُ﴾، فحَسُن وضع ﴿ذَلِكَ﴾ في موضِع (**هذا**)، **وروي عن ابن عباس أنّه قال**: معنى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي أخبرتك أنّي أوحيه إليك، **وقال يمان بن رباب**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي ذكرته في التوراة والإنجيل، وهذان القولان: متقاربان، **فالأوّل**: اختيار **ابن الأنباري**، **والثاني**: اختيار **الزّجاج**.

إمّا **ابنُ الانباري، فقال**: إنّما قال **عزّ ذكْره**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فأشار إلى غائب، لأنّه أراد هذه الكلمات يا **محمّد**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: الذي وعدتك أنْ أوحيه إليك، لأنّ الله تعالى لمّا

---

(١) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٢٣ .

(٢) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٢٦.

(٣) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٥.

(٤) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٦.

أنـزل عـلى نبيّـه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، كان عليـه السـلام واثقًـا بوعـد اللـه إيّـاه، فلـمّا أنـزل عليـه ﴿الـم {١/٢} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: دلّـهُ عـلى الوعـد المتقـدّم.

وقال الزّجاج: القرآن، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾: الـذي وعـدوا به على لسـان **موسى وعيسى**، فجعـل ﴿الم ﴾ بمعنـى: القـرآن؛ لأنّـه مـن القـرآن فهـو قـرآن، والمـرادُ ب ﴿الْكِتَابُ﴾ هـا هنـا: القـرآن في **قول: ابـن عباس، والحسـن، وقتـادة، ومجاهـد، والضحـاك، ومقاتـل**، والمرادُ بـه المفعول، **كقولهـم**: الخلق، يريـدون: المخلوق، لا الحـدث الـذي هـو اخـتراع وإبـداع، **وهـذا أرجـحُ عنـدي** مِـن قـول مَـن **قال:** أنّه سـمّي بـه لما فـرض فيه، وأوجـب العمـل بـه، إلّا تـرى أنّ جميـع التنزيـل مكتـوب، وليـس كلّـه فروضًـا، وإذا كان كذلـك كان العـام الشـامل بجميـع المسـمّى أولى مـمّا كان بخـلاف ذلك.

فـإنْ جعلت ﴿الـم﴾: **متعلقًا بما بعده**: فهـو ابتـداءٌ، وخبـرُه: ﴿ذَلِكَ﴾، و﴿الْكِتَابُ﴾: تفسـيرٌ وبيان للمُشـار إليـه: ﴿الـم﴾: ابتـداء، **و**﴿ذَلِكَ﴾: ابتـداءٌ آخـر، و﴿الْكِتَابُ﴾: خـبره، وجملـةُ الـكلام خـبر الابتـداء الأوّل.

وإنْ جعلت ﴿الم﴾**: منقطعًا ممّا بعده**: فـ ﴿الْكِتَابُ﴾: ابتداء، وخبرُه: (**هُدًى**).

وقولـه تعـالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ : الرّيـب: الشّـك، يقـال: رابنـي فلـن يريبنـي؛ أي: علمـت مـن الرّيبـة، وأرابنـي: أوهَمَنيهـا ولم يحقّقهـا، وقـال:

أَخُوكَ الذي إنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا   **أَرَابَ وإنْ عَـاتَبْتَهُ لاَنَ جَانِبُه**

أراد أنّه مع اليقين بالريبة يتوهّمها منك، جريًا على حكم المودّة، هذا **قول جمهور أهل اللغة.**

وقـال سـيبويه: (أراب) الرّجـل أي: صـار صاحـب ريبة، كما قالوا: ألامَ، أي: اسـتحقّ أنْ يُلام، وأمّا (رابني) فمعْنـاه: جعـل في ريبـة، كما تقول: قطعـت النّخل، أي: أوصلت إليه القطع، واسـتعملته فيه.

(١) **سورة:** المزمل، الآية رقم: ٥.

وقال أبو زيد: قد رابني من فلان أمرٌ رأيته منه رَيْبًا، إذا كنت مستيقنًا منه بالرّيبة، فإذا أسأت به الظنّ ولم تستيقنْ بالريبة منه قلت: قدْ أرابني من فلان أمرٌ هو فيه، إذا ظننته من غير أنْ تستيقنه، **وقوم على أن**: (راب) و(أراب) بمعنى واحد، وينشدون قول الهذلي:

كأنّما أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ

والحذاق على الفرق بينهما، كما أخبرتك، قال الأزهري: والقول في (راب، وأراب) قول **أبي زيد**، وموضع (ريب): نصب، **قال سيبويه**: **(لا)** تعمل فيما بعدها فتنصبه، ونصبُها لما بعدها كنصب **(إن)** إلّا أنّها تنصب بغير تنوين، وإنّما شبه **(لا)** بـ **(إن)**؛ لأنّ **(إن)** للتحقيق في الإثبات، و**(لا)** في النّفي، فلمّا كان **(لا)** تقتضي: تحقيق النفي، كما تقتضي **(إن)**: تحقيق الإثبات أجري مجراه.

وزعمَ سيبويه: أنّها مع ما بعدها بمنزلة شيء واحد؛ لأنّها جواب لما يكون بمنزلة شيء واحد، ولذلك لم ينوّن وبُني على الفتحة، كأنّها جوابُ **قول القائل**: هل مِن رجُلٍ في الدار؟ فـ **(من)** مع رجل كشيء واحد، **فإنْ قيل**: فما أنكرت أن يكون جوابُ هل رجل في الدار؟ **قيل**: معنى: (لا رجل في الدار)، عمّهم النفي، لا يجوز أن يكون في الدار رجل، ولا أكثر منه، وكذلك (هل مِن رجل في الدّار؟) استفهام عن الواحد وأكثر منه.

فإنْ قلت: (هل رجل في الدار؟) أو (لا رجلٌ في الدار)، جاز أن يكون في الدّار رجلان، لأنّك إنّما أخبرت أنّه ليس فيها واحد، فيجوز أن يكون فيها أكثرُ منه، **فإذا قلت**: (لا رجلَ في الدار)، فهو نفي عامّ، وكذلك ﴿لاَ رَيْب فِيهِ﴾، وموضع **(لا رَيْبَ)**: رفع بالابتداء عند **سيبويه**؛ لأنّه بمنزلة خمسة عشر إذا ابتدأت به، ولهذا جاز العطفُ عليه بالرّفع في قوله: **لا أُمَّ لِي إنْ كان ذَاكَ ولا أَبُ ومَن نصب المعطوف**: فهو عاطفٌ على اللفظ.

وقولُه تعالى: ﴿فِيهِ﴾، يجوز: أن تجعله: خبرًا للابتداء، الذي هو﴿لاَ رَيْبَ﴾، ويجوز: أن تجعله صفةً لقوله: ﴿لاَ رَيْبَ﴾، وإذا جعلته صفةً أضمرت الخبر، **كأنّه قيل**: لا ريب فيه واقع أو

كائـن، فـإنْ جعلتـه خـبرًا: كان موضعُـه رفعًـا مـن وجهـين: **أحدهما**: بكونـه خبرًا للمبتـدأ، **والثـاني**: من حيث كان خـبرَ إن رفـع؟ إنْ جعلـت (**فيـه**) صفـة، ولم تجعلـه خـبرًا، كان موضعـه: نصبًـا في قـول مَـن وصـف على اللّفـظ، كـما عطـف عـلى اللفـظ في قولـه: **فـلا أبَ وابْنًـا مِثْـلُ مَـرْوانَ** ومَن وصفه عـلى الموضـع، كما عطف عـلى الموضـع في **قولـه: لا أمَّ لي إنْ كان ذَاكَ ولا أَبُ** كان موضعُـه عـلى هـذا رفعًـا، وفي قوله: (**فِيـهِ**): قراءتان، إشـباع (**الهـاء**) حتـى تلحـق بـه (**يـاء**)، وكذلـك في (**الهـاء**) المضمومـة مثـل: (**منهـو**) و(**عنهو**)، وهـو مذهبُ **ابـن كثـير**، وقـد ذكرنـا أن: (**لا**) بمنزلـة: (**إن**)، والباقـون يقتـصرون عـلى الضمّـة والكـسرة، وأصـل (**الهـاء**) في (**فيـه**): الضـمّ؛ لأنّ الأصـل (**فيهـو**) كـما ذكرنـا في (**عليهـو**)، ثمّ كـسرت (**الهاء**) للعلّـة التي ذكرنـا في (**عليهم**)، فمَـن اقتـصر عـلى الضمّـة والكـسرة **قـال:** إنّ (**الهـاء**) حـرفٌ خفـي، فـإذا اكتنفهـا سـاكنان من حـروف اللّين صـار كأن السّـاكنين قـد التقيـا لخفـاء (الهـاء)، وأنّهـم لم يعتـدّوا بها حاجـزًا للخفـاء في مواضع.

وقولُـه تعـالى: ﴿هُـدًى﴾، **قـال سـيبويه:** قلّـما يكـون ما ضـمّ أولُه مـن المصـدر إلّا منقوصًـا؛ لأنّ (**فُعَل**) لا تـكاد تـراه مصـدرًا مـن غير بنـات (**اليـاء**) و(**الـواو**): كالهُدى والـسُّرى، والنُّهـى، والتُّقَـى، والقِـرى، والقِلَى، وقالـوا: كِسْـوَة، ورِشْـوَة، وجِـذْوَة، وصُـوَّة، وإذا جمعـوا جمعوهـا عـلى (**فِعَل**) (**النـون**) عنـد الجميع في وزن الشـعر بمنزلـة الـدّال والصّـاد، و(**إذا**)، **و**(فُعَـل)، ومنهـم مَـن يضـمّ في الواحـد، ويكـسر في الجمـع، ويجـوز الكـسر في واحـدة، والضـمّ في الجمـع، وهـذا مـمّا يدلّـك على اشـتراكهما.

وقـال أنـاسٌ مـن النحويّين: أنّه قد تجري الأسـماء التي ليسـت بمصـادر مجرى المصـادر، فيقولون: جلس جلسـة، وركـب ركبة، **ويقولـون:** عجبتُ مِن دهنك لحيتك، وينشـدون:

وبعد عطائك المائة الرتاعا

فيجري مجرى الإعطاء، وقال لبيد:

بَادَرْتُ حَاجَتَها الدَّجَاج

وفسّروه على حاجتي إليها، فأضيف إلى المفعول كما يُضاف المصدر إليه، فعند هؤلاء (الهُدى والسُّرى والتُّقَى): أسماء أجريت مجرى المصادر، وليست مصادرَ حقيقية.

وزعم الأخفش: أنّ من العرب مَن يؤنّث الهدى.

ومعنى الهدى: البيان؛ لأنّه قد قوبل به الضّلال في قوله عزّ وجل: ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[1]، أي؛ من قبل هُداه.

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، الاتّقاء في اللغة: الحجز بين الشيئين، **يقال**: اتّقاه بترسه، أي: جعل الترسَ حاجزًا بينه وبينه، واتّقاه بحقّه، إذا وقاه، فجعل الإعطاء وقاية بينه وبين خصمه عن نيْله إيّاه بيده أو لسانه، ومنه (**التّقية في الدين**) بجعل ما يظهره حاجزًا بينه وبين ما يخشاه من المكروه، ومنْه الحديث: «**كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ، وكان أقربنا إلى العدوّ**»[2]، فالمتقي هو الذي يتحرّز بطاعته عن العقوبة، ويجعل اجتنابه عمّا نهى، وفعله ما أمر؛ حاجزًا بينَه وبين العقوبة التي توعّد بها العصاة.

وكان (**اتقى**) في الأصل: (**اوْتقى**)؛ لأنّه (**افتعل**) من الوقاية، وأصلُ هذا الباب بالواو، كالاتزان من الوزن، والاتّضاح من الوضوح، إلّا أنّ الواو صارت (**ياء**) لانكسار ما قبلها وهي ساكنة، ثمّ انْدغمت (**الياء**) في (**تاء**) الافتعال بعدما صارت (**تاء**)، فتولّدت التشديدة لذلك.

وقال أبو الفتح الموصلي: إنَّ (**افْتَعَل**) إذا كانت فاؤه (**واوًا**)، فإن (**واوه**) تقلب (**تاء**)، وتدغم في (**تاء**) (**افْتَعَل**) مثل (**اتَّعد**) و(**اتَّلج**) و(**اتَّصف**).

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٨.

(٢) الحديث: قال العراقي: رواه النسائي بإسناد صحيح، ولمسلم نحوه من حديث البراء، وجاء كذلك في معالم التنزيل تفسير البغوي، رقم الحديث: ٦٤، وجاء كذلك في مسند أحمد بن حنبل، برقم الحديث: ١٢٩٧، وقال: (حديث موقوف) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والعلّـة في قلـب هـذه الـواو (**تـاءًا**) أنّهـم لـو لمْ يقلبوهـا (**تـاءًا**) لوجـب أن يقلبوهـا إذا انكسر مـا قبلها (**يـاءًا**)، **فيقولـوا: (ايتقـى)** وإذا انضـمّ مـا قبلهـا ردّت إلى (**الواو) فقالـوا: (مُوتَق**)، وإذا انفتح مـا قبلها قلبت (**ألفًـا**)، فقالـوا: (**ياتقـي**)، فلـمّا كانـوا لـو لمْ يقلبوهـا (**تـاء**) صائريـن من قلبها مـرّة (**يـاء**) ومرّة (**ألفًـا**)، ومرّة (**واوًا**)، أرادوا أن يقلبوهـا حرفًـا جلـدًا تغير أحـوال مـا قبلـه، وهو بـاقٍ بحالـه، وكانت (**التّـاء**) قريبة المخرج مـن (**الـواو**)؛ لأنّهـا مـن أصول الثنايـا، والواو من الشّـفة، فأبدلوها (**تـاء**) وأدغموها في لفظ مـا بعدها، وهو (**التـاء) وقالـوا:** اتقـى، وقـد فعلـوا هـذا أيضًـا في (**اليـاء**) وأجروهـا مجـرى (**الـواو**)، فقالـوا في (**افتعـل**) مِـن اليـسر: أتـسر، ومـن اليبـس: اتبس؛ لهـذه العلّة.

وإدغـام (**اليـاء**) في (**التـاء**) عـلى هـذه الجهـة، إنّمـا يجـوز إذا كانـت في كلمـة واحـدة، فـإذا التقتـا مـن كلمتـين لم يجـزِ الإدغـام، نحـو قولـك: (**في تبيانـه**)، و(**في تمثالـه**)، وذلـك أنّـه لـو أُجـري الـكلام هـا هنا على الإدغـام، أشـبه الألـف والـلام، هـذا هـو الأصل، ثـمّ صارت التّـاء لازمة حتـى صـارت كالأصلية، لأنّـه لا يجوز إظهـار هـذا الإدغـام في حال.

وقـد بنـي عـلى هـذا الإدغـام أسـماء كثيرة، وهـي: التُّخَمَـة، والتُّجَـاه، والـتُّرَاث، والتّقـوى، والتُّـكْلَان، والتُّكَلَـة، والتُّـؤَدَة، والتُّهمَـة.

وقال أوسُ بن حجر:

تَقَـاكَ بِكَعْب وَاحِـــدٍ وَتَلَذُّهُ يَدَاكَ إذَا مَا هُزَّ بالكَفِّ يَعْسِلُ

أي اتقـاك، ومعنـاه: جعـل بينـك وبينـه كعبًـا واحـدًا، يصـف رمحًا، **يقـول**: كأنه كعـب واحـد، إذا هززته اهتـزّ كلّـه، **وقـال أبو سـعيد السـكري**: تقـاك: وليك منـه كعب.

قال: ويقال: إبلك اتقت كبارها بصغارها، أي جعلت الصّغار ممّا يليك، ووقت أنفسَها بها.

وقولـه: (تقـاك) تقديـره: (تَعَلَـكَ) والأصـل: (اتَقَـاك)، فحـذف (فـاء) الفعـل المدْغمـة، فسـقطت همـزة الوصـل المجتلبـة لسـكونها، و**قولهـم**: في المضـارع (يتقـى) تقديـره (يَتَعِـل).

قـال الأزهـري: اتَّقَـى كان في الأصـل (اوْتَقَى) فأدغمت الواو في التاء وشـّددت، **فقيـل**: (اتَّقَى) ثمّ حذفوا ألـف الوصـل، والـواو التـي انقلبـت تـاء، **فقيـل**: تَقَـى يَتَقِـى، بمعنـى: اسـتقبل الـشيء بالـشيء وتوقّـاه، **قـال السّـكري**: وتَقَـى يَتَقِـى بفتـح (التـاء) شـاذ جـدًّا؛ لأنّه **لا يقـال**: تَضح بمعنى اتَّضـح، ولا تَزَن بمعنـى اتَّزَن، **قال الأزهـري**: وإذا **قالـوا**: تَقِـيَ يَتْقَـى، **فالمعنى**: أنّه صـار تقيًّا.

والمُـراد بالمتقـين في هـذه الآيـة: المؤمنـون، كذلك قال أهلُ التفسـير في **قولـه**: ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للمؤمنـين، **كأنّـه قـال**: القـرآن بيـان وهـدى لمَـن اتّقـى الـشرك، فخـصّ المؤمنين بـأن الكتـاب بيـانٌ لهم دون الكفـار الذيـن لم يهتـدوا بهـذا الكتـاب، فأمّا مَـن آمن ولم يجتنـبِ الكبائر، فهـو داخلٌ في جملـة المتقين أيضًا لأنـه آمـنَ بموجـب الكتاب، واتقـى الشرك.

وقيـل: إنّ ﴿الْكِتَـابُ﴾ بيـانٌ بنفسـه ودلالـةٌ عـلى الحقّ، ولكنـه أضافـه إلى المؤمنين خصوصًـا؛ لانتفاعهم بـه، والكافـر لـو تأمّـل القـرآن لوجـده بيانًـا، فهـو في كوْنه بيانًا في نفسـه لا يتخصّـص بقوم دون قـوم، ولكنّه أضيـف إلى المؤمنـين عـلى الخصـوص لانتفاعهم بـه دون الكفار، **كقوله تعـالى**: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَـاهَا﴾[1]، وكان ﷺ منـذرًا لمَـن يخـشى، ولمَن لمْ يخشَ.

وقـال ابـن الأنبـاري: معنـاه: هـدى للمتقـين والكافريـن، فاكتفـى بأحـد الفريقـين مـن الآخـر، **كقولـه**: ﴿سَـرَابِيلَ تَقِيكُـمُ الْحَـرَّ﴾[2]، **وقولـه**: ﴿لَيْسُـواْ سَـوَاء مِّـنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ أُمَّةٌ قَآئِمَـةٌ﴾[3]:أراد وأخـرى غير قائمة.

وقال أبو ذؤيب: **فَمَا أَدْرى أَرُشْدٌ طِلابُهَا**، وأراد: أم غيّ.

والدّليـل عـلى هـذا: أنّـه قـال في موضـع آخر: (**هُـدًى لِّلنَّـاسَ**)، فجعله هدى للنـاس عامًّا، عـلى أنّه ليس في الإخبـار أنّه:﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾ مـا يـدلّ على أنّه ليس هـدى لغيرهم.

---

(١) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٤٥.

(٢) **سورة**: النحل، الآية رقم: ٨١ .

(٣) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ١١٣ .

فأمّا إعراب (هُدًى)، فقال أبو إسحاق: موضعُه نصب، من وجهين:

أحدُهـما: أن يكـون منصوبًـا عـلى الحـال، مِـن **قولـك**: القـرآن ذلـك الكتـاب هـدى، فيكـون حـالًا مـن الكتـاب، **كأنّـك قلـت**: هاديًـا؛ لأنّ (**هـدى**) جـاء بعـد تمـام الـكلام، والعامـل فيـه يكـون معنـى الإشـارة في (**ذلك**).

والثّـاني: أن يكـون منصوبًـا عـلى الحـال مِـن (الهـاء) في **قولـه**: (**لَا رَيْـبَ فِيـهِ**)، **كأنّـك قلـت**: لا شـكّ فيه هاديًـا، والعامـل فيـه معنـى ريـب، **فالفـراء** يسـمي الحال هـا هنا: قطعًـا؛ لأنّه **قـال**: تجعل (**الكتـاب**): خبرًا لـ (**ذلـك**)، وتنصب (**هـدى**): عـلى القطـع؛ لأنّ (**هدى**): نكـرة اتّصلـت بمعرفة، والنكـرة لا تكـون دليلًا على معرفـة، **قـال**: وإنْ شـئت قطعتـه مـن الهـاء التـي في (**فيـه**)، **كأنّك قلت**: لا شـكّ فيـه هاديًا.

قال أبو إسحاق: ويجوز أن يكون موضعُه رفعًا من جهات:

إحداهـا: أنْ يكـون: خبـرًا بعـد خـبر، **كأنّـه قال**: (**ذلـك الكتاب هدى**)، أي قـد جمع أنّه الكتـاب الموعود، وأنّـه هـدى، **كـما تقـول**: هذا حلـوٌ حامض، أي قد جمـع الطّعمين، ويجـوز: أن يكون رفعًا عـلى إضمار (هو) كأنّـه لمّـا تـمّ الكلام **قيل**: هـو هدى، **ويجـوز**: أن يكون الوقـف على قولك:

(**لَا رَيْـب**)، أي: ذلـك الكتـاب لا ريـب ولا شـكّ، **كأنّـك قلـت**: ذلـك الكتـاب حقًّـا؛ لأنّ (لا شـكّ) بمعنـى: حـقّ، ثـمّ **قيـل بعـد**: (**فيـه هـدى**)، **فإنْ قيـل**: كيف؟ قـال: (**لَا رَيْـبَ فِيـهِ**)، وقد ارتـاب فيه المرتابـون؟ **قيل**: معنـاه أنّـه حـقّ في نفسـه وصِـدق، وإن ارتـاب المبطلـون، كـما قال الشـاعر:

ليس في الحق يا أُميمةَ رَيْبٌ ... إنّما الرَّيْبُ ما يَقُول الكَذُوبُ

فنفـى الرّيـبَ عـن الحـقّ، وإن كان المتقـاصر في العلـم يرتـاب، **ويجـوز**: أن يكـون خبرًا في معنـى النهي، **ومعنـاه**: لا ترتابـوا، **كقولـه**: ﴿فَـلاَ رَفَـثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِدَالَ فِـي الْحَجِّ﴾[1].

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

(٩)

وجاء في كتاب الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحدي[1] رحمه الله (٤٦٨هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه عزّ وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: (**ذلك**): يجوز أن يكون بمعنى: هذا، عند كثير من أهل التفسير.

قال الفراء: ومثاله في الكلام أنك تقول: قد قدم فلان، **فيقول السامع**: قد بلغنا ذلك، أو **يقول**: قد بلغنا هذا الخبر، فصلحت: (**هذا**)؛ لأنّه قرب من جوابه، فصار كالحاضر الذي تشير إليه، وصلحت: (**ذلك**) لانقضاء كلامه، والمنقضي كالغائب.

وذكر ابن الأنباري لهذا شرحًا شافيًا؛ فقال: إنما قال عزّ ذكْره: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فأشار إلى غائب؛ لأنّه أراد: هذه الكلمات يا محمد، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي وعدتك أن أوحيه إليك، لأن الله تعالى لمّا أنزل على **نبيّه** عليه السلام: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2]، كان واثقًا بوعد الله إيّاه، فلمّا أنزل الله تعالى عليه:﴿الم {١/٢} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، دلّه على الوعد المتقدّم.

وقال الزّجاج: القرآن: ذلك الكتابُ الذي وعدوا به على لسان موسى، وعيسى، فجعل ﴿الم﴾ بمعنى القرآن؛ لأنّه من القرآن، و﴿الْكِتَابُ﴾: مصدر كتبتُ، ويسمّى المكتوب كتابًا، كما يسمّى المخلوق خلقًا، والمفعول يسمّى بالمصدر، **يقال**: هذا درهم ضرب الأمير، أي: مضروبه، وهذا الثوب نسج اليمن، أي: منسوجه.

---

(١) **الواحدي**: سبقت ترجمته في ص ٣٩

(٢) **سورة**: المزمل، الآية رقم:٥.

وأصلُ الكتب فِي اللغة: الجمع والضّم، يقال: كتبت البغلة، إذا ضممتَ بين شفريها بحلقة، وكتبت السّقاء، إذا خرزته، والكتب: الخروز، واحدتها: كتبة، والكتابة: جمع حرف إلى حرف.

والمراد بـ ﴿الْكِتَابُ﴾ ها هنا: القرآن، فِي قول جميع المفسرين.

قولُه: ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: الرّيب: الشّك، قال أبو زيد: يقال: رابني من فلان أمرٌ رأيته منه ريبًا، إذا كنت مستيقنًا منه الريبة، فإذا أسأت به الظنّ ولم تستيقن بالريبة منه؛ قلت: قد أرابني من فلان أمرٌ هو فِيهِ، إذا ظننته من غير أن تستيقنه.

قال سيبويه: (**لا**): تعمل فيما بعدها فتنصبه، ونصبها لمَا بعدها كنصب: (**إنَّ**)، إلّا أنّها تنصب بغير تنوين، وإنّما شبه (**لا**) ب (**إنَّ**)، لأنّ (إن): للتحقيق فِي الإثبات، و(لا): فِي النفي، فلّما كانت (لا): تقتضي تحقيق النفي كما تقتضي (إن): تحقيق الإثبات، أجري مجراه، وهي مع ما بعدها بمنزلة شيء واحد، وموضع (**لا ريب**): رفع بالابتداء عند سيبويه، لأنّه بمنزلة: (**خمسة عشر**) إذا ابتدأت به، ولهذا جاز العطفُ عليه بالرفع فِي قول الشاعر: **لا أمّ لي أن كان ذاك ولا أب وموضع فِيه**: رفع لأنه خبر بالابتداء الذي هو لا ريب، **فإن قيل**: كيف قال لا ريب فِيهِ وقد ارتاب به المبطلون؟ **قيل: معناه**: أنّه حقّ فِي نفسه، وصدق وإن ارتاب به المبطلون، كما قال الشاعر:

ليس فِي الحقّ يا أمامة ريبٌ إنما الريبُ ما يقول الكذوب

فنفى الرّيب عن الحقّ، وإن كان المتقاصر فِي العلم يرتاب، ويجوز أن يكون خبرًا فِي معنى النهي، **ومعناه**:لا ترتابوا، **كقوله تعالى**: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[1]، **والمعنى**: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا.

قوله: هدًى للمتقين: معنى الهدى: البيان، لأنه قوبل به الضلالة فِي **قوله عزّ وجل**: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾[2]، أي: من قبل هداه.

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

(٢) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٨.

ومعنى الاتّقاء في اللّغة: الحجز بيْن الشيئين، يقال: اتّقاه بترسه، أي: جعل الترس حاجزًا بينه وبينه.

ومنه التّقية في الدّين: بأن يجعل ما يظهر حاجزًا بينه وبين ما يخشاه من المكروه.

ومنه الحديث: «**كنا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ فكان أقربَنا إلى العدو**»[1] .

فالمتّقي: هو الذي يتحرّز بطاعته عن العقوبة، ويجعل اجتنابه عمّا نهي عنه، وفعله ما أمر به حاجزًا بينه وبين العقوبة التي توعّد بها العصاة.

والمراد بـ (المتقين) في هذه الآية: المؤمنون الذين اتّقوا الشرك، وجعلوا إيمانهم حاجزًا بينهم وبين الـّشرك، **كأنّه قال**: القرآن بيان وهدى لمَن اتّقى الـّشرك وهم المؤمنون، وخصّ المؤمنين بأن الكتاب بيانٌ لهم دون الكفار، الذين لم يهتدوا بهذا الكتاب، لانتفاعهم به دونهم، **كقوله تعالى**: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾[2]، وكان عليه السلام منذرًا لمَن خشي ولمَن لم يخش.

قال ابن الأنباري: معناه: هدًى للمتقين والكافرين، فاكتفى بأحد الفريقين عن الآخر **كقوله تعالى**: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[3]، أراد الحر والبرد، فاكتفى بذكر أحدهما.

---

(١) الحديث: سبق تخريجه في ص ٤٥.

(٢) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٤٥ .

(٣) سورة: النحل، الآية رقم: ٨١.

(١٠)

وجاء في غرائب التفسير وعجائب التأويل لمحمود الكرماني[(١)] تاج القراء رحمه الله (٥٠٥هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: إشارة إلى ما تقدم من القرآن، **وقيل**: إشارة إلى الموعود، **وقيل**: ﴿ذَلِكَ﴾: بمعنى هذا.

وقيل: الإشارة إذا كانت إلى غير عينٍ جازَ بذلك، وبهذا **كقوله:** ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[(٢)]، ثمّ **قال:**﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[(٣)]، ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾[(٤)]، ثمّ **قال**: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[(٥)].

وذهب جماعة: إلى أنّ **النبي** ﷺ **قال**: «**إنّ الله وعدني حين بعثني إلى قريش وسائر الناس؛ أنْ يُنْزل عليَّ كتابًا لا يمحوه الماء**»[(٦)]، فلمّا نزل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي الذي وعدتك أنّي أنْزله عليك .

---

(١) **الكرماني**: هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، النّحوي، هو تاج القراء وأحد العلماء الفقهاء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان عجبًا في دقّة الفهم وحسن الاستنباط، لم يفارق وطنَه ولا رحل، وكان في حدود الخمسمائة، وتوفي بعدها. صنف لباب التفسير، والإنجاز في النحو اختصره من الإيضاح للفارسي، النظامي في النحو اختصره من اللمع لابن جني. الإفادة في النحو، العنوان فيه أيضًا. وله في موانع الصرف، توفي رحمه الله سنة ٥٠٥هـ.

انظر: تاريخ التراث الإسلامي، ٤/ ٢٥٠١، كشف الظنون، ٢/ ١٧٥٥، ومعجم المؤلفين، ١١/ ١٧٣.

(٢) سورة: ص، الآية رقم: ٥٢.

(٣) **سورة**: ص، الآية رقم: ٥٣.

(٤) **سورة**: ق، الآية رقم: ١٩.

(٥) **سورة**: ق، الآية رقم: ١٩.

(٦) الحديث: أورده الكرماني في غرائب التفسير، وعند كثيرٍ من المفسرين كالبغوي والرازي.

و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، وقيل: اللّوح المحفوظ، **وقيل**: التوراة، **وقيل**: القدر، واشتقاقه من الكتابة، أي: من شأنه أنْ يكتب، وقيل من الكَتْب وهو الجمع، فِعَال بمعنى مفعول.

﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾: اعترضت المُلحدة، **وقالوا**: ما معنى ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾؟ وقد نرى مَن يرتاب فيه!

فأجاب عنْ هذا جماعة فقالوا: هذا نفيٌ معناه النهي، أي لا ترتابوا فيه، **كقوله تعالى**: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[1]، أي لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا.

وقال بعضهم: تقديرُه لا ريب أنّ فيه هدى، **والقول الأول**: فيه نظر دقيق في العربية، وذلك أنّ **قوله**: (**فيه**): غير متعلّق بالريب؛ لأنَّ ذلك يستدعي تنوينَ (**ريب**)، بل هو متّصل بمقدّر كسائر الظروف، وإذا جعلته (فعلًا) اتّصل به ضرورة، اللّهم إلّا أنْ يجعل من باب ما قضيته الإعراب يخالف المعنى، **كما قيل**:

عَجِبْت لِمَسْرَاهَا وَأنى تَخَلَّصَتْ إليَّ وَبَابُ السجِن دوني مُغْلَقُ

فمعنى البيت: عجبتُ لِمسراها وتخلّصها إلي، والباب مغلق.

والإعرابُ يأبى هذا، لأنّ قوله: (وأنّى تخلّصت استفهام)، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

والقولُ الثاني: (**فيه**) بعد أيضًا؛ لأنّ إضمار (**أن**) لا يجوز، **لا تقُل**: علمت زيدًا قائم، وأنت تريد علمت أنّ زيدًا قائم، **وقيل**: معناه لا سبب ريب فيه.

وقيل: لم يقصد بهذا الخبر إضافةَ ذلك إلى الاعتقاد والمعتقدين، وإنَّما أراد أنّه صدق وحقّ في نفسه **كقول الشاعر**:

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الكَذُوبُ

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

وقيـل تقديـرُه: ذلـك الكتـابُ غـير شـكّ هـدى، والجـواب المرضي مـا **قاله: ابـن بحـر**: أنّه نفى ما نسـبوا إلى القـرآن مـن السّـحر والكهانـة والشـعر، و**الرّيـب**: الشـكّ مـن تهمـة للمشـكوك فيـه، و**الشـك**: تـردّد بين معتقديـن، **تقـول**: أنـا شـاكّ في طلـوع الفجـر، **ولا تقـول**: أنـا مرتاب.

ومحلّ ﴿هُدًى﴾: رفع، أي هو هدى، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ، أي ذلك الكتاب هدى.

ويجـوز أنْ يكـون خـبرًا بعـد خـبر: الخـبر الأول: (**لا ريـب فيه**)، والثـاني: (**هـدى**)، ويجوز أنْ يكـون رفعًا بالابتداء.

(**فيـه**): خـبره، ويجـوز: أن يرتفـع بــ (**فيـه**) عنـد الكوفيّـين، فهذه خمسـة أوجـه، ويجوز أن يكـون نصبًا مـن وجهين.

أحدهما: أنْ يكون حالًا من (**الكتاب**)، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[1].

والثاني: أن يكون حالًا من الهاء، والعامل فيه الظرف.

قالت المُلحدة: إذا قال ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فقد علم أنّه ليس بهدى لغير المتقين.

الجواب: خُصَّ المتقون بالذّكر لانتفاعهم به، وتخصيص الشيء بالذكر لا يدلّ على نفي ما عداه.

(١) **سورة**: هود، الآية رقم: ٧٢.

(١١)

وقال الإمام المفسّر الحسين بن مسعود البغوي[1] **رحمه الله (٥١٦هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، **وقيل:** (**هذا**) فيه مُضمر أي (**هذا**)، **يعني:** (**ذلك**) الكتاب.

قال الفراء: كان الله قد وعد نبيَّه ﷺ أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء ولا يخلق عن كثْرةِ الرّد، فلّما أنزل القرآن قال (**هذا**) **ويعني به:** (**ذلك**) الكتاب الذي وعدتك أن أنزله عليك في التّوراة والإنجيل وعلى لسان النبيين من قبلك، و**هذا** للتقريب و(**ذلك**) للتبعيد.

وقال ابن كيسان: إنّ الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سورًا كذّب بها المشركون، ثمّ أنزل سورة البقرة، **فقال:** ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يعني ما تقدّم البقرة من السور لا شكّ فيه، و(**الكتاب**) مصدر وهو بمعنى المكتوب، كما يقال للمخلوق خلق، وهذا الدرهم ضرب فلان أي مضروبه،

(١) **البغوي**: الشيخ الإمام، العلّامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المفسّر، صاحب التصانيف، كـ (شرح السنة) و(معالم التنزيل) وغيرها كثير، تفقه على شيخ الشافعية القاضي حسين بن محمد المروروذي، قبل الستين وأربعمائة، وسمع منه، ومن أبي عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي، وأبي الحسن محمد بن محمد الشيرزي، وعامّة سماعاته في حدود الستين وأربعمائة، وكان البغوي يلقب بمحيي السنة وبركن الدين، وكان سيدًا إمامًا، عالمًا علّامة، زاهدًا قانعًا باليسير، توفي بمرو الروذ، مدينة من مدائن خراسان في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة، ودفن بجنب شيخه القاضي حسين، وعاش بضعًا وسبعين سنة، رحمه الله.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦)، دار صادر، بيروت ط ٢ سنة ١٩٩٥. وفيات الأعيان، ابن خلكان (ت ٦٨١)، دار صادر، بيروت. سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت ٧٤٨)، تحقيق مجموعة من المحققين على رأسهم شعيب الأرناؤوط، الرسالة، بيروت. طبقات الشافعية، السبكي (ت ٧٧١هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو.

وأصل الكتب الضّم والجمع، ويقال للجند كتيبة لاجتماعها، وسمّي الكتاب كتابًا لأنه جمع حرف إلى حرف.

وقولُه تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكّ فيه أنّه من عند الله- عزّ وجلّ- وأنه الحقّ والصدق، **وقيل**: هو خبر بمعنى النهي، أي لا ترتابوا فيه **كقولِه تعالى**: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾ أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا.

وقولُه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هو هدى أي: رشد وبيان لأهل التقوى، **وقيل**: هو نصب على الحال، أي هاديًا تقديره لا ريب في هدايته للمتقين، والهدى ما يهتدي به الإنسان، للمتقين أي للمؤمنين.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: المتّقي مَن يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتّقاء، وأصله الحجز بين الشيئين، ومنه يُقال اتقى بترسه أي جعله حاجزًا بين نفسه وبين ما يقصده.

وفي الحديث: «**كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ**»(١)، أي إذا اشتدّ الحرب جعلناه حاجزًا بيننا وبين العدو، فكأن المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عمّا نهاه حاجزًا بينه وبين العذاب.

وقال عمرُ بن الخطاب- رضي الله عنه- لكعب الأحبار: (حدّثني عن التقوى. فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمّرت. قال كعب: ذلك التقوى)(٢).

وقال شهر بن حوشب: (المتّقي الذي يترك ما لا بأس به حذرًا لما به بأس).

---

(١) الحديث: سبق تخريجه في ص ٤٥.

(٢) الأثر: سبق تخريجه في ص ٣٠.

وقال عمرُ بن عبد العزيز: (التّقوى تركُ ما حرّم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خيرٌ إلى خير)[1].

وقيل: هو الاقتداءُ بالنبي ﷺ، وفي الحديث: **(جِماعُ التقوى في قولِه تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[2].

وقال ابنُ عمر: التّقوى أن لا ترى نفسَك خيرًا من أحد، وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المتقون بالهدى.

(١) الأثر: سبق تخريجه في ص ٣١

(٢) **سورة:** النحل، الآية رقم: ٩٠.

(١٢)

وجاء في تفسير الأصفهاني لأبي القاسم المعروف بالراغب الأصفهاني[1] **رحمه الله (٥٢٢هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، **قال أبو عبيدة**: عنى به هذا الكتاب.

وقال غيرُه: عنى: هو الكتاب، فظنّ بعض مَن لم يتّقو في الحقائق **أنّ قولهم**: (**ذلك**): قد يجيء بمعنى: (**هذا**) و(**هو**) ليس الأمر على ما ظنّوه، وإنّما قصد هذا المفسر أنْ **يبين أنّ**: الاسم الذي فيه الألف واللام هو الخبر، لا لأنّه وصف والخبر منتظر، **كقوله تعالى**: ﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾[2] والفصل كما يقع بالمضمرات فإنه يقع بالمبهمات.

فإنْ قيل: إذا كان هذا المعنى ما قدمت في: (**الم ذلك الكتاب**)، **فهلّا قيل**: (ذلك الكتاب الم) فإنه قد علم أنّ حروف التّهجي كما يكون الكتاب المشار إليه قد يكون شعرًا وخطبةً ورسالةً، وقد تقرّر أنّ العام إذا أخبر عنه بالخاصّ كان كذبًا، **نحو قولهم**: الحيوان إنسان، وإذا أخبر عن الخاص بالعام كان صدقًا، **نحو قولهم**: الإنسان حيوان، فيحصل من ذلك أنّه **إذا قيل**: الم *

---

(١) **الرَّاغِب الأَصْفَهَاني:** هو أديب وعالم، أصلُه من أصفهان، وعاش ببغداد، ألّف عدّة كتب في التفسير والأدب والبلاغة وقيل: هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، اختُلِف في مذهبه، فقيل من الكثير أنّه شيعي، وقال الكثير أيضًا بل هُوّ من المعتزلة، ويُعدّه رهطٌ مِن عُلماء الشيعة بأنه شيعي من أعلامهم وكبرائهم وعُلمائهم وأعيانهم. قال الزركلي: اشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. انظر: كِتاب الذريعة المُجلد ٥ / صفحة ٤٥، كِتاب سفينة البحار المُجلد الأول / صفحة ٥٢٨، كِتاب أعيان الشيعة المجلد السابع والعشرين / ص ٢٢٠ - ٢٢٨٢٧ / و ص ٢٢٠ - ص ٢٢٨.

(٢) **سورة**: الأنفال، الآية رقم: ٣٢.

ذلك الكتاب كان كذبًا على هذا، وإذا قيل: ذلك الكتاب الم كان صدقًا؟ **قيل:** في ذلك الكتاب جوابان:

أحدهـما: أن يجعـل (**ذلـك الكتـاب**): مبتـدأ، و(**الم**): خـبرًا لـه مقدمًـا، وتقديمـه عـلى كـوْن العنايـة بـه أصـدق كما تقـدّم.

والثّاني: أنّـه قـد **يقـال:** الإنسـانُ زيـد، بمعنـى غـير معنى: زيـد إنسـان، وهو أن يـراد أن كمال الإنسـانية موجـود في زيد.

فكأنّـه قيـل: كـمال حـروف التهجـي موجودٌ في هذا الكتـاب، والمكتـوب في التعارف اسـم للمكتوب، أي: المنظـوم كتابـة، وقـد يعبّر عـن المنظوم عبـارة قبل أن يكتـب بالكتاب.

قولُـه تعـالى: ﴿ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ﴾، **قـال المفـسرون:** معناه لا شـكّ فيه، **فـإن قيل:** كيف نفـى الرّيب عنه، وقـد علـم تشـكّك كثير من الناس فيـه؟ **قيل:** في ذلـك أجوبة:

الأوّل: إنّ ذلـك نفـيٌ عـلى معنـى النهـي، **نحْـو قولـه:** ﴿ فَـلاَ رَفَـثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِـدَالَ فِي الْحَـجِّ ﴾[1]، بدلالـة **قوله:** ﴿فَـلاَ تَكُونَـنَّ مِـنَ الْمُمْتَرِيـنَ﴾[2].

وقوله سبحانه:﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[3].

فـإنْ قيـل: الشـكّ لا يقصـده الإنسـان، فكيـف ينهـى عنـه؟ قيـل: اللفـظ (**لذلـك**)، والمعنـى حـثّ عـلى التدبـر والتفكّـر النافيـين للشـك.

والثّاني: أنّه يقال: رابني كذا، إذا تحقّقت منه الريبة، وأرابني: أوهمني الريبة، قال الشاعر:

أخوك الذي إنْ ربته قال إنما أربت وإن عاتبته لان جانبُه

فالقرآنُ لا ريب فيه، وإن كان فيه ارتياب من بعض الكفار.

---

(١) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٤٧.

(٣) **سورة:** الأعراف، الآية رقم ٢.

والثّالث: أنّه **يقال**: هذا لا ريب فيه، والقصد إلى أنّه حقّ، تنبيهًا أنّ الرّيب يرتفع عنه عند التدبر والتأمّل.

والرّابع: أنّه لا ريب في كوْنه مؤلفًا من حروف التهجي وقد عجزتم عن معارضته.

والخامس: لا ريب فيه للمتقين، ويكون خبر (**لا ريب فيه**) قوله تعالى: (**للمتقين**) وهدى نصب على الحال، أو خبر ابتداء مُضمر في موضع الحال.

وأمّا (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) فقد تقدّم الكلام في الهداية، إمّا اختصاص المتقين، فلأنّ الهداية: نصب العلم ليهتدي به الناس، **فله موضوع**: هو **المبدأ**: وذلك نصب العلم للكافّة، **وله غاية**: وهو الاهتداء به، **فيُقال**: (**هُدًى لِلْمُتَّقِين**): لما لم يهتدِ به غيرهم، **ومثاله**: مَن بنى مسجدًا مباحًا للكافّة، يصحّ أن **يقول**: بنيت هذا المسجدَ للناس كافّة، اعتبارًا بالمبدأ، ويصحّ أنْ **يقول**: بنيتُه للمصلين فيه، اعتبارًا بالغاية.

وطريقة أخرى: وهي أنّ (**اللام**) في قول القائل: (خرجت لأظفر)، **يقال** على وجهين:

أحدهما: أنّ المقصود بالخروج: الظفر.

والثّاني: أنّ الحاصل منه الظّفر، لا أنّه قصد به، وعلى ذلك **قوله تعالى**: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]، **فقوله**: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِين﴾: تنبيهٌ على حصول الهدى لهم، وإن كان القصدُ لهم ولغيرهم.

وطريقةٌ ثالثة: إذا تُؤمِلت تصوّر عنها جواب مسائل كثيرة في القرآن: وهو أنّ الله تعالى جعل لنا طبّين: **طبًّا بدنيًّا، وطبًّا دينيًّا**، وكلّ واحدٍ منهما ضربان:

أحدهما: إعادة الصّحة، **والآخر**: حفظ الصّحة، وقد أجرى العادة أنّ الذي يحفظ به الصحة غير الذي يعاد به الصحة.

(١) **سورة**:: القصص، الآية رقم: ٨.

فأمّـا في الطـبّ البـدني: فالـذي يعـاد بـه الصّحـة العقاقـير والأدويـة، والـذي يحفظ بـه الصحـة فالغذاء والأطعمة.

وأمّـا في الطـبّ الدينـي: فالـذي يعـاد بـه الصّحـة صقـل العقـل واسـتعماله في تدبّـر الـدلالات، وتعـرف المعجـزات، ومعرفـة النبـوّات، والـذي تحفـظ بـه الصّحـة: فتدبـر الكتاب المنـزل، وتتبع سـنن النبي المُرسـل، فكـما أن مـن لم يسـتفد الصحـة في الطـب البـدني، إذا تغـذى، كان ذلـك ضرراً عليـه، ومتى أعـاد صحته كان تنـاول الغـداء عائـدًا بنفـع إليـه، كذلـك مَن لم يسـتفد صحـة عقله بتدبـر الـدّلالات كان القـرآن ضررًا عليه، ومتـى اسـتعمل ذلـك وتهـذب فيـه، جلب بالاسـتماع إلى القـرآن نفعًـا إليه.

وعـلى ذلـك قولـه تعالى:﴿وَنُنَـزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاء وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِيـنَ وَلاَ يَزِيـدُ الظَّالِمِيـنَ إَلاَّ خَسَـارًا﴾[١]، **وقولـه سـبحانه**: ﴿وَإِذَا مَـا أُنزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُـمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًـا﴾[٢]، إلى قوله: ﴿ فَزَادَتْهُـمْ رِجْسًـا إِلَـى رِجْسِـهِمْ وَمَاتُـواْ وَهُـمْ كَافِـرُونَ﴾[٣]، **وأمّـا التقـوى** فهـي: جعـل النفـس في وقاية ممّا يُخـاف منه، هـذا حقيقتهـا، ثمّ.

يسـمّى تـارة: (الخـوف) التقـوى، والتّقـى: خوفًـا عـلى تسـمية المقتـضي باسـم المقتضى، والمقتضى باسـم المقتـضي، وفي التعـارف: حفـظ النفـس عـن كلّ مـا يؤثم.

ولهـا منـازل: **الأولى:** تـرك المحظـور، وذلـك لا يتـمّ إلّا بـترك بعـض المبـاح مـمّا يليـه، ولذلـك ذكـر عليـه السّـلام: أنّ مَـن يرتـع حـول الحمـى يوشـك أنْ يقـع فيـه، وقيـل: مَـن لم يجعـل بينـه وبين محـارم الله سـترًا مـن حـلال، فحقيـق بـه أن يقـع فيها.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٤] أي: التاركين للمحظورات.

---

(١) **سورة**: الإسراء، الآية رقم: ٨٢.

(٢) **سورة**: التوبة، الآية رقم: ١٢٤.

(٣) **سورة**:التوبة، الآية رقم: ١٢٥.

(٤) **سورة**: المائدة، الآية رقم: ٢٧.

وقـال سـبحانه: ﴿فَمَـنِ اتَّقَـى وَأَصْلَـحَ فَـلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ هُـمْ يَحْزَنُـونَ ﴾[١]، **وقـال**: ﴿إِنَّ اللـهَ مَـعَ الَّذِيـنَ اتَّقَـواْ وَّالَّذِيـن هُـم مُّحْسِـنُونَ﴾[٢]، فجعـل (المتقـي) في الآيتـين غـير المصلـح والمحسـن.

والثانيـة: مـن منـازل التقـوى أن: يتعاطى الخـير من تجنّب الشر، وإيّـاه عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَسِـيقَ الَّذِيـن اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّـةِ زُمَرًا ﴾[٣].

والثالثـة منهـا: التـبرّؤ مـن كلّ شيء سـوى اللـه- عـزّ وجـلّ- فـلا سـكون إلى النفـس، ولا إلى شيء مـن التقيـات والجـاه والأعـراض، وهـو **المعنـى بقولـه تعـالى:** ﴿اتَّقُـواْ اللـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ﴾[٤]، ومـا وعدنـاه **بقوله تعـالى:**﴿ وَالَّذِيـن اهْتَـدَوْا زَادَهُـمْ هُـدًى وَآتَاهُـمْ تَقْواهُـمْ ﴾[٥]، ورجَونـاه بقولـه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِيـنَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَـرُواْ إِلَـى رَبِّهِـمْ﴾[٦] إلى **قولـه تعـالى:** ﴿لَعَلَّهُـمْ يَتَّقُـونَ﴾[٧]، فهـذه المنـازل مرتّـب بعضُهـا عـلى بعض.

وقد فُسّر قوله تعالى: (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) على الوجوه الثلاثة:

فقيل: عني به التاركين لمحارم الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عني به الخائفين عقوبته، الراجينَ رحمته.

وقـال بعـضُ المتقدّمـين: معنـى (**هُـدًى لِلْمُتَّقِـينَ**): أي وصلـة للمُنقطعـين إليـه عـن الأغيار، الذيـن نزع عن قلوبهـم حـبّ الشـهوات، فهذا نظـر منهـم إلى الغاية.

---

(١) **سورة:** الأعراف، الآية رقم: ٣٥ .

(٢) **سورة:** النحل، الآية رقم :١٢٨.

(٣) **سورة:** الزمر، الآية رقم: ٧٣.

(٤) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

(٥) **سورة:** محمد، الآية رقم: ١٧.

(٦) **سورة:** الأنعام، الآية رقم: ٥١.

(٧) **سورة:** الأنعام، الآية رقم: ٥١.

(١٣)

وجاء في تفسير الكشّاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري[١] رحمه الله (٥٣٨هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

فإنْ قلت: لِمَ صحّت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟ **قلت:** وقعت الإشارة إلى (الم) بعدما سبق التكلّم به وتقضى، والمتقضى في حكم المتباعد، وهذا في كلّ كلام، يحدّث الرجل بحديث ثمّ **يقول:** وذلك ما لا شكّ فيه، ويحسب الحاسب ثمّ **يقول:** فذلك كذا وكذا.

وقال الله تعالى: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾[٢]، **وقال:** ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[٣]، ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئًا: احتفظ بذلك، و**قيل:** معناه: ذلك الكتاب الذي وعدوا به، فإنْ **قلت:** لِمَ ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؟ **قلت:** لا أخلو من أنْ أجعل الكتاب خبره أو صفته، فإنْ جعلته خبرَه كان ذلك في معناه، ومسمّاه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير، كما أجري عليه في التأنيث في **قولهم:** مَن كانت أمك، وإن جعلته صفته فإنّما أشير به إلى الكتاب صريحًا؛ لأنّ اسم الإشارة مُشار به إلى الجنس الواقع صفة له، **تقول:** هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا، **وقال الذبياني:**

نبئت نعمى على الهجران عاتبة   سقيا ورعيا لذاك العاتب الزاري

(١) **الزمخشري:** العلّامة، كبير المعتزلة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الزمخشري الخوارزمي النحوي صاحب (الكشاف) و(المفصل)، رحل، وسمع ببغداد من نصر بن البطر وغيره، وحج، وجاور، روى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي، وزينب بنت الشعري، وروى عنه أناشيد إسماعيل بن عبد الله الخوارزمي، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي، وغيرهما. كان مولده بزمخشر قرية من عمل خوارزم، في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢٠ ص١٥١.

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٦٨.

(٣) **سورة:** يوسف، الآية رقم: ٣٧.

فـإنْ قلـت: أخـبرني عـن تأليـف (**ذلـك الكتـاب**) مـع (الم)، **قلـت:** إنْ جعلـت (**الم**) اسـمًا للسـورة ففـي التأليـف **وجوه:**

أنْ يكـون: (**الم**) مبتـدأ، و(**ذلـك**) مبتـدأ ثانيًـا، و(**الكتـاب**) خـبره، والجملة خـبرُ المبتـدأ الأول، **ومعناه** أنّ (**ذلـك الكتـاب**): هـو الكتـاب الكامـل، كأنّ مـا عـداه مـن الكتـب في مقابلته ناقـص، وأنه الذي يسـتأهل أن يسـمّى كتابًـا، كـما **تقـول**: هـو الرجـل، أي: الكامـل في الرجوليـة، الجامـع لما يكـون في الرجال مـن مُرضيات الخِصـال، وأن يكـون الكتـاب صفـة، **ومعناه:** هو ذلك الكتـاب الموعود، وأن يكون (**الم**) خـبرُ مبتدأ محذوف، أي هـذه (**الم**)، ويكـون ذلـك خـبرًا ثانيًـا أو بـدلًا، عـلى أنّ الكتاب صفة، وأن يكـون: هـذه (**الم**) جملة، وذلك الكتـاب جملـة أخـرى، وإنْ جعلـت (**الم**) بمنزلة الصوت كان (ذلـك) مبتدأ خبره الكتـاب، أي: (**ذلك الكتاب**) المنـزل هـو الكتـاب الكامـل، أو الكتـاب صفـة والخـبر مـا بعـده، أو قـدر مبتـدأ محـذوف، أي: هـو يعنـي المؤلـف مـن هذه الحـروف (**ذلـك الكتاب**).

وقرأ عبد الله: ﴿الم {١/٢} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وتأليف هذا ظاهر.

والرّيـب: مصـدر رابنـي، إذا حصـل فيـك الريبـة، وحقيقـة الريبـة: قلـق النفـس واضطرابهـا، ومنـه مـا روى **الحسـنُ بـن عـلي** قـال: سـمعت **رسـول اللـه**- ﷺ- يقـول: «**دعْ مـا يريبـك إلى مـا لا يريبـك، فـإنّ الشـكّ ريبـة، وإنّ الصـدق طمأنينـة**»[1] أي: فـإنّ كـوْن الأمـر مشـكوكًا فيـه مـمّا تقلـق لـه النفـس ولا تسـتقرّ، وكوْنـه صحيحًـا صادقًـا مـمّا تطمـئنّ لـه وتسـكن، ومنـه: ريـب الزمـان، وهـو مـا يقلـق النفـوس، ويشـخص بالقلـوب مـن نوائبـه، ومنـه: أنّـه مـرّ بظبـي خائـف **فقـال**: «**لا يربـه أحـدٌ بـشيء**»[2]، فـإن

(١) الحديث: أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في: المجتبى (٥٧١١)، والكبرى (٥٢٢٠)، وأحمد (١٧٢٣) و(١٧٢٧)، وابن حبان (٧٢٢)، وابن خزيمة (٢٣٤٨)، والدارمي (٢٥٣٢)، والبزار (١١٩٤)، والطيالسي (١١٧٨)، وعبد الرزاق (٤٩٨٤)، وأبو يعلى (٦٧٦٢)، كلهم من طريق بُريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء السعدي عن الحسن عن النبي ﷺ.

(٢) الحديث: روى البزار في سننَيْه الكبرى والصغرى في كتاب الحجّ من حديث عيسى بن طلحة عن عمير بن سلمة الضمري عن البهزي، رواه مالك في موطّئه في الحج، أخبرنا يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن عيسى بن طلحة به، ورواه الدارقطني في كتابه العلل من حديث حماد بن زيد عن يحيى.

قلت: كيف نفى الرّيب على سبيل الاستغراق؟ وكم مِن مرتاب فيه؟، **قلت**: ما نفى أنّ أحدًا لا يرتاب فيه، وإنّما المنفي كوْنه متعلقًا للرّيب، ومظنّة له؛ لأنّه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، إلّا ترى إلى **قوله تعالى**: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[1] فما أبعد وجود الريب منهم؟ وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الرّيب، وهو أن يحذروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتمّ للمعارضة أم تتضاءل دونها؟ فيتحقّقوا عند عجزهم أنْ ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

فإنْ **قلت**: فهلّا قدّم الظرف على الريب، كما قدّم على الغول في **قوله تعالى**: ﴿**لَا فِيهَا غَوْلٌ** ﴾[2]، **قلت**: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه، وإثبات أنّه حقّ وصِدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتابًا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في **قوله**: لا فيها غول تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنّها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه **قيل**: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة.

(**فيه هدى**) الهدى: مصدر على فعل، كالسرى والبكى، وهو الدّلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته، **قال الله تعالى**: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى** ﴾[3]، وقال تعالى ﴿ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[4]، **ويقال**: مهدي في موضع المدح كـ (مهتد)، ولأنّ اهتدى مطاوع هدى، ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله، إلّا ترى إلى نحو: غمّه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه ذلك، فإنْ **قلت**: فلم **قيل**: هدى للمتقين والمتقون مهتدون؟ **قلت**: هو **كقولك** للعزيز المكرم: (**أعزّك الله وأكرمك**)، تريد طلبَ الزيادة إلى ما هو ثابتٌ فيه

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٣.

(٢) **سورة**: الصافات، الآية رقم: ٤٧ .

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٦

(٤) **سورة**: سورة: سبأ، الآية رقم: ٢٤.

واستدامته، **كقوله**: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١]، ووجه آخر، وهو أنّه سمّاهم عند مشارفتهم، لاكتساء لباس التقوى متقين، **كقول رسول الله** ﷺ: «**مَن قتل قتيلًا فله سلبُه**»[٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «**إذا أراد أحدكم الحجّ فليعجل، فإنه يمرض المريض، وتضلّ الضّالة، وتكون الحاجة**»[٣]، فسمّى المشارف للقتل والمرض والضلال: قتيلًا، ومريضًا، وضالًّا، ومنْه **قوله تعالى**: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٤]، أي صائرًا إلى الفجور والكفر.

فإنْ **قلت**: فهلّا **قيل**: هدى للضالين؟ **قلت**: لأنّ الضالين فريقان: فريق: علم بقاؤهم على الضلالة وهُم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى، فلا يكون هدًى للفريق الباقين على الضّلالة، فبقي أن يكون هدًى لهؤلاء، فلو جيء بالعبارة المُفْصحة عن ذلك **لقيل**: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضّلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، **فقيل**: (**هدى للمتقين**)، وأيضًا فقد جعل ذلك سلمًا إلى تصدير السّورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني، بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

---

(١) **سورة**: سورة: الفاتحة، الآية رقم: ٦.

(٢) الحديث: أخرجه أحمد (٣٠٧/٥)، عن إسحاق بن عيسى، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٢٧/٣)، من طريق ابن المبارك، كلاهما عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن الأعرج عن أبي قتادة الأنصاري.

(٣) الحديث: أخرجه أحمد (٣١٤/١) من طريق إسماعيل عن أبيه أبي إسرائيل عن فضيل، يعني ابن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن الفضل، أو أحدهما عن الآخر، ثمّ أخرجه هو (٢١٤/١، ٣٢٣، ٣٥٥)، وابن ماجه (٢٨٨٣)، والبيهقى، وأبو نعيم (١١٤/١)، والخطيب في: الموضح (٢٣٢/١) و (٣٤٠/٤).

(٤) **سورة**: نوح، الآية رقم: ٢٧

(١٤)

وجاء في تفسير ابن عطية لعبد الحقّ بن عطية الأندلسي[1] **رحمه الله (٥٤٢هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

الاسـُم مـن ﴿ذَلِـكَ﴾ الـذّال والألـف، وقيـل: الـذّال وحدهـا، والألـف تقويـة، والـلام لبعـد المشـار إليـه، وللتأكيـد، والـكاف للخطـاب، وموضـع (**ذلـك**) رفـع كأنـه خـبر ابتـداء، أو ابتـداء وخـبره بعـده، واختلـف في (**ذلـك**) هنا:

فقيـل: هـو بمعنـى هـذا، وتكـون الإشـارةُ إلى هـذه الحـروف مـن القـرآن، وذلك أنّـه قد يشـار بذلك إلى حـاضر تعلّـق بـه بعـض الغيبـة، وبـ (**هـذا**) إلى غائـب هو مـن الثبـوت والحضور بمنزلـة وقرب.

وقيل: هو على بابه إشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب:

فقيل: ما قد كان نزل من القرآن.

وقيل: التوراة والإنجيل، **وقيل:** اللوح المحفوظ، أي: الكتاب الذي هو القدر.

وقيل: إنّ الله قد كان وعَدَ نبيه أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد.

وقال الكسائي: (**ذلك**) إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد.

---

(١) **ابن عطية**: هو الإمام الحافظ، الناقد المجود، أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي، الغرناطي، المالكي، روى عن أبيه، والحسن بن عبيد الله الحضرمي، ومحمد بن حارث، ومحمد بن أبي غالب القروي، ورأى ابن عبد البر، وحجّ سنة تسع وستين، فسمع عيسى بن أبي ذر، والحسين بن علي الطبري، وأبا الفضل الجوهري، ومحمد بن معاذ التميمي المهدوي، وكان أديبًا شاعرًا لغويًّا، ديّنًا فاضلًا، أكثر الناس عنه، وكفّ بصره في آخر عمره، وكتب إلينا بإجازة ما رواه، مولده في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وله سبع وسبعون سنة، رحمه الله.

وقيل: إنّ الله قد كان وعد أهلَ الكتاب أن ينزل على محمد كتابًا، فالإشارة إلى ذلك الوعد.

وقيل: إنّ الإشارة إلى حروف المعجم في قول مَن **قال:** (الم) حروف المعجم التي تحدّيتكم بالنظم منها.

ولفظ ﴿الْكِتَابُ﴾: مأخوذٌ من كتبت الشيء إذا جمعته وضَمَمْت بعضه إلى بعض، ككتب الخرز بضمّ الكاف وفتح التاء وكتب الناقة، ورفع (**الكتابُ**) يتوجّه على البدل، أو على خبر الابتداء، أو على عطف البيان.

و﴿لاَ رَيْب فِيه﴾ معناه: لا شك فيه، ولا ارتياب به، والمعنى: أنّه في ذاته لا ريب فيه، وإن وقع ريب للكفار.

وقال قومٌ: لفظ **قوله**: ﴿لاَ رَيْبَ فِيه﴾ لفظ الخبر، ومعناه النهي.

وقال قوم: هو عمومٌ يُراد به الخصوص، أي: عند المؤمنين، وهذا ضعيف.

وقرأ الزهري، وابن محيصن، ومسلم بن جندب، وعبيد بن عمير: (فيهُ) بضمّ الهاء، وكذلك إليه وعليه، وبه، ونصله، ونوله، وما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل.

وقرأ ابن إسحاق: (**فيهو**) بضمّ الهاء ووصلها بواو.

و﴿ هُدًى﴾ **معناه**: رشاد وبيان، وموضعه، من الإعراب: رفع على أنّه خبر (**ذلك**)، أو خبر ابتداء مضمر، أو ابتداء وخبره في المجرور قبله، ويصحّ أن يكون موضعُه نصبًا على الحال من (**ذلك**)، أو من (**الكتاب**)، ويكون العاملُ فيه معنى الإشارة، أو من الضمير في (**فيه**)، والعامل معنى الاستقرار، وفي هذا القول ضعف.

وقوله ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اللفظ مأخوذ من وقى، وفعله اتقى على وزن افتعل، وأصله (**للموتقين**)، استثقلت الكسرة على الياء فسكنت وحذفت للالتقاء، وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتماع الواو والتاء، وأدغمت التاء في التاء فصار: (**للمتقين**)، **والمعنى**: للذين يتقون الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله.

(١٥)

وجاء في كتاب زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي[١] **رحمه الله (٥٩٧هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُـه تعـالى: ﴿ذَلِـكَ﴾ فيـه قـولان: **أحدهما:** أنّه بمعنـى هذا، وهو قـول **ابن عباس، ومجاهـد، وعكرمة، والكسـائي، وأبي عبيـدة، والأخفـش**، واحتـجّ بعضهم بقول خفـاف بن ندبة:

أَقول له والرمح يأطر متنه   تأمل خفافًا إِنني أنا ذلكا

أي: أنا هذا.

وقال **ابن الأنباري**: إنما أراد: أنا ذلك الذي تعرفه.

والثاني: أنها إشارة إلى غائب، ثمّ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه أراد به ما تقدّم إنزاله عليه من القرآن.

والثّاني: أنّه أراد به ما وعده أن يوحيه إليه في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢].

والثّالث: أنّه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتاب السّالفة، لأنهم وعدوا بنبيّ وكتاب.

قولُـه تعـالى :(**الْكِتـابُ**): القـرآن. وسـمّي كتابًا؛ لأنّـه جمع بعضه إلى بعـض، ومنه الكتيبة، سـمّيت بذلك لاجتـماع بعضهـا إلى بعض، ومنه: كتبـت البغلة.

---

(١) ابن الجوزي: هو الشيخ الإمام العلّامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخَرُ العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله ابن الفقيه عبد الرحمن ابن الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله- ﷺ- أبي بكر الصديق، القرشي التيمي البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة، وأول شيء سمع في سنة ست عشرة، مات رحمه الله عن عمر ناهز الثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ج ٢١ ص٣٦٦.

(٢) **سورة**: المزمل، الآية رقم: ٥

قولُه تعالى: (**لا رَيْبَ فِيهِ**) الرَّيب: الشّك، (**والهدى**): الإِرشاد، و(**المتقون**): المحترزون ممّا اتقوه، وفرَّق شيخنا **علي بن عبيد الله** بين التّقوى والورع، **فقال:** التقوى: أخذ عدّة، والورع: دفع شبهة، فالتقوى: متحقّق السبب، والورع: مظنون المسبَّب.

واختلف العلماءُ في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنّ ظاهرها النفي، ومعناها النهي، وتقديرها: لا ينبغي لأحدٍ أن يرتاب به لإتقانه وإحكامه، **ومثله:**﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، أي: ما ينبغي لنا، ومثله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾[2]، وهذا مذهب **الخليل، وابن الأنباري**.

والثاني: أنّ معناها: لا ريب فيه أنّه هدًى للمتقين، قاله **المبرّد**.

والثّالث: أنّ معناها: لا ريب فيه أنّه من عند الله، قاله **مقاتل** في آخرين.

فإنْ قيل: فقد ارتاب به قوم، **فالجواب:** أنّه حقّ في نفسه، فمَن حقّق النظر فيه عَلِم.

(١) **سورة:** يوسف، الآية: ٣٨

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٩٧

(١٦)

وجاء في التفسير الكبير (مفاتح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي[١] (٦٠٦هـ) رحمه الله:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أنْ **يقول**: المشار إليه ها هنا حاضر، و(**ذلك**): اسمٌ مُبهم يُشار به إلى البعيد، والجوابُ عنه من وجْهين: **الأول**: لا نسلم أنّ المشار إليه حاضر، وبيانه مِن وجوه:

الوجهُ الأوّل: ما قاله الأصمّ: وهو أنّ الله تعالى أنزل الكتابَ بعضه بعد بعض، فنزل قبل سورة البقرة سورًا كثيرة، وهي كلّ ما نزل بمكة ممّا فيه الدلالة على التوحيد وفساد الشرك وإثبات النبوة وإثبات المعاد، **فقولُه تعالى**: ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى تلك السور التي نزلت قبل هذه السّورة، وقد يسمّى بعضُ القرآن قرآنًا، **قال الله تعالى**: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ﴾[٢] **وقال حاكيًا عن الجن**: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾[٤]، وهُم ما سمعوا إلّا البعض، وهو الذي كان قد نزل إلى ذلك الوقت.

---

(١) فخر الدين الرازي: العلّامة الكبير، ذو الفنون، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني، الأصولي المفسّر، كبير الأذكياء والحكماء والمصنّفين، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واشتغل على أبيه الإمام ضياء الدين خطيب الري، وانتشرت تواليفه في البلاد شرقًا وغربًا، وكان يتوقّد ذكاءً، مات بهراة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة، وله بضع وستون سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء، ج٢١ ص٥٠١

(٢) **سورة**: الأعراف، الآية رقم: ٢٠٤

(٣) **سورة**: الجن، الآية رقم: ١.

(٤) **سورة**: الأحقاف، الآية رقم ٣٠.

وثانيها: أنّه تعالى وعدَ رسولَه عند مبعثه أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء، وهو عليه السلام أخبرَ أمّتَه بذلك، وروَتِ الأمّة ذلك عنه، ويؤيّده **قولُه جلّ وعلا**: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، وهذا في سورة المزمل، وهي إنّما نزلت في ابتداء المبعث.

وثالثها: أنّه تعالى خاطب بني إسرائيل، لأنّ سورة البقرة مدنية، وأكثرها احتجاجٌ على بني إسرائيل، وقد كانت بنو إسرائيل أخبرهم موسى وعيسى- عليهما السلام- أنّ الله سيرسل محمّدًا، ﷺ، وينزل عليه كتابًا **فقال تعالى**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي الكتاب الذي أخبر الأنبياءُ المتقدمون بأنّ الله تعالى سينزله على النبي المبعوث من ولد إسماعيل.

ورابعها: أنّه تعالى لمّا أخبر عن القرآن بأنّه في اللوح المحفوظ **بقوله**: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾[2]، وقد كان- عليه السلام- أخبر أمته بذلك، فغيرُ مُمتنع أن **يقول تعالى**: (**ذلك الكتاب**) ليعلم أن هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

وخامسها: أنّه وقعت الإشارة بذلك إلى (الم) بعد ما سبق التكلّم به، وانقضى، والمنقضي في حكم المتباعد.

وسادسها: أنّه لمّا وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئًا: احتفظ بذلك.

وسابعها: أنّ القرآن لمّا اشتمل على حكَمٍ عظيمة وعلوم كثيرة يتعسّر اطّلاع القوة البشرية عليها بأسْرها، والقرآن وإنْ كان حاضرًا نظرًا إلى صورته، لكنه غائب نظرًا إلى أسراره وحقائقه؛ فجاز أنْ يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب.

الوجهُ الثاني: سلمنا أنّ المشار إليه حاضر، لكن لا نسلّم أنّ لفظة (**ذلك**): لا يشار بها إلّا إلى البعيد، بيانه أنّ (**ذلك وهذا**): حرفا إشارة، وأصلهما (**ذا**)؛ لأنّه حرف للإشارة، **قال تعالى**:

---

(١) **سورة**: المزمل، الآية رقم: ٥

(٢) **سورة**: الزخرف، الآية رقم: ٤

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[1]، ومعنى (**ها**): تنبيه، فإذا قرب الشيء أشير إليه، **فقيل**: هذا، أي تنبّه أيها المخاطب لما أشرت إليه، فإنه حاضر لك بحيث تراه، وقد تدخل الكافُ على (**ذا**) للمخاطبة واللام لتأكيد معنى الإشارة فقيل: (**ذلك**)، فكأنّ المتكلم بالغ في التنبيه لتأخر

المشار إليه عنه، فهذا يدلّ على أنّ لفظة ذلك لا تفيد البعد في أصل الوضع، بل اختصّ في العرف بالإشارة إلى البعيد للقرينة التي ذكرناها، فصارت كالدّابة، فإنها مختصّة في العرف بالفرس، وإن كانت في أصل الوضع متناولة لكلّ ما يدبّ على الأرض، وإذا ثبت هذا **فنقول**: إنّا نحمله ها هنا على مقتضى الوضْع اللغوي، لا على مُقتضى الوضع العرفي، وحينئذ لا يفيد البعد، ولأجل هذه المقاربة يقام كلّ واحدٍ من اللفظين مقامَ الآخر، **قال تعالى**: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ ﴾[3]، ثمّ **قال**:﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾[4]، **وقال**:﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ {٥٢/٣٨} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[5]، **وقال**: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[6]، **وقال**:﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى {٧٩/ ٢٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[7]، **وقال**: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[8]، ثمّ **قال**: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[9]، **وقال**: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٤٥.

(٢) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٥.

(٣) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٨.

(٤) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٩

(٥) **سورة**: ص، الآية رقم: ٥٢.

(٦) **سورة**: ق، الآية رقم: ١٩.

(٧) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٢٥، ٢٦.

(٨) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٥.

(٩) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٦.

اللَّـهُ الْمَوْتَى ﴾[1]، أي هكذا يحيي الله الموتى، **وقال**: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[2] أي: ما هذه التي بيمينك، والله أعلم.

المسألةُ الثانية: لقائل أنْ **يقول**: لم ذُكِّر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث، وهو السّورة؟

الجواب: لا نسلم أنّ المشار إليه مؤنث؛ لأنّ المؤنث إمّا المسّمى أو الاسم، والأوّل باطل؛ لأنّ المسّمى هو (**ذلك**) البعض من القرآن وهو ليس بمؤنث، وأمّا الاسم فهو (**الم**) وهو ليس بمؤنث، نعم ذلك المسّمى له اسم آخر، وهو السورة وهو مؤنث، لكنّ المذكور السابق هو الاسم الذي ليس بمؤنث وهو (**الم**)، لا الذي هو مؤنث وهو السورة.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٧٣.

(٢) **سورة**: طه، الآية رقم: ١٧.

(١٧)

قال الإمام القرطبي[١] **رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (٦٧٠هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه تعالى:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ **قيل**: المعنى هذا الكتاب، وذلك قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعًا للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه **جلّ وعزّ**: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[٢]، فـ (**ذلك**) إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه: الم هذا الكتاب لا ريب فيه.

وهذا قولُ **أبي عبيدة وعكرمة** وغيرهما: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾[٣]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللـهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٤] أي هذه، لكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت، **فقيل: (تلك)**.

وفي **البخاري:** وقال **معمّر**: (**ذلك الكتاب**) أي: هذا القرآن، هدى للمتقين بيان ودلالة، كقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللـهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[٥] أي: هذا حكم الله، **قلت:** وقد جاء (**هذا**) **بمعنى:**

---

(١) القرطبي: هو الإمام، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، لم تُشِر المصادر التي ترجَمت له إلى سنة ولادته، وقد رجَّح بشير عيون- محقق كتاب (التذكار في أفضل الأذكار) للقرطبي- أنّه ولد في أواخر القرن السادس الهجري تقريبًا، وذكرت الموسوعة العربية أنّه ولد سنة ٦٠٠هـ نشأ- رحمه الله- في قرطبة بالأندلس، في عصر الموحِّدين، وظلَّ يعيش بها حتى سقطت في أيدي الفرنجة سنة ٦٣٣هـ فانتقل منها إلى مصر، واستقرَّ بها حتى وافته المنيَّة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي ج١ ص١٠، طبقات المفسّرين للسيوطي، ص: ٧٩، القرطبي المفسِّر: يوسف عبد الرحمن الفرت، ص: ٣٦.

(٢) **سورة:** السجدة، الآية رقم: ٦

(٣) **سورة:** الأنعام، الآية رقم: ٨٣.

(٤) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٢٥٢.

(٥) **سورة:** الممتحنة، الآية رقم: ١٠.

(**ذلـك**)، ومنـه **قولـه** عليـه السـلام في حديـث **أمّ حـرام**: (**يركبـون ثبـج هـذا البحـر أي ذلـك البحـر**)[1]، واللـه أعلـم.

وقيل: هو على بابه إشارةٌ إلى غائب، **وقيل**: الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة.

وقيـل: إنّ اللـه تبـارك وتعـالى لمّـا أنـزل عـلى نبيه ﷺ بمكـة: ﴿إِنَّـا سَـنُلْقِي عَلَيْكَ قَـوْلًا ثَقِيـلًا﴾[2] لم يزل رسـول اللـه ﷺ مسـتشرفًا لإنجـاز هـذا الوعـد مـن ربّـه عـزّ وجـل، فلـمّا أنـزل عليـه بالمدينة:﴿الـم {١/٢} ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾ كان فيه معنى هذا القـرآن الذي أنزلته عليـك بالمدينة، ﴿ذَلِكَ الْكِتَـابُ﴾: الـذي وعدتـك أن أوحيـه إليك بمكة.

وقيـل: إنّ ذلـك إشـارة إلى مـا في التـوراة والإنجيـل، و(**الم**): اسـمٌ للقـرآن، والتقديـر هـذا القـرآن ذلـك الكتـاب المفـسّر في التـوراة والإنجيـل، يعنـي أنّ التـوراة والإنجيـل يشـهدان بصحّتـه، ويسـتغرق مـا فيهـما ويزيـد عليهـما مـا ليـس فيهـما.

وقيل: إنّ ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ.

وقـال الكسـائي: ذلـك إشـارةٌ إلى القـرآن الذي في السـماء لم ينزل بعـد، **وقيل: إنّ الله تعـالى**: قد كان وعد أهـلَ الكتـاب أن ينزل على محمـد ﷺ كتابًا، فالإشـارة إلى ذلك الوعد.

قال المبرّد: المعنى هذا القرآن (**ذلك الكتاب**) الذي كنتم تستفتحون به على الذين كفروا.

وقيـل: إلى حـروف المعجـم في قـول مَـن **قـال**: (**الم**) الحـروف التـي تحدّيتكـم بالنظـم منهـا، و(**الكتاب**): مصـدرٌ مـن كتـب يكتـب إذا جمـع، ومنـه **قيـل**: كتيبـة لاجتماعهـا، وتكتبـت الخيل صـارت كتائـب، وكتبت البغلـة: إذا جمعـت بـين شـفري فرجها بحلقة أو سير، **والكتاب**: هـو خطّ الكاتب حـروف المعجم مجموعة أو متفرقـة، وسـمي كتابًـا وإن كان مكتوبًـا; كما قال **الشـاعر**:

تؤمّل رجعة مني وفيها   كتاب مثل ما لصق الغراء

---

(١) **الحديث**: في صحيح البخاري- الأيمان والنذور (٦٢٨٢)، وفي: صحيح مسلم- فضائل الصحابة (٢٥٣٣). وفي: مسند أحمد- مسند المكثرين من الصحابة (٣٧٨/١)..

(٢) **سورة**: المزمل، الآية رقم: ٥.

والكتاب: الفرض والحكم والقدر، **قال الجعدي:**

يابنة عمّي كتاب الله أخرجني عنكم وهــل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفي عام، ولذلك نصب الرّيب به، وفي الريب ثلاثة معان:

أحدها: الشكّ، قال عبد الله بن الزبعرى :

ليس في الحقّ يا أميمة ريب إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها: **التّهمة، قال جميل:**

بثينة قالت يا جميل أربتني فقلت كلانا يا بثين مريب

وثالثها: الحاجة، قال **كعب بن مالك:**

قضينا من تهامة كلّ ريب وخيبر ثمّ أجمعنا السيوفا

فكتـاب اللـه تعـالى: لا شـكّ فيـه ولا ارتيـاب، **والمعنى:** أنّه في ذاتـه حقّ، وأنه منزل من عنـد الله، وصفة مـن صفاتـه، غـير مخلـوق ولا محـدث، وإن وقـع ريبٌ للكفـار، **وقيل:** هو خبر ومعنـاه النهـي، أي لا ترتابوا، وتـمّ الـكلام كأنـه قـال ذلـك الكتـاب حقًـا، **وتقـول:** رابني هـذا الأمـر إذا أدخـل عليك شـكًا وخوفًـا، وأراب: صـار ذا ريبـة، فهو مريـب، ورابني أمـره، وريب الدهـر: صروفه.

(١٨)

وجاء في تفسير البيضاوي لناصر الدين أبي الخير البيضاوي[1] رحمه الله (٦٨٥هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ﴿الم﴾ إنّ أُوِّل بالمؤلف من هذه الحروف أو فُسِّر بالسورة أو القرآن فإنه لمّا تكلّم به وتقضى، أو وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعدًا أشير إليه بما يشار به إلى البعيد وتذكيره، متى أريد بـ (الم) السورة لتذكير الكتاب فإنّه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى (**الكتاب**) فيكون صفته والمراد به (**الكتاب**) الموعود إنزاله بنحو **قوله تعالى:**﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2]، أو في الكتب المتقدمة، وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل: فعّال بمعنى المفعول كاللباس، ثمّ أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب لأنّه ممّا يكتب، وأصل الكتب الجمع، ومنه الكتيبة.

﴿لاَ رَيْب فِيهِ﴾ معناه: أنّه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كوْنه وحيًا بالغًا حدّ الإعجاز، لا أنَ أحدًا لا يرتاب فيه، إلّا ترى إلى **قوله تعالى:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[3]، الآية فإنه ما أبعد عنهم الريب، بل عرفهم الطريق المريح له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجم من نجومه ويبذلوا فيها غاية جهدهم حتى إذا عجزوا عنها تحقّق لهم أنْ ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

---

(١) **البيضاوي**: هو القاضي ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، من قرية يقال لها البيضاء من عمل شيراز، ولد في بلدة البيضاء التابعة لمدينة شيراز، ونشأ في بيت علم وبركة، حيث كان والده إمامًا عالمًا، جمع بين العلم والتقوى، وتلقّى عنه العلم من شيوخه ومنهم والده، أبو القاسم عمر بن محمد بن علي البيضاوي المتوفي (٦٧٥هـ)، توفي رحمه الله بمدينة تبريز سنة ٦٩١هـ وقيل سنة ٦٨٥هـ انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (ج١ ص ١٣٦)، البيضاوي ومنهجه في التفسير ص ١٠.

(٢) **سورة**: المزمل، الآية رقم: ٥.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٣.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين.

و﴿هُدًى﴾: حالٌ من الضمير المجرور، والعامل فيه الظرف الواقع صفة للمنفي، و(**الريب**) في الأصل: مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، سمي به الشكّ لأنّه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة، **وفي الحديث:** (**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشّك ريبة والصدق طمأنينة**)(١)، ومنه ريب الزمان لنوائبه.

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يهديهم إلى الحق، والهدى في الأصل مصدر كالسرى والتقى، ومعناه الدّلالة، **وقيل**: الدلالة الموصلة إلى البغية لأنه جعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢) ولأنّه لا يقال مهدي إلّا لمَن اهتدى إلى المطلوب، واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه، وإن كانت دلالته عامة لكلّ ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار **قال تعالى:** ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٣)، أو لأنه لا ينتفع بالتأمّل فيه إلّا مَن صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنّظر في المعجزات، وتعرف النبوات، لأنّه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعًا ما لم تكنِ الصّحة حاصلة، وإليه أشار **بقوله تعالى:**﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴾(٤)، ولا يقدح ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفك عن بيان يعين المراد منه.

والمتّقي: اسمُ فاعل من قولهم وقاه فاتقى، **والوقاية**: فرطُ الصيانة، وهو في عرف الشرع اسم لمَن يقي نفسَه ممّا يضرّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه **قوله تعالى:** ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾(٥).

---

(١) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ٦٤

(٢) **سورة**: سبأ، الآية رقم: ٢٤.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٨٥.

(٤) **سورة**: الإسراء، الآية رقم: ٨٢.

(٥) **سورة**: الفتح، الآية رقم: ٢٦..

الثّانيـة: التجنّـب عـن كلّ مـا يؤثـم مـن فعـل أو تـرك حتـى الصغائـر عنـد قـوم، وهـو المتعـارف باسـم التقـوى في الـشرع، وهـو المعنـي **بقولـه تعـالى:** ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ آمَنُـواْ وَاتَّقَـوْاْ﴾[1].

الثالثـة: أن يتنـزّه عـمّا يشـغل سرّه عـن الحـقّ ويتبتل إليـه بشراشره[2]، وهـو التقوى الحقيقـي المطلوب بقولـه تعالى:﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُواْ الـلـهَ حَقَّ تُقَاتِـهِ﴾[3]، وقد فسر **قولـه:** ﴿هُـدًى لِّلْمُتَّقِين﴾ ها هنا على الأوجـه الثلاثة.

(١) **سورة:** المائدة، الآية رقم: ٦٥.

(٢) **تعريف:** ومعنى شراشر في معجم المعاني الجامع: شَرَاشِرُ الطَّيْرِ: أَطْرَافُ أَجْنِحَتِهِ الواحدة: شُرْشُرَةٌ، أَلْقَى عليه شَرَاشِرَهُ: أَعباءَه وهمومَه، أو ألقى عليه نفسَه حِرْصًا ومحبَّة.

(٣) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

(١٩)

جاء في كتاب: ملاك التأويل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي[١]**رحمه الله (٧٠٨هـ):**

قوله تعالى:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

فوصفُه سبحانه بكونه هدى للمتقين.

وقال تعالى: في وصف التوراة والإنجيل في أول سورة آل عمران: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ {٣/٣} مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾[٢]، ولم يقلْ هنا هدى للمتقين، فللسائل أنْ يسأل عن الفرق الموجب اختصاص كلّ من الموضعين بما ورد فيه، وهل كان يحسُنُ ورود الناس في موضع المتقين، وورود المتقين في موضع الناس؟

والجواب: أنّ الملائم المناسب ما ورد، وأنّ عكسه غيرُ ملائم ولا مناسب، ووجه ذلك أنّ (**الكتاب**) المشار إليه هو: الكتاب العزيز على ما في مآخذ المفسّرين من التفصيل، وهو ممّا خصّت به هذه الأمّة، والتوراة كتاب موسى- عليه السلام- لبني إسرائيل، والإنجيل كتاب عيسى- عليه السلام-، ولأمّة محمد ﷺ الفضل المعلوم، فأشير بالمتقين إلى حال المخصوصين به.

---

(١) **الغرناطي:** هو: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، سني العقيدة، من أعيان المذهب المالكي الكبار، انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث والتفسير والفقه، تلقى العلم على عددٍ كبير من علماء عصره داخل الأندلس وخارجها، فتضلع وبرز في علوم كثيرة، ممّا جعله يحتلّ منزلة فريدة في عصره، ولد سنة ٦٢٧ هـ، ومات رحمه الله سنة ٧٠٨ هـ.

انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ج١ ص١٨٨، تذكرة الحفّاظ للذهبي ج٤ ص٤٦٥، الدّرر الكامنة لابن حجر ج١ ص٨٤، شذرات الذهب لابن العماد ج٦ ص١٦، البدر الطالع للشوكاني ج١ ص٣٣.

(٢) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ٤.

وقيـل في الآخريـن: هـدًى للنـاس ليشـعر بحـال أهْـل الكتابـين، وفضـل أهل الكتـاب العزيـز عليهم، فلا يلائـم كلّ موضـع إلّا بمـا ورد فيه.

فإنْ قيل: إنّما صحّ لهم الوصفُ بالتقوى بعد اهتدائهم بالكتاب وتصديقهم به والتزامهم ما تضمنه.

قلـت: لوحـظ في ذلـك الغايـة فهو مِن باب التسـمية بالمـآل، وهو باب واسـع، ومنه: ﴿ إِنِّـي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْـرًا ﴾[1]، وإذا تقـرّر مـا ذكرناه فعكـسُ الوارد غير ملائم، واللـه أعلم بما أراد.

(١) **سورة:** يوسف، الآية رقم: ٣٦.

(٢٠)

وجاء في تفسير النّسفي لعبد الله بن أحمد بن محمود النّسفي[1] رحمه الله (٧١٠هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى (الم)، وإنما ذكر اسم الإشارة، والمشار إليه مؤنث، وهو السورة؛ لأنّ ﴿الْكِتَابُ﴾ إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسّماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير، وإن كان صفته فالإشارة به إلى (**الكتاب**) صريحًا؛ لأنّ اسم الإشارة مُشار به إلى الجنس الواقع صفة له، **تقول:** عند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا.

ووجْهُ تأليف (**ذلك الكتاب**): مع (**الم**) إن جعلتَ (**الم**) اسمًا للسورة أنْ يكون (**الم**) مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانيًا، والكتاب خبرُه، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأول، **ومعناه:** أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، **كما تقول:** هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مُرضيات الخِصال، وأن يكون (**الم**): خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هذه (**الم**): جملة، و(**ذلك الكتاب**): جملة أخرى، وإن جعلت (**الم**): بمنزلة

---

(١) **النسفي:** هو عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفي، أبو البركات، حافظ الدين، مفسر، متكلم، أصولي، من فقهاء الحنفية، أحد الزّهاد المتأخرين والعلماء العاملين، من أهل إيذَج (بلدة بين خوزستان وأصبهان) ووفاته فيها، ونسبته إلى نسف من بلاد ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند، تتلمذ لشيوخ كثيرين، وتفقّه ببلاده على الوجيه الرازي، وعلى شمس الأئمة الكردري والسراج الثقفي، والزين البدواني، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابي، وسمع منه الصِغْنَاقِي، وحجّ، وظهرت فضائله، ورحل إلى بغداد، له وجاهة في كلّ دولة، كان واسع العلم، كثير المهابة، رأسًا في الفقه والأصول، بارعًا في الحديث وعلومه، ليس له نظير في زمانه، توفي رحمه الله سنة ٧١٠هـ.

انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٦م، عبد القادر بن محمد بن أبي الوفا الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مصر ١٩٩٣م.

الصوت، كان (**ذلك**): مبتدأ خبره: (**الكتاب**)، أي: ذلك الكتاب المنزّل هو الكتاب الكامل (**لا ريب**): لا شك، وهو مصدر رابني: إذا حصل فيك الريبة.

وحقيقةُ الريبة: قلق النفس واضطرابُها، ومنه **قولُه** ﷺ: (**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشكّ ريبة، وإنّ الصدق طمأنينة**)[1]، أي: فإن كوْن الأمر مشكوكًا فيه مـمّا تقلق له النّفس ولا تستقرّ، وكوْنه صحيحًا صادقًا مـمّا تطمئنّ له وتسكن، ومنه: ريب الزمان، وهو: ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه، وإنّما نفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثير؛ لأنّ المنفي كونه متعلقًا للريب، ومظنّة له؛ لأنّه من وضوح الدلالة له وسطوع البرهان، بحيث لا ينبغي لمرتابٍ أن يقع فيه، لا أن أحدًا لا يرتاب.

وإنّما لم يقلْ: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[2]؛ لأنّ المراد في إيلاء الرّيب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنّه حقّ لا باطل كما يزعم الكفار، ولو أولى الظّرف لبعد عن المراد، وهو أنّ كتابًا آخر فيه ريب لا فيه، كما قصد في **قوله تعالى:** ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، ففيه تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

والوقفُ على (**فيه**) هو المشهور، وعن **نافع وعاصم** أنهما وقفا على (**لا ريب**)، ولا بدّ للواقف من أن ينوي خبرًا، والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدًى فيه بإشباع كلّ هاء، مكي، ووافقه **حفص** في **قوله تعالى:** ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾[3]، وهو الأصل، **كقولك:** مررت به، ومن عنده، وفي داره، **وكما لا يقال:** في داره، ومن عنده، وجب إلّا يقال: فيه.

قال سيبويه: ما قاله مؤدّ إلى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الياء قبل الهاء والهاء إذ الهاء المتحرّكة في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأنّ الهاء خفية، والخفي قريبٌ من الساكن، والياء بعدها.

---

(١) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٢) **سورة**: الصافات، الآية رقم: ٤٧.

(٣) **سورة**: الفرقان، الآية رقم: ٦٩.

و(**الهـدى**): مصـدرٌ عـلى فعـل كالبكاء، وهـو الدّلالة الموصلة إلى البغيـة، بدليل وقـوع الضلالة في مقابلة في **قولـه تعالى:** ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرُوُاْ الضَّلاَلَـةَ بِالْهُدَى﴾[1].

وإنّمـا قيـل: ﴿ هُـدًى لِّلْمُتَّقِيـن﴾ والمتقـون مهتـدون؛ لأنّـه كقولـك للعزيـز المكـرم: أعزّك اللـه وأكرمك، تريـد طلـب الزيـادة عـلى مـا هـو ثابـت فيـه واسـتدامته، **كقولـه:** ﴿اهدِنَـا الصِّـرَاطَ المُسـتَقِيمَ﴾[2]، ولأنّـه سـماهم عنـد مشـارفتهم لاكتسـاء لبـاس التقـوى متقـين، **كقولـه** ﷺ: (**مَن قتـل قتيلًا فلَـه سـلبُه**)[3]، وقول **ابـن عبـاس** رضي اللـه عنهـما: (**إذا أراد أحدكـم الحـجّ فليعجّـل فإنـه يمـرض المريـض**)[4]، فسـمّى المشـارف للقتـل والمـرض قتيـلًا ومريضًا.

ولم يقـل: هـدّى للضالـين؛ لأنّهـم فريقـان: فريـق علـم بقاءهم عـلى الضلالـة، وفريق علـم أنّ مصيرهم إلى الهـدى، وهـو هـدى لهـؤلاء فحسـب، فلـو جيء بالعبـارة المفْصحـة عن ذلك **لقيـل:** هـدى للصائرين إلى الهـدى بعـد الضـلال، فاختـصر الـكلام بإجرائه عـلى الطريقة التي ذكرنـا، **فقيـل:** ﴿ هُـدًى لِّلْمُتَّقِين﴾ مع أن فيـه تصديـرًا للسـورة، التـي هـي أولى الزهراوين، وسـنام القـرآن، بذكـر أوليائه تعالى.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٦.

(٢) **سورة**: الفاتحة، الآية رقم: ٦.

(٣)**الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٦

(٤) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٦

(٢١)

وجاء في التفسير الكبير المسمّى البحر المحيط لأثير الدين الأندلسي[(١)] رحمه الله (٧٤٥هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

ويصحّ أن يكون في **قوله تعالى:** ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ على بابه، فيحمل عليه، ولا حاجة إلى إطلاقه بمعنى هذا، كما ذهب إليه بعضهم فيكون للقريب، فإذا حملناه على موضوعه فالمشارُ إليه ما نزل بمكّة من القرآن، **قاله ابن كيسان** وغيره، أو التوراة والإنجيل، **قاله عكرمة،** أو ما في اللوح المحفوظ، **قاله ابن حبيب،** أو ما وعد به **نبيه** ﷺ من أنّه ينزل إليه كتابًا لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرّد، **قاله ابن عباس،** أو الكتاب الذي وعدَ به يومَ الميثاق، **قاله عطاء بن السائب، أو** الكتاب الذي ذكرته في التوراة والإنجيل، **قاله ابن رئاب، أو** الذي لم ينزل من القرآن، أو البُعد بالنسبة إلى الغاية التي بين المنزِل والمنزَل إليه، أو ذلك إشارة إلى حروف المعجم التي تحدّيتكم بالنظم منها.

قال: وسمعت الأستاذ **أبا جعفر** بن إبراهيم بن الزبير شيخنا **يقول:** ذلك إشارةٌ إلى الصراط في **قوله:** ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ﴾، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصّراط المستقيم؛ **قيل لهم:** ذلك الصراط

(١) **أثير الدين الأندلسي:** هو الإمام أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، القرناطي الأندلسي الْجَيَّاني، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وكتب العلم سنة سبعين، وهلمّ جرّا، أخذ بغرناطة عن أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الحافظ، والمقرئ أبي جعفر أحمد بن علي بن الطباع الرّعيني وغيرهما، وقرأ القراءات بالإسكندرية، على عبد النصير المريوطي، صاحب الصفراوي، وبالقاهرة على أبي طاهر إسماعيل بن هبة الله المليجي، صاحب أبي الجود، وقرأ التيسير سنة إحدى وسبعين وستمائة على أبي علي الحسين بن أبي الأحوص الحافظ: أخبرنا أبو الربيع بن سالم الكلاعي، سوى فوت يسير منه، وقرأ الموطّأ سنه ثلاث وسبعين، على ابن الطباع، وأخذ علم الحديث عن شيخنا الدمياطي، وغيره، وسمع من عبد العزيز بن الصيقل، وغازي الحلاوي وطبقتهما، ومع براعته الكاملة، في العربية.
انظر: شذرات الذهب ج٦ ص١٤٥، الدرر الكامنة ج٥ ص٧٠، فوات الوفيات لابن شاكر ج٢ ص٥٥٦، طبقات الشافعية للأسنوي ج٩ ص٢٧٧، بغية الوعاة للسيوطي ج١ ص٢٦٦.

الـذي سـألتم الهدايـة إليـه هـو: (**الكتـاب**)، وبهـذا الـذي ذكره **الأسـتاذ:** تبيّن وجـه ارتباط سـورة البقرة بسـورة الحمـد، وهـذا القـول أولى لأنّـه إشـارة إلى شيء سـبق ذكـرُه، لا إلى شيء لم يجـرِ لـه ذكر.

وقـد ركبـوا وجوهًـا مـن الإعـراب في قوله: ﴿ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ﴾، والذي نختاره منهـا أنّ: **قوله تعـالى:** ﴿ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ﴾ جملـة مسـتقلّة مـن مبتـدأ وخـبر؛ لأنه متـى أمكن حمـل الكلام موضـع خبر (الم) و(**لا ريـب**): جُملـة تحتمـل الاسـتئناف، فـلا يكـون لهـا موضـع مـن الإعـراب، وأنْ تكـون في موضـع خـبر لــ (**ذلـك**)، و(**الكتـاب**) صفـة أو بـدل أو عطـف أو خـبر بعـد خـبر، إذا كان الكتاب خـبرًا، وقلتُ بتعـدّد الأخبار التـي ليسـت في معنـى خـبر واحـد، وهـذا أولى بالبُعـد لتبايـن أحـد الخبريـن؛ لأنّ الأول مفرد والثـاني جُملة، وأن يكـون في موضـع نصـب أي مـبراً مـن الريـب، وبناء ريـب مع لا يدلّ عـلى أنّها العاملة عمـل إن، فهو في موضـع نصـب ولا وهـو في موضـع رفـع بالابتـداء، فالمرفوع بعـده على طريق الإسـناد خبر لذلـك المبتدأ فلم تعمـل حالـة البنـاء إلّا النصب في الاسـم فقط.

هـذا مذهـب **سـيبويه**، وأمّـا **الأخفـش** فـ(**ذلـك**) المرفـوع خـبر (**لـلا**)، فعملـت عنـده النصـب والرفـع، وتقريـر هـذا في كتـب النحـو، وإذا عملـت عمـل (**إن**) أفـادت الاسـتغراقَ فنفت هنـا كلّ ريـب، والفتح هو قـراءة **الجمهـور**، وقـرأ **أبـو الشـعثاء:** (لا ريـبٌ فيـه) بالرفـع، وكـذا قـراءة **زيـد بن عـلي**: حيث رفـع، والمراد أيضًـا هنـا الاسـتغراق، لا مـن اللفـظ، بـل مـن دلالة المعنـى؛ لأنّـه لا يريد نفي ريـب واحد عنـه، وصار نظير مَـن قرأ:﴿فَـلاَ رَفَـثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِـدَالَ فِـي الْحَـجِّ﴾[1] بالبنـاء والرفع، لكـن البناء يدلّ بلفظـه على قضية العموم، والرفع لا يدلّ لأنّه يحتمل العموم، ويحتمل نفي الوحدة، لكن سـياق الكلام يبين أنّ المراد العموم، ورفعـه عـلى أنْ يكـون (**ريـب**): مبتدأ، و(**فيه**): الخـبر، وهذا ضعيف لعدم تكـرار (**لا**)، أو يكون عملها إعمال ليـس، فيكـون (**فيـه**) في موضـع نصـب عـلى قول الجمهـور مـن أنّ (**لا**) إذا عملـت عملَ ليس رفعت الاسـمَ

(١) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

ونصبتِ الخبر، أو على مذهب مَن ينسب العمل لها في رفع الاسم خاصّة، وأمّا الخبر فمرفوع لأنّها وما عملت (**فيه**) في موضع رفع بالابتداء كحالها إذا نصبت وبُني الاسم معها، وذلك في مذهب **سيبويه**.

وسيأتي الكلام مشبعًا في ذلك عند **قوله تعالى**: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾، وحمل (**لا**) في قراءة (**لا ريب**) على أنها تعمل عمل (ليس) ضعيف لقلة إعمال (**لا**) عمل (**ليس**)، فلهذا كانت هذه القراءة ضعيفة، وقرأ **الزهري وابن محيصن ومسلم بن جندب وعبيد بن عمير**: (**فيه**)، بضمّ الهاء، وكذلك (**إليه وعليه وبه ونصله ونوله وما أشبه ذلك**)، حيث وقع على الأصل، وقرأ **ابن أبي إسحاق**: (**فيهو**)، بضمّ الهاء ووصلها بواو، وجوزوا في قوله أن يكون خبرًا (**للا**) على مذهب الأخفش، وخبرًا لها مع اسمها على مذهب **سيبويه**، أن يكون صفة والخبر محذوف، وأن يكون من صلة (**ريب**) بمعنى أنّه يضمر عامل من لفظ (**ريب**) فيتعلق به، إلّا أنّه يكون متعلقًا بنفس (**لا ريب**)، إذ يلزم إذ ذاك إعرابه؛ لأنه يصير: اسم (**لا**) مطولًا بمعموله نحو لا ضاربًا زيدًا عندنا.

والذي نختاره أنّ الخبر محذوف؛ لأنّ الخبر في باب لا العاملة عمل إنّ إذا علم لم تلفظ به **بنو تميم**، وكثر حذفُه عند: **أهل الحجاز**، وهو هنا معلوم، فأحمله على أحسن الوجوه في الإعراب، وإدغام الباء من (**لا ريب**) في فاء (فيه) مرويّ عن: **أبي عمرو**، والمشهور عنه الإظهار، وهي رواية **اليزيدي** عنه، وقد قرأته بالوجهين على الأستاذ أبي جعفر بن الطباع بالأندلس.

ونفي الريب يدلّ على نفي الماهية، أي ليس ممّا يحلّه الريب ولا يكون فيه، ولا يدلّ ذلك على نفي الارتياب؛ لأنّه قد وقع ارتياب من ناس كثيرين.

فعلى ما قلناه لا يحتاج إلى حمله على نفي التعليق والمظنّة، كما حمله **الزمخشري**، ولا يرد علينا **قوله تعالى**: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ لاختلاف الحال والمحلّ، فالحال هناك المخاطبون، والرّيب هو المحلّ، والحال هنا منفي، والمحلّ الكتاب، فلا تنافي بين كوْنهم في ريب من القرآن وكوْن الرّيب منفيًا عن القرآن.

وقد قيّد بعضهم الريبَ فقال: لا ريب فيه عند المتكلّم به، **وقيل:** هو عمومٌ يُراد به الخصوص، أي عند المؤمنين، وبعضهم جعله على حذف مُضاف، أي لا سبب فيه لوضوح آياته وإحكام معانيه وصدق أخباره، وهذه التقادير لا يحتاجُ إليها، واختيار **الزمخشري** أن فيه خبر.

وبذلك بنى عليه سؤالًا وهو أن قال: هلّا قدّم الظرف على الريب كما قدّم على القول في قوله تعالى:﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[1]؟ وأجاب بأن التقديم يشعر بما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتابًا غيره فيه الريب، كما قصد في **قوله تعالى:** ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي.

كأنّه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنّقيصة، وقد انتقل **الزمخشري** من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر، ولا نعلم أحدًا يفرق بين: ليس في الدار رجل، وليس رجلٌ في الدار، وعلى ما ذكر من أنّ خمر الجنة لا يغتال، وقد وصفت بذلك العرب خمر الدنيا، قال **علقمة بن عبدة:**

تشفي الصداع ولا يؤذيك طالبها ولا يخالطها في الرأس تدويم

وأبعد من ذهب إلى **أنّ قوله تعالى:** ﴿لَا رَيْبَ﴾: صيغة خبر ومعناه النهي عن الريب، وجوّزوا في **قوله تعالى:** ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أن يكون هدى في موضع رفع على أنّه مبتدأ، وفيه في موضع الخبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أي هو هدى، أو على (**فيه**) مضمرة إذا جعلنا (**فيه**) من تمام (**لا ريب**)، أو خبر بعد خبر فتكون قد أخبرت (**بالكتاب**) عن ذلك، **وبقوله:** (**لا ريب**) فيه، ثمّ جاء هذا خبرًا ثالثًا، أو كان (**الكتاب**): تابعا، و(**هدى**): خبر ثان على ما مرّ في الإعراب، أو في موضع نصبٍ على الحال، وبولغ بجعل المصدر حالًا، وصاحب الحال اسمَ الإشارة، أو (**الكتاب**)، والعامل فيها على هذين الوجهين معنى الإشارة أو الضمير في فيه، والعامل ما في الظرف من الاستقرار، وهو مشكل لأنّ الحال تقييد، فيكون انتقال الريب مقيدًا بالحال

(١) **سورة**: الصافات، الآية رقم: ٤٧.

إذ (**لا ريـب فيـه**): يسـتقرّ فيـه في حال كوْنـه: (**هدى للمتقين**)، لكن يزيل الإشـكال أنها حـال لازمة، والأولى: جعـل كلّ جُملـة مسـتقلّة، فــ (ذلـك الكتـاب): جملـة، و(**لا ريب**) جملة، و(**فيـه هدى للمتقـين**) جُملة، ولم يحتـجْ إلى حـرف عطـف لأنّ بعضها آخـذٌ بعنق بعض.

فالجُملـة الأولى: أخـبرت بـأن المشـار إليـه هـو الكتـاب الكامـل، كـما تقـول: زيـد الرجـل، أي الكامل في الأوصاف.

والجُملـة الثانيـة: نعـت لا يكـون شيء مـا من (**ريـب**)، والجُملة الثالثـة: أخبرت أن فيه الهـدى للمتقين، والمجـاز إمّـا في: (**فيـه هـدى**)، أي اسـتمرار هـدى لأنّ المتقـين مهتـدون، فصـار نظـير اهدنا الـصراط، وإمّا في المتقين أي المشـارفين لاكتسـاب التقوى.

والمتّقـي في الشريعـة: هـو الـذي يقـي نفسَـه أن يتعاطـى مـا توعّـد عليـه بعقوبـة مـن فعـل أو تـرك، وهـل التقـوى تتنـاول اجتنـابَ الصغائـر؟ في ذلـك خـلاف، وجـوّز بعضهـم: أن يكـون التقدير هـدى للمتقين والكافريـن، فحـذف لدلالـة أحـدِ الفريقـين، وخـصّ المتقـين بالذكـر تشريفًـا لهم.

ومضمـونُ هـذه الجُملـة عـلى مـا اخترنـاه مـن الإعـراب: الإخبـارُ عـن المشـار إليـه الـذي هـو الطريـق الموصـل إلى **اللـه تعـالى،** وهـو الكتـاب أي الكامـلُ في الكتـب، وهـو المنـزل عـلى **رسـول الله** ﷺ الـذي **قال فيـه:** ﴿مَّـا فَرَّطْنَـا فِـي الكِتَـابِ مِـن شَـيْءٍ﴾[1]، فـإذا كان جميع الأشـياء فيه، فلا كتـاب أكمل منـه، وأنه نفى أن يكـون فيـه ريـب، وأنـه فيـه الهدى.

ففي الآيةِ الأولى: الإتيانُ بالجُملة كاملة الأجزاء حقيقة لا مجاز فيها.

وفي الآية الثانية: مجاز الحذف، لأنّا اخترنا حذف الخبر بعد (**لا ريب**).

وفي الآيـة الثالثـة: تنزيـلُ المعـاني منزلة الأجسـام، إذ جعل القـرآن ظرفًا، والهدى مظروفًـا، فألحق المعنى بالعـين، وأتى بلفظـة: (**في**) التـي تـدلّ عـلى الوعـاء كأنّه مشـتملٌ على الهـدى ومحتوٍ عليه احتـواء البيت على زيـد في **قولك**: زيـد في البيت.

---

(١) **سورة**: الأنعام، الآية رقم: ٣٨.

(**ذلك**): (**ذا**): اسمُ إشارة ثنائي الوضع لفظًا، ثلاثي الأصل، لا أحادي الوضع، وألفه ليست زائدة، خلافًا **للكوفيّين والسّهيلي**، بل ألفُه منقلبة عن ياء، ولامُه خلافًا لبعض **البصريين** في زعمه أنها: منقلبة من واو من باب طويت وهو مبني، ويقال فيه: (**ذا وذائه**) وهو يدلّ على القرب، فإذا دخلت الكاف فقلت: ذاك دلّ على التوسط، فإذا أدخلت اللام فقلت: ذلك دلّ على البعد، وبعض **النحويّين**: رتبة المشار إليه عنده قرب وبعد، فمتى كان مجرّدًا من اللام والكاف كان للقرب، ومتى كانتا فيه أو إحداهما كان للبعد، والكاف حرفٌ خطاب تبين أحوال المخاطب من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث كما تبينها إذا كان ضميرًا، وقالوا: آلك في معنى ذلك؟ ولاسم الإشارة أحكام ستذكر في النحو.

(**الكتاب**) يطلَق بإزاء معان العقد المعروف بين العبد وسيده على مال مؤجل منجم للعتق ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]، وعلى الفرض ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[2]،﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾[3]،﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[4] وعلى الحكم، قاله الجوهري لأقضين بينكما بكتاب الله، كتاب الله أحقّ، وعلى القدر:

يا ابنة عمّي كتاب الله أخرجني عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

أي قدر الله، وعلى مصدر كتبت **تقول:** كتبت كتابًا وكتبًا، ومنه ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [5].

(**لا**)**:** نافية، والنفي أحد أقسامها، وقد تقدّمت.

(**ريب**)**:** الرّيب: الشكّ بتهمة، راب حقق التهمة، **قال:**

ليس في الحق يا أمية ريب إنما الريب ما يقول الكذوب

---

(١) **سورة**: النور، الآية رقم: ٣٣ .

(٢) **سورة**: النساء، الآية رقم: ١٠٣.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٧٨.

(٤) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٨٣

(٥) **سورة**: النساء، الآية رقم: ٢٤

وحقيقة الرّيب قلَقُ النفس: جاء في الحديث: (**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشكّ ريبة، وإنّ الصدق طمأنينة**)[١]، ومنه: أنّه مرّ بظبي خائف فقال: (**لا يربه أحدٌ بشيء**)[٢]، **وريب الدهر:** صرفه وخطبه.

(**فيه**): في: للوعاء حقيقة أو مجازًا، وزيد للمصاحبة وللتعليل وللمقايسة ولموافقة على والباء مثل: ذلك زيد في المسجد، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٣]، ﴿ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ﴾[٤]، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥]، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[٦]، ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[٧]،﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[٨]، أي يكثركم به، الهاء المتصلة بفي من فيه ضمير غائب مذكر مفرد، وقد يوصل بياء، وهي قراءة **ابن كثير**، وحكم هذه الهاء بالنسبة إلى الحركة والإسكان والاختلاس والإشباع في كتب النحو.

(**هدى**): **الهدى**: مصدر هدى، وتقدّم معنى الهداية، والهدى مذكّر وبنو أسد يؤنثونه، **يقولون:** هذه هدى حسنة، **قاله الفراء** في كتاب المذكر والمؤنث. **وقال ابن عطية**: الهدى لفظ مؤنث.

وقال اللّحياني: هو مذكر، **وقال ابن سيده:** والهدى اسمٌ من أسماء النهار، وهو على وزن فعل كالسرى والبكى.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: المتقي: اسم فاعل من اتقى، وهو افتعل من وقى بمعنى حفظ وحرس، وافتعل هنا للاتّخاذ أي اتّخذ وقاية.

---

(١) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٢)**الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٧٩ .

(٤) **سورة**: الأعراف، الآية رقم: ٣٨.

(٥) **سورة**: الأنفال، الآية رقم: ٦٨ .

(٦)**سورة**: يونس، الآية رقم: ٦٤ .

(٧) **سورة**: طه، الآية رقم: ٧١ .

(٨) **سورة**: الشورى، الآية رقم: ١١ .

(٢٢)

جاء في تفسير الدّرّ المصون للسمين الحلبي[1] رحمه الله (٧٥٦هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

وأمّا (**ذلك الكتاب**)، فيجوز في (**ذلك**) أن يكون مبتدأ ثانيًا، والكتاب خبره، والجملة خبرُ (**الم**)، وأغنى الربط باسم الإشارة، ويجوز أن يكون (**الم**) مبتدأ، و(**ذلك**) خبره، و(**الكتاب**) صفة لـ (**ذلك**)، أو بدل منه، أو عطف بيان، وأن يكون (**الم**) مبتدأ، و(**ذلك**) مبتدأ ثان، و(**الكتاب**): إمّا صفة له، أو بدل منه، أو عطف بيان له، و (لا ريب فيه): خبر عن المبتدإ الثاني، وهو وخبره خبر عن الأول، ويجوز أن يكون (**الم**) خبر مبتدئ مُضمر، تقديره: هذه (**الم**)، فتكون جُملة مستقلة بنفسها، ويكون (**ذلك**) مبتدأ ثانيًا، و(**الكتاب**) خبره، ويجوز أن يكون صفة له، أو بدلًا، أو بيانًا، ولا ريب فيه، هو الخبر عن (**ذلك**)، أو يكون (**الكتاب**) خبرًا لـ (ذلك)، ولا ريب فيه، خبر ثان، وفيه نظر من حيث أنّه تعدّد الخبر، وأحدهما جملة، لكن الظاهر جوازه، **كقوله تعالى:** ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[2]، **إذا قيل أن** (**تسعى**): خبر، وأمّا إن جعل صفة فلا.

(١) **السمين الحلبي**: هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين، لم تذكر المصادر العربية شيئًا عن زمن ولادته، ولم أجدْ له في الطبقات شيئًا، لكنه عاصر ابن الجزري لقول الجزري عنه (لم يسبق إلى مثله) قال: الأسنوي في الطبقات: كان فقيهًا بارعًا في النحو والقراءات، ويتكلّم في الأصول، خيّرًا أديبًا، نزل القاهرة، تعلّم النحو فمَهَر فيه، ولازم أبا حيان إلى أنْ فاق أقرانه، وأخذ القراءات عن التقي الصائغ ومَهَر فيها، وسمع الحديث من يونس الدبوسي وغيره، وولّي تصدير القراءات بجامع ابن طولون، وأعاد بالشافعي، وناب في الحكم، وولّي نظر الأوقاف، مات في جمادى الآخرة، وقيل في شعبان سنة ٧٥٦ هـ. انظر: كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي ج١ ص٢٧٤، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار لحامد حسين اللكهنوي ج ٨ ص ٥٧، غاية النهاية في طبقات القراء لمحمد بن محمد الجزري ج ص١٥٧.

(٢) **سورة**: طه، الآية رقم: ٢٠.

وقولـه: (**لا ريـب فيـه**)، يجـوز أن يكـون خـبرًا كما تقـدّم بيانـه، ويجوز أن تكـون هذه الجملـة في محلّ نصـب عـلى الحـال، والعامـل فيه معنى الإشـارة، و(**لا**) نافية للجنـس محمولة في العمل عـلى نقيضتها (**إن**)، واسـمها معـرّب ومبنـي، فيبنـى إذا كان مفـردًا نكـرة عـلى مـا كان ينصـب بـه، وسـبب بنائـه تضمّنـه معنى الحـرف، وهـو (**مـن**) الاسـتغراقية، وقيـل: بُنـي لتركبـه معها تركيب خمسـة عـشر، وهو فاسـد، وبيانه في غير هـذا الكتاب.

و(**ريـب**) اسـمها، وخبرهـا يجـوز أن يكـون الجار والمجـرور، وهو (**فيـه**)، إلّا أنّ **بني تميـم**: لا تكاد تذكر خبرهـا، فـالأولى أن يكـون محذوفـًا، **تقديـره:** لا ريـب كائـن، ويكـون الوقـف على (**ريـب**) حينئذ تامًّـا، وقد يحـذف اسـمها ويبقـى خبرُهـا، **قالـوا:** لا عليـك، أي لا بـأس عليـك، ومذهـب **سـيبويه** أنّهـا واسـمُها في محلّ رفـع بالابتـداء، ولا عمـلَ لهـا في الخـبر، ومذهـب **الأخفـش** أنّ اسـمها في محـلّ رفـع، وهـي عاملـة في الخبر.

وقولُـه: (**هـدى للمتقـين**): يجـوز فيـه عـدّة أوْجـه، أن يكـون مبتـدأ، وخـبره: (**فيـه**)، متقدمًـا عليـه، **إذا قلنـا:** إنّ خـبر (**لا**): محـذوف، **وإنْ قلنـا** (**فيه**): خبرها، كان خـبره: محذوفًا مدلولًا عليه بخـبر (**لا**)، تقديره: لا ريـبَ فيـه، فيـه هـدى، وأن يكـون خـبر مبتـدئ مُضمر، تقديـره: هو هـدى، وأن يكون خـبرًا ثانيًا لــ (**ذلك**)، عـلى أنّ (**الكتـاب**): صفـة، أو بـدل، أو بيـان، و(**لا ريـب**): خـبر أول، وأن يكـون: خـبرًا ثالثًـا لــ (**ذلـك**)، عـلى أن يكـون (**الكتـاب**): خـبرًا أوّل، و(**لا ريـب**): خـبرًا ثانيًـا، وأن يكـون: منصوبًـا عـلى الحال من (**ذلـك**)، أو من (**الكتـاب**) والعامـل (**فيـه**) عـلى كلا التقديرين اسـمَ الإشـارة، وأن يكون حـالًا من الضّمير في (**فيـه**)، والعامل مـا في الجـار والمجـرور مـن معنـى الفعـل، وجعله حـالًا ممّا تقـدم: إمّا عـلى المبالغـة، كأنّه نفـس الهدى، أو عـلى حـذف مضـاف أي: ذا هـدى أو عـلى وقوع المصدر موقع اسـم الفاعـل، وهكذا كلّ مصـدر وقع خبراً أو صفـة أو حـالًا، فيـه الأقـوال الثلاثـة **أرجحهـا الأول**، وأجـازوا أنْ يكون (**فيه**) صفـة لريب فيتعلّـق بمحذوف، وأن يكـون متعلقًـا بريـب، وفيـه إشـكال، لأنّـه يصير مطـولًا، واسـم (**لا**) إذا كان مطـولًا أعـرب، إلّا أنْ يكون مرادهـم أنّـه معمـول لمـا دلّ عليـه (**ريب**) لا لنفـس (**ريب**).

و(**للمتقـين**): جـارٌّ ومجـرور متعلّـق بـ (**هـدى**)، **وقيل:** صفة لـ (**هـدى**)، فيتعلّق بمحـذوف، ومحلّه حينئذ: إمّـا الرفـع أو النّصـب بحسـب ما تقـدّم في موصوفه، أي: هـدى كائن أو كائنًـا للمتقين.

(٢٣)

وقال الإمام المفسّر ابن كثير[١] رحمه الله تعالى (٧٧٤هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قال **ابنُ عبّاس**: (**ذلك الكتاب**): هذا الكتاب، وكذا قال: **مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريج:**

أنّ (ذلك): بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسْمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم.

و(**الكتاب**) القرآن، **ومَن قال:** إنّ المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره؛ فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع، وتكلّف ما لا علم له به.

و(**الرّيب**): الشك، قال **السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس**، وعن **مرة الهمداني** عن **ابن مسعود**، وعن أناس من **أصحاب رسول الله** ﷺ: (**لا ريب فيه**) لا شك فيه، وقاله **أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد.**

---

(١) **ابن كثير:** هو الإمام الحافظ، المحدّث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي، ولد بقرية مِجْدَل من أعمال بصرى، وهي قرية أمّه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل، نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفّي أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة (٧٠٧ هـ)، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: وقد كان لنا شقيقًا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخّرت وفاته إلى سنة (٧٥٠ هـ) فاشتغلت على يديه في العلم فيسّر الله منه ما تيسّر وسهل منه ما تعسّر.

انظر: ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٨، وعمدة التفسير لأحمد شاكر ج١ ص٢٦،. النجوم الزاهرة ج١١ ص١٢٣، شذرات الذهب لابن العماد ج٦ ص٢٣٢.

وقـال ابـن أبي حاتـم: لا أعلـم في هـذا خلافًـا، **ومعنـى الـكلام:** أنّ هـذا (**الكتـاب**) وهـو القرآن لا شـكّ فيـه أنّه نـزل مـن عنـد اللـه، **كـما قال تعـالى:** ﴿الـم {١/٣٢} تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ لَا رَيْـبَ فِيهِ مِـن رَّبِّ الْعَالَمِيـنَ ﴾[١].

وقـال بعضُهـم: هـذا خـبرٌ، ومعناه النهـي، أي: لا ترتابوا فيـه، ومِن القرّاء مَن يقف عـلى **قوله:** (**لا ريب**) ويبتـدئ **بقولـه:** (**فيـه هـدى للمتقـين**) والوقف عـلى **قوله تعالى:** (**لا ريب فيـه**) أولى للآية التـي ذكرنا، ولأنّه يصـير **قولـه:** (**هـدى**) صفـة للقرآن، وذلـك أبلغ من كـوْن: (**فيه هدى**)، و(**هـدى**) يحتمل من حيـث العربية أن يكـون مرفوعًـا عـلى النعـت، ومنصوبًا على الحال، وخصـت الهداية للمتقين.

كـما قـال:﴿ قُـلْ هُـوَ لِلَّذِيـنَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُوَ عَلَيْهِـمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِـن مَّكَانٍ بَعِيـدٍ﴾[٢]، وقـال سبحانه: ﴿وَنُنَـزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاء وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِيـنَ وَلاَ يَزِيـدُ الظَّالِمِيـَن إَلاَّ خَسَـارًا﴾[٣]، إلى غـير ذلـك مـن الآيـات الدّالـة عـلى اختصـاص المؤمنـين بالنفـع بالقـرآن؛ لأنّه هو في نفسـه هـدى، ولكـن لا ينالـه إلّا الأبـرار، **كـما قال تعـالى:** ﴿ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَاءتْكُـم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِـفَاء لِّـما فِي الصُّـدورِ وَهُـًدى وَرَحْمَـٌة لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وقيل: (**هدى للمتقين**) **يعني:** نورًا للمتقين، وقيل: هدى من الضلالة.

وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين، وكلّ ذلك صحيح، وقيل: (**هدى للمتقين**) قال: هُم المؤمنون.

وعـن ابـن عبـاس: (**للمتقـين**) أي: الذيـن يحـذرون مـن اللـه عقوبتـه في تـرك مـا يعرفـون مـن الهـدى، ويرجـون رحمتـه في التصديـق بمـا جـاء بـه.

---

(١)**سورة:** السجدة، الآية رقم: ١ - ٢ .

(٢)**سورة:** فصلت، الآية رقم: ٤٤.

(٣)**سورة:** الإسراء، الآية رقم: ٨٢.

(٤)**سورة:** يونس، الآية رقم: ٥٧ .

وعن ابن عباس: (**للمتقين**) **قال:** المؤمنين الذين يتّقون الشّرك بي، ويعملون بطاعتي.

وعن الحسن البصري قوله: (**للمتقين**) **قال**: اتّقوا ما حرّم اللهُ عليهم، وأدّوا ما افترض عليهم.

وقال أبو بكر بن عيّاش: سألني الأعمش عن المتقين، **قال**: فأجبتُه. فقال لي: سلْ عنها **الكلبي.** فسألته، **فقال:** الذين يجتنبون كبائر الإثم. **قال:** فرجعت إلى **الأعمش**، **فقال:** نرى أنّه كذلك. ولم ينكره.

وقال قتادة: (**للمتقين**) هُم الذين نعتهم الله **بقوله:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، واختار **ابن جرير**: أنّ الآية تعمّ ذلك كلّه، وهو كما قال.

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٣.

(٢٤)

جاء في كتاب اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر الحنبلي[1] رحمه الله (٧٧٥هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قولُه: (**ذَلِكَ الكتاب**): يجوز في (**ذلك**): أن تكون مبتدأ ثانيًا، و(**الكتاب**): خبره، والجملة خبر (**الم**)، ويجوز أن يكون (**الم**): مبتدأ، و(**ذلك**): خبره، و(**الكتاب**): صفة لـ (**ذلك**)، أو بدل منه، أو عطف بيان، وأن يكون (**الم**): مبتدأ، و(**ذلك**): مبتدأ ثانٍ، و(**الكتاب**): إمّا صفة له، أو بدل منه، أو عطف بيان له.

وقولُه: (**لا ريب فيه**): خبر عن المبتدأ الثاني، وهو وخبرُه خبرٌ عن الأول.

ويجوز أن يكون (الم): خبر مبتدأه مضمر، **تقديره**: (هذا الم)، فتكون جملة مستقلة بنفسها، ويكون (**ذلك**): مبتدأ ثانيًا، و(**الكتاب**): خبره، ويجوز أن يكون صفة له، أو بدلًا، أو بيانًا، و(**لا ريب فيه**): هو الخبرُ عن (**ذلك**)، أو يكون (**الكتاب**): خبرًا لـ (**ذلك**)، و(**لا ريب فيه**) خبرٌ ثان، وفيه نظر من حيث أنّه **تعدّد الخبر**، وأحدهما جُملة، لكنّ **الظاهر جوازه**، **كقوله تعالى**: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[2]، إذا **قيل**: بأن (**تسعى**): خبر، وأمّا إنْ جُعِلَ: صفة؛ فلا.

(١) **ابن عادل الحنبلي**: هو أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، عالم وفقيه ومفسّر حنبلي، وصاحب كتاب اللباب في علوم الكتاب، أمّا مولده فلم تذكر أيّ من كتب التراجم تاريخًا محددًا لولادته، ومن خلال تراجم شيوخ ابن عادل يتبيّن أنّه ولد في أواخر القرن السابع الهجري، وعلى وجهٍ أقرب بعد سنة ٦٧٥هـ ولم تذكرْ كتب التراجم أي تاريخ محدّدٍ لوفاة ابن عادل، ولكنْ تشير أحد الدراسات أنّ حياة ابن عادل الحنبلي محصورة بين عام ٦٧٥ هـ وعام ٧٧٥ هـ انظر: البداية والنهاية الجزء ١٤ صفحة ١٥٠.

(٢) **سورة**: طه، الآية رقم: ٢٠.

و(**ذلك**): اسمُ إشارة: الاسم منه (**ذا**)، و(**اللَّام**): للبعد، و(**الكاف**): للخطاب، **ولها ثلاث رُتَب:**

دُنْيَا: ولها المُجَرّد من اللام والكاف، نحو: (**ذا، وذي**) و(**هذا، وهذي**).

وَوُسْطَى: ولها المتّصل بحرف الخطاب، نحو: (**ذاك، وذيك، وتيك**).

وقُصْوَى: ولها المتّصل: بـ (**اللام**) و(**الكاف**) نحو: (**ذلك، وتلك**).

ولا يجوز: أن تأتي بـ (**اللام**) إلّا مع (**الكاف**)، ويجوز دخول حرف التّنبيه على سائر أسماء الإشارة إلّا مع (**اللَّام**)، فيمتنع للطول.

وبعضُ النحويّين لم يذكرْ إلّا رتبتين: دُنْيَا وغيرها.

واختلف النحويّون في (**ذا**) هل هو ثلاثي الوضع أم أصلُه حرف واحد؟

الأوّل قول البصريّين، ثّم اختلفوا على عينه ولامه ياء، فيكون من باب: (**حيي**)، أو غينه واو، ولامه ياء، فيكون من باب (**غويت**)، ثمّ حذفت لامُه تخفيفًا، وقلبتِ العين ألفًا لتحرّكها، وانفتاح ما قبلها، وهذا كلّه على سبيل التّمرين. وأيًّا كان فهذا مبنيّ، والمبني لا يدخله تصريف، وإنّما جيء هنا بإشارة البعيد تعظيمًا للمُشَار إليه، ومنه:

أَقُولُ لَهُ والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ ... تَأَمَّلْ خُفَافًا إِنَّنِي أنا ذَلِكَا

أو لأنّه لمّا نزل من السَّماء إلى الأرض أشير بإشارة البعيد، أو لأنّه كان موجودًا به بنبيّه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلام، أو أنّه أشير به إلى ما قضاه وقدّره في اللّوح المحفوظ.

وفي عبارة المفسّرين: أشير بذلك إلى الغائب يعنونَ البعيد، وإلّا فالمشار إليه لا يكون إلّا حاضرًا ذِهْنًا أو حِسًّا، فعبّروا عن الحاضر ذِهْنًا بالغائب، أي حسًّا وتحريرًا لقول ما ذكرته لك.

وقال الأصَمّ وابن كيْسَان: إنّ الله تعالى أنزل قبل سورة: (**البقرة**) سورًا كذّب بها المشركون، ثمّ أنزل سورة: (**البقرة**)، فقال: (**ذلك الكتاب**) يعني ما تقدّم: (**البقرة**) من السّور لا شكّ فيه.

وقال ابن الخَطِيب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: سلّمنا أنّ المُشَار إليه حاضر، لكن لا نسلّم أنّ لفظة: (**ذلك**) لا يشار بها إلّا إلى البعيد.

بيانُه: أنّ (**ذلك**)، و(**هذا**): حرفُ إشارة، وأصلهما: (**ذا**)؛ لأنّه حرف الإشارة، **قال تعالى:** ﴿مَن ذَا الَّذِي﴾[١]، ومعنى (**ها**): تنبيه، فإذا قرب الشيء أشير إليه **فقيل:** هذا، أي: تَنَبَّهْ أيّها المُخَاطب لما أشرتُ إليه، فإنه حاضر معك بحيث تَرَاه، وقد تدخل (**الكاف**) على (**ذَا**): للمخاطبة، و(اللام): لتأكيد معنى الإشارة، **فقيل:** (ذلك)، فكأن المتكلّم بالغ في التنبيه لتأخّر المُشَار إليه عنه، فهذا يدلّ على أنّ لفظة: (**ذلك**) لا تفيد البُعْد في أصل الوَضْع، بل اختصّ في العُرْف بالفرس، وإن كانت في أصل الوضع متناولة لكلّ ما يدبّ على الأرض، وإذا ثبت هذا **فنقول**: إنا نحمله ها هنا على مُقتضى الوضع اللّغوي، لا على مُقتضى الوضع العرفي، وحينئذ لا يفيد البُعْد، ولأجل هذه المُقَارنة قام كلّ واحدٍ من اللَّفْظَين مقامَ الآخر، **قال تعالى:** ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾[٢]، إلى قوله:﴿وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ﴾[٣]، ثمّ قال:﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾[٤]، وقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[٥]، وقال: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٦]، **وقال تعالى:**﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى {٧٩/ ٢٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[٧]، **وقال تعالى:**﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾[٨]، وقال تعالى:﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا﴾[٩] وقال:﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٤٥.

(٢) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٥.

(٣) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٨.

(٤) **سورة**: ص، الآية رقم: ٤٩.

(٥) **سورة**: ص، الآية رقم: ٥٢.

(٦) **سورة**: ق، الآية رقم: ١٩.

(٧) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٢٥- ٢٦.

(٨) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٥.

(٩) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ١٠٦.

بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾[١] : أي هكذا يحيي الموتى وقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[٢]أي ما هذه التي بيمينك.

والكتابة عُرفًا: ضمّ بعض حروف الهجاء إلى بعض.

قال ابنُ الخطيب: واتّفقوا على أنَّ المراد من الكتاب القرآن، **قال تبارك وتعالى:** ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾[٣]، والكتاب جاء في القرآن على وجوه:

أحدها: الفرض ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾[٤]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[٥]، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[٦].

ثانيها: الحُجَّة والبُرْهان:﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٧]، أي: بِبُرْهانكم وحجّتكم.

ثالثها: الأَجَل:﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[٨]، أي: أَجَل.

رابعها: بمعنى مُكَاتبة السيد عبده: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[٩]، وهذا المصدر فِعَال: بمعنى المُفَاعلة، كالجِدَال والخِصَام والقِتَال بمعنى: المُجَادلة والمُخاصمة والمُقَاتلة.

والكتاب هنا: المُرَاد به القرآن، وله أسماء:

---

(١) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٧٣.

(٢) **سورة:** طه، الآية رقم: ١٧.

(٣) **سورة:** الأنعام، الآية رقم: ١٥٥.

(٤) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٧٨.

(٥) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٨٣.

(٦) **سورة:** النساء، الآية رقم: ١٠٣.

(٧) **سورة:** الصافات، الآية رقم: ١٥٧.

(٨) **سورة:** الحجر، الآية رقم: ٤.

(٩) **سورة:** النور، الآية رقم: ٣٣.

أحدها: الكِتَاب كما تقدم.

وثانيها: القُرْآن:﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(١)، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(٢).

وثالثها: الفُرْقَان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(٣).

ورابعها: الذِّكْر، والتَّذْكِرَة، والذِّكْرَى:﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾(٤)،﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٥)، **وقوله تعالى:**﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

وخامسها: التَّنْزِيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٧).

وسادسها: الحديث: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾(٨).

وسابعها: المَوْعِظَة:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٩).

وثامنها: الحُكْم، والحِكْمَة، والحَكِيم، والمُحْكَم:﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾(١٠)، ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾(١١)، ﴿يس {١/٣٦} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾(١٢)،﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾(١٣).

---

(١) **سورة**: الزخرف، الآية رقم: ٣.

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٨٥ .

(٣) **سورة**: الفرقان، الآية رقم: ١ .

(٤) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ٥٠ .

(٥) **سورة**: الحاقة، الآية رقم: ٤٨ .

(٦) **سورة**: الذاريات، الآية رقم: ٥٥ .

(٧) **سورة**: الشعراء، الآية رقم: ١٩٢ .

(٨) **سورة**: الزمر، الآية رقم: ٢٣ .

(٩) **سورة**: يونس، الآية رقم: ٥٧ .

(١٠) **سورة**: الرعد، الآية رقم: ٣٧ .

(١١) **سورة**: القمر، الآية رقم: ٥.

(١٢) **سورة**: يس، الآية رقم: ١ -٢.

(١٣) **سورة**: هود، الآية رقم: ١.

وتاسعها: الشِّفَاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وعاشرها: الهُدَى، والهَادِي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2]،﴿قُرْآنًا عَجَبًا {١/٧٢} يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[3].

وذكروا له أسماء أُخَر منها :

الصِّرَاط المستقيم، والعِصْمَة، والرَّحْمَة، والرُّوح، والقَصَص، والبَيَان، والتِّبْيَان، والمُبِين، والبَصَائر، والفَصْلُ، والنُّجُوم، والمَثَانِي، والنّعْمَة، والبُرْهَان، والبَشِير، والنَّذِير، والقَيِّم، والمُهَيْمِن، والنور، والحق، والعزيز، والكريم، والعظيم، والمبارك.

قولُه تعالى: (**لاَ رَيْبَ فِيهِ**): يجوز أن يكون خبراً كما تقدّم بيانه.

وقال بعضُهم: هو خبرٌ بمعنى النّهي، أي: لا ترتابوا فيه **كقوله تعالى:** ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾.

أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا.

قرأ ابنُ كثير: (**فِيهِ**) بالإشباع في الوَصْلِ، وكذلك كلّ هاء كناية قبلها ساكن يشبعها وصلًا ما لم يَلِهَا ساكن، ثمّ إنْ كان السَّاكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياء، وإنْ كان غيرها يشبعها بالضمّ واوًا، ووافقه حفص في قوله: ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾ فأشبعه، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محلّ

نصبٍ على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة، و(**لا**): نافيةٌ للجنس محمولةٌ في العمل على نقيضها.

وقول الآخر: لاَ هَيْثَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِيِّ

وقولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: (**لا قُرَيْشَ بعد اليَوْمِ**)[4]، (**إذا هلك كِسْرَى، فلا كسرى بَعْدَه**)[5] فمؤوَّل.

---

(١) **سورة**: الإسراء، الآية رقم: ٨٢ .

(٢) **سورة**: الإسراء، الآية رقم: ٩ .

(٣) **سورة**: الجن، الآية رقم: ١- ٢ .

(٤) **الحديث**: رواه الإمام مسلم في صحيحه ج٣ ص١٤٠٥، من حديث أبي هريرة في قصة فتح مكة، وقول لا قريش بعد اليوم هو قول أبي سفيان: (أبيحت خضراء قريش يا رسول الله فلا قريش بعد اليوم).

(٥) **الحديث**: رواه البخاري ج٣ ص١١٣٥، رقم ٢٩٥٢، ومسلم ج٤ ص٢٢٣٧ رقم ٢٩١٨، والترمذي ج٤ ص٤٩٧ برقم ٢٢١٦ وقال: حسن صحيح.

و(رَيْبَ): اسمُها، وخبرها يجوز أن يكون الجارّ والمجرور، وهو: (فيه)، إلّا **أنّ بني تميم:** لا تكاد تذكر خبرها، **فالأولى** أن يكون محذوفًا تقديره: (**لا ريب كائن**)، ويكون الوَقْفُ على: ريب حينئذٍ تامًّا، وقد يحذف اسمُها ويبقى خبرُها، **قالوا:** لا عليك، أي: لا بأس عليك.

ومذهب سيبويه رَحِمَهُ اللهُ: أنها واسمها في مَحَلّ رفع بالابتداء، ولا عمل لها في الخبر.

ومذهب الأخفش: أنّ اسمها في مَحَلّ رفع، وهي عاملةٌ في الخبر، ولها أحكامٌ كثيرة، وتقسيمات منتشرة مذكورة في كتب النحو.

واعلمْ أنّ (لا): لفظ مُشْتَرَك بين النَّفي، وهي فيه على قسمين:

قسم تنفي فيه الجنس فتعمل عمل: (**إنَّ**) كما تقدم.

وقسم تنفي فيه الوحدة، وتعمل حينئذ عمل: (**ليس**).

ولها قسمٌ آخر: وهو النهي والدُّعاء، فتجزم فعلًا واحدًا، وقد تجيء زيادة كما تقدّم في **قوله:** ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1].

و(**الرَّيْب**): الشّك مع تهمة، قال في ذلك:

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ   إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الكَذُوبُ

وحقيقتُه على ما قال الزَّمخشري: قلق النفس واضطرابها، **ومنه الحديث:** (**دَعْ ما يُرِيبُكَ إلى ما يُرِيبك**)[2]، ومنه أنّه مَرّ بظبي خائف فقال: (**لاَ يُرِبهُ أَحَدٌ بشيء**)[3].

فليسَ قول مَن قال: الرَّيب الشّك مطلقًا بجيّد، بل هو أخصّ من الشَّك كما تقدم.

وقال بعضهم: في (**الرّيب**) ثلاثة معانٍ:

---

(١) **سورة**: الفاتحة، الآية رقم: ٧ .

(٢) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٣) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٤.

أحدها: الشّك، قال ابن الزِّبَعْرَى:

لَيْسَ فِي الحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ ....

وثانيها: التُّهْمَةُ، قال جميل بُثَيْنَةَ:

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي فَقُلْتُ: كِلاَنَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

وثالثها: الحاجات، قال الشاعر:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كلّ رَيْبٍ وَخَيْبَرَ ثمّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

قـال ابـنُ الخطيـب: الرّيـب قريـبٌ مـن الشـك، وفيه زيـادة، كأنه ظنّ سـوء، تقـول: رَابَني أمـر فلان إذا ظننت به سـوءًا.

فـإنْ قيـل: قـد يسـتعمل الرّيـب في قولهـم: (**ريـب الدهـر**) و(**ريـب الزمـان**) أي: حوادثـه، **قـال تعالى:**﴿نَّتَرَبَّص بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[١]، ويسـتعمل أيضًـا فيـما يختلـج في القلـب مـن أسـباب الغيـظ، **كقول الشـاعر :**

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كلّ رَيْبٍ

قلنـا: هـذان يرجعـان إلى معنـى الشـك، لأنّ مَـن يخـاف مِن ريـب المنون محتمـل، فهو كالمشـكوك فيه، وكذلـك مـا اختلج بالقلـب فهو غـيرُ متيقّن.

فقولُـه تعـالى: (لَا رَيْـبَ فِيـهِ) المـراد منـه: نفي كونـه مَظَنَّـةً للريب بوجه مـن الوجوه، والمقصـود أنّه لا شُـبْهَة في صحّتـه، ولا في كوْنـه مـن عنـد اللـه تعالى ولا في كوْنـه معجزًا.

ولـو قلـت: المـراد لا ريـب في كوْنه معجزًا عـلى الخصوص كان أقـرب لتأكيد هذا التأويـل **بقوله تعالى:**﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[٢] .

(١) **سورة:** الطور، الآية رقم: ٣٠.

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٢٣.

فإنْ قيل: لِمَ قال ها هنا: (**لَا رَيْبَ فِيهِ**)، وفي موضع آخر:﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[1]، **قلنا:** لأنهم يقدّمون الأهمّ، وها هنا الأهمّ نفي الريب بالكليّة عن الكتاب.

ولو قلت: (لا فيه ريب): لأَوْهَمَ أن هناك كتابًا آخر حصل فيه الريب لا ها هنا، كما قصد في قوله تعالى (**لَا فِيهَا غَوْلٌ**) تفضيل خمر الجنّة على خمر الدنيا، بأنها لا تَغْتَال العقول كما تغتالها خمر الدّنيا.

فإنْ قيل: من أين يدلّ قوله: (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) على نفي الريب بالكلية؟ قلنا القراءة المشهورة توجب ارتفاعَ الرّيب بالكلية، والدّليل عليه **أن قوله:** (**لا ريب**) نفي لماهيّة الريب، ونفي الماهية يقتضي نفي كلّ فرد من أفراد الماهية؛ لأنّه لو ثبت فرد من أفراد الماهيّة لثبتت الماهية، وذلك مُنَاقض نفي الماهية، ولهذا السّر كان قولنا: (**لا إله إلّا الله**) نفيًا لجميع الآلهة سوى الله تعالى.

وقرأ أبو الشّعثاء: (**لَا رَيْبُ فِيهِ**) بالرفع، وهو نقيض لقولنا: (**ريب فيه**)، وهذا يفيد ثبوت فرد واحدٍ، وذلك النفي يوجب انتفاء جميع الأفراد، فيتحقّق التناقض، والوقف على (**فيه**) هو المشهور.

وعن نافع وعاصم: أنهما وَقَفَا على: (**ريب**)، ولا بدّ للواقف من أن ينوي خبرًا، ونظيرُه **قوله تعالى:** ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾[2]، **وقول العرب:** (**لا بأس**).

واعلمْ أنّ المُلحدة طعنوا فيه، وقالوا: إن عني أنّه لا شَكّ فيه عندنا، فنحن قد نشك فيه، وإن عني أنّه لا شكّ فيه عنده فلا فائدة فيه.

الجواب: المراد أنّه بلغ في الوضوح إلى حيث لا ينبغي لمرتاب أن يرتاب فيه، والأمر كذلك؛ لأنّ العرب مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أَقْصَرِ سورة من القرآن، وذلك يشهد بأنه لقيت هذه الحُجَّة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه.

---

(١) **سورة:** الصافات، الآية رقم: ٤٧.

(٢) **سورة:** الشعراء، الآية رقم: ٥٠.

وقيل: في الجواب وجوهٌ أُخر:

أحدهـا: أنّ النفـي كوْنـه متعلقًـا للريـب، **المعنـى:** أنّـه منعـه من الدلالـة، مـا إن تأمله المُنْصِـف المحقّ لم يرتـب فيـه، ولا اعتبـار بمَـن وجـدَ فيـه الريـب؛ لأنّـه لم ينظـر فيه حَـقّ النظـر، فريبُه غير معتـدّ به.

والثّاني: أنّه مخصوص، **والمعنى:** لا ريب فيه عند المؤمنين.

والثّالث: أنّه خبرٌ معناه النهي، أي لا ترتابوا فيه، **والأول أحسن.**

قولُه تعالى: (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**): يجوز فيه عدّة أوجه:

أحدها: أن يكون مبتدأ، وخبره فيه متقدمًا عليه، إذا قلنا: إن خبر (**لا**): محذوف.

وإنْ قلنـا: (فيـه): خبرهـا، كان خـبره محذوفًـا مدلـولًا عليـه بخـبر: (**لا**)، تقديره: لا ريب فيـه، فيه هدى، وأن يكـون خـبر مبتـدأ مُضمـر تقديـره: هـو هدى، وأن يكون خـبرًا ثانيًا لــ (**ذلك**)، **على أن يكـون** (**الكتاب**): صفـةً أو بـدلًا، أو بيانًـا، و(**لا ريـب**): خبر أول، وأن يكـون: خبرًا ثالثًا لـ (**ذلك**)، **على أن يكـون** (**الكتاب**): خبرًا أول، و(**لا ريـب**): خـبرًا ثانيًـا، **وأن يكـون:** منصوبًـا عـلى الحـال مـن (**ذلـك**)، أو مـن (**الكتـاب**)، والعامل فيه عـلى كلا التقديريـن: اسـم الإشـارة، **وأن يكـون** حـالًا مـن الضّمير في: (**فيـه**)، **والعامـل:** ما في الجَـارِّ والمجرور مـن معنـى الفعْـل، وجعلـه حـالًا مـمّا تقـدّم: إمّـا عـلى المُبَالغـة، كأنه نفـس الهُـدَى، أو على حـذف مضاف، أي: (ذا هُـدَى)، أو عـلى وقـوع المصـدر موقـعَ اسـم الفاعـل، وهكـذا كلّ مصدر وقـع خبرًا، أو صفـة، أو حالًا فيـه الأقـوال الثلاثـة، **وأرجحُهـا الأول، وأجـازوا أنْ:** يكـون (**فيـه**): صفـةً لــ (**ريـب**)، فيتعلّق بمحـذوف، وأن يكـون متعلقًـا بــ (**ريـب**)، وفيـه إشـكال؛ لأنّـه يصـير مطـولًا، واسـم (**لا**): إذا كان مطـولًا أعـرب إلّا أن يكون مُرَادُهـم أنّـه معمـول لـَما عليـه (**ريـب**)، لا لنفـس (**ريـب**)، وقـد تقـدّم معنـى الهـدى، عنـد **قولـه تبـارك وتعـالى:** ﴿اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُسـتَقِيمَ﴾[1].

(١) **سورة:** الفاتحة، الآية رقم: ٦.

و(**هُـدّى**): مصدر عـلى وزن فُعَـل، **فقالـوا:** ولم يجـيء مـن هـذا الـوزن في المَصَـادر إلّا (سُرّى)، (بُـكّى)، (هُـدّى)، وجـاء غيرهـا، وهـو: (لَقِيتُـهُ لُقًـى)، **قـال الشّـاعر:**

وَقَدْ زَعَمُوا حُلُمًا لُقَاكَ وَلَمْ أَزِدْ   بحَمْدِ الَّذي أَعْطَاكَ حِلمًا وَلاَ عَقْلا

والهدى فيه لغتان: التّذكير، ولم يذكر **اللّحْياني** غيره.

وقال الفراء: بعض بني أسد يؤنثه، **فيقولون:** هذه هدى.

و(**في**): معناهـا الظرفيـة حقيقـةً أو مجـازًا، **نحـو:** (زيـد في الـدار)، ﴿وَلَكُـمْ فِـي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ﴾[١] ولها معـان آخر:

المصاحبـة: نحـو: ﴿ ادْخُلُـواْ فِـي أُمَـمٍ﴾[٢]، **والتعليـل:** (**إنّ امـرأة النّـارِ في هِـرَّةٍ**)[٣]، **وموافقـة (عـلى):** ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فِـي جُـذوعِ النَّخْـلِ﴾[٤] أي: عـلى جـذوع، **والبـاء:** ﴿يَذْرَؤُكُـمْ فِيـهِ﴾[٥] أي: بسـببه.

والمقايسـة نحـو قولـه تعـالى: ﴿فَمَـا مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا فِـي الآخِـرَةِ إِلاَّ قَلِيـلٌ﴾[٦]، و(**الهـاء**): في: (**فيـه**): أصلهـا الضـمّ كـما تقـدّم مـن أن: (**هـاء**) الكنايـة أصلهـا: الضـمّ، فـإنْ تقدّمهـا يـاء سـاكنة، أو كـسرة كسرهـا غـير الحجازيّـين، **وقـد قـرأ حمـزة:** ﴿لِأَهْلِـهِ امْكُثُـوا﴾[٧] **وحفـص في:** ﴿بِمَـا عَاهَـدَ عَلَيْـهُ اللـهَ﴾[٨]، ﴿وَمَـا أَنسَـانِيهُ إِلَّا﴾[٩] بلغـه أهـل الحِجَـاز، والمشـهور فيهـا: إذا لم يلهـا سـاكن

---

(١) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٧٩.

(٢) **سورة:** الأعراف، الآية رقم: ٣٨.

(٣) **الحديث:** رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم ٣١٤٠، ومسلم في صحيحه في كتاب التوبة برقم ٢٦١٩.

(٤) **سورة:** طه، الآية رقم: ٧١.

(٥) **سورة:** الشورى، الآية رقم: ١١.

(٦) **سورة:** التوبة، الآية رقم: ٣٨ .

(٧) **سورة:** طه، الآية رقم: ١٠.

(٨) **سورة:** الفتح، الآية رقم: ١٠.

(٩) **سورة:** الكهف، الآية رقم: ٣٨.

وسكن ما قبلها **نحو:** (**فيه**) و (**منه**) الاختلاس، ويجوز الإِشْبَاع، وبه قرأ ابن كثير، فإن تحرّك ما قبلها أُشْبِعَتْ، وقد تختلس وتسكن، وقرئ ببعض ذلك كما سيأتي مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

و(**للمتقين**): جارّ ومجرور متعلّق بـ (**هدى**).

وقيل: صفة لـ (**هدى**)، فيتعلّق بمحذوف، **ومحلّه حينئذ:** إمّا الرفع أو النصب بحسب ما تقدّم في موصوفه، أي هدى كائن أو كائنًا للمتقين.

والحسن من هذه الوجوه المتقدّمة كلّها: أنْ تكون كلّ جملةٍ مستقلّة بنفسها، فـ (**الم**): جملة **إن قيل**: إنها خبر مبتدأ مُضمر، و(**ذلك الكتاب**): جُملة، و(**لا ريب**): جملة، و(**فيه هدى**) جملة، وإنّما ترك العاطف لشدّة الوصل؛ لأنّ كلّ جُملة متعلّقة بما قبلها آخذة بعنقها تعلقًا لا يجوز معه الفصل بالعطف.

قال الزّمخشري: وقد أصيب بترتيبها مفصّل البلاغة حيث جيء بها مُتَنَاسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها مُتَتَابعة بعضها بعنق بعض، والثانية متّحدة بالأولى، وهلمّ جَرًّا إلى الثالثة والرابعة.

بيانُه: أنّه نبّه أولاً على أنّه الكلام المتحدّي به، ثمّ أشير إليه بأنه الكتاب المَنْعُوت بنهاية الكَمَال، فكان تقريرًا لجهة التحدّي، ثمّ نفى عنه أنْ يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة بكماله.

ثمّ أخبر عنه بأنّه: (**هدى للمتقين**)، فقرّر بذلك كونه يقينًا، لا يحوم الشّك حوله، ثمّ لم تَخْلُ كلّ واحدة من هذه الأربع بعد أن رتّبت هذه الترتيب الأنيق (من) نُكْتَةٍ ذات جَزَالة:

ففي الأولى: الحذف، والرّمز إلى الغرض بألطف وجه.

وفي الثانية: ما في التعريف من الفَخَامة.

وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظّرف.

وفي الرابعة: الحذف، ووضع المصدر الذي هو: (**هدى**) موضع الوصف الذي هو (**هاد**)، وإيراده منكرًا.

(المتقين): جمع (**مُتَّقٍ**)، **وأصله:** مُتَّقِيينَ بياءينِ، **الأولى:** لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى فحذفت، فالتقى ساكنان، فَحذف إحداهما وهي الأولى.

و(متقٍ): من اتقى يتّقي: وهو مُفْتَعِل الوِقَايَةِ، إلّا أنّه يطّرد في الواو والياء إلّا إذا كانتا فاءين، ووقعت بعدهما (تاء) الافتعال أنْ يبدلا (**تاء**) نحو: (**اتَّعَظ**) من الوَعْظ، و(**اتَّسَر**) من اليُسْرِ، وَفِعْلُ ذلك بالهمزة شاذّ، **قالوا:** (**اتَّزَرَ**) و(**اتَّكَلَ**) من الإِزَارِ، والأَكْلِ.

ولـ (**افتعل**) اثنا عشر معنى: **الاتِّخَاذ نحو:** (اتقى)، **والتسبب نحو:** (اعمل)، **وفعل الفاعل بنفسه نحو:** (اضطرب)، **والتخير نحو:** (انتخب)، **والخطف نحو:** (استلب)، **ومطاوعة أَفْعَلَ نحو:** (انتصف)، **ومطاوعة فَعَّلَ نحو:** (عمّمته فاعتمّ)، **وموافقة تَفَاعَلَ، وتَفَعَّلَ، واسْتَفْعَلَ نحو:** (احتور واقتسم واعتصم)، بمعنى تحاور وتقَسَّم واستعصم، **وموافقة المجرد، نحو:** اقتدر، بمعنى: قَدَرَ، **والإغناء عنه نحو:** (اسْتَلَم الحجر)، لم يُلْفَظْ له بمجرد.

و(الوقاية): فرط الصّيانة، وشدّة الاحتراس من المكروه، ومنه (فرس وَاقٍ): إذا كان يقي حافِرهُ أدنى شيء يصيبه.

وقيل: هي في أصل اللّغة قلّة الكلام، وفي الحديث: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ).

ومن الصيانة قوله:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتَا بِاليَدِ

وقال آخر:

فَأَلْقَتْ قِنَاعًا دُونَهُ الشَّمْسَ واتَّقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْصُولَيْنِ كَفٍّ وَمِعْصَمِ

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ: الهدى في القرآن بإزاء ثلاثة عشر معنى:

الأوّل: بمعنـى **البَيَـان، قـال تعالى:**﴿أُوْلَئِـكَ عَلَـى هُـدًى مِّـن رَّبِّهِـمْ﴾(١) أي: عـلى بيـان، ومثلـه، ﴿ وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾(٢) أي: لتبـين، وقولـه تبـارك وتعالى:﴿وَأَمَّـا ثَمُـودُ فَهَدَيْنَاهُـمْ فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمَـى عَلَـى الْهُـدَى﴾(٣) أي: بَيَّنَّـا لهـم.

الثـاني: الهُـدَى: بمعنـى ديـن الإسـلام، **قـال تعالى:** ﴿قُـلْ إِنَّ هُدَى الـلـهِ هُـوَ الْهُـدَى﴾(٤) أي: ديـن الحقّ هـو ديـن اللـه، **وقولـه تعـالى:** ﴿إِنَّكَ لَعَلَـى هُـدًى مُّسْـتَقِيمٍ﴾(٥)أي: ديـن الحق.

الثالـث: بمعنـى **المَعْرِفَـة قـال تعالى:**﴿وَبِالنَّجْمِ هُـمْ يَهْتَدُونَ﴾(٦) أي: يعرفـون، **وقوله تعالى**: ﴿قَـالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَـهَا نَنظُـرْ أَتَهْتَـدِي أَمْ تَكُـونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَـدُونَ ﴾(٧) أي: أتعرف.

الرابع: بمعنى **الرسول قال تعالى:** ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾(٨) أي: رسول.

الخامـس: بمعنـى **الرشـاد قـال تعـالى:** ﴿وَاهْدِنَـا إِلَـى سَـوَاء الصِّـرَاطِ﴾(٩) أي أرشـدنا، **وقولـه سـبحانه:** ﴿عَسَـى رَبِّـي أَن يَهْدِيَنِـي سَـوَاء السَّـبِيلِ﴾(١٠)، **وقولـه تعـالى**: ﴿اهدِنَـا الصِّـرَاطَ﴾(١١).

السادس: بمعنى: **القرآن قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾(١٢)أي: القرآن.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٥.

(٢) **سورة**: الشورى، الآية رقم: ٥٢.

(٣) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ١٧.

(٤) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ٧٢.

(٥) **سورة**: الحج، الآية رقم: ٦٧.

(٦) **سورة**: النحل، الآية رقم: ١٦.

(٧) **سورة**: النمل، الآية رقم: ٤١ ..

(٨) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٣٨.

(٩) **سورة**: ص، الآية رقم: ٢٢.

(١٠) **سورة**: القصص، الآية رقم: ٢٢.

(١١) **سورة**: الفاتحة، الآية رقم: ٦.

(١٢) **سورة**: النجم، الآية رقم: ٢٣.

السابع: بمعنى: **بعثة النبي** ﷺ، **قال تعالى:** ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

الثامن: بمعنى: **شرح الصدور**، **قال تعالى:**﴿فَمَن يُرِدِ اللـهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾[٢]

التاسع: **التوراة**، **قال تبارك وتعالى:**﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾[٣]، يعني: التوراة.

العاشر: **الجنة**، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[٤] أي: يدخلهم الجنة.

الحادي عشر: **حج البيت**، **قال تعالى:**﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٥] **أي:** الحج.

الثاني عشر: **الصلاح**، **قال تعالى:** ﴿وَأَنَّ اللـهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٦] **أي:** لا يصلح.

الثالث عشر: **التوبة**، **قال تعالى:** ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[٧] **أي:** تُبنَا ورجعنا.

فصل في المقصود بالهدى

قال ابن الخطيب: الهُدَى عبارة عن الدلالة.

وقال صاحب الكشاف: الهدى هو الدلالة الموصّلة للبغية.

وقال آخرون: الهدى هو: الاهتداء والعلم والدليل على صحّة الأوّل أنّه لو كان كونه الدلالة موصلة إلى البغية معتبراً في مسمّى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛

---

(١) **سورة:** الشورى، الآية رقم: ٥٢.

(٢) **سورة:** الأنعام، الآية رقم: ١٢٥.

(٣) **سورة:** غافر، الآية رقم: ٥٣ .

(٤) **سورة:** يونس، الآية رقم: ٩ .

(٥) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ٩٦ .

(٦) **سورة:** يوسف، الآية رقم: ٥٢ .

(٧) **سورة:** الأعراف، الآية رقم: ١٥٦.

لأنّ كـون الدلالـة موصلـة إلى الاهتـداء حـال عـدم الاهتـداء مُحَـال، وقـد ثبـت الهـدى عـلى عـدم حـال الاهتـداء، **قـال الله تعـالى:** ﴿وَأَمَّـا ثَمُـودُ فَهَدَيْنَاهُـمْ فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمَـى عَلَـى الْهُـدَى﴾[١] فأثبـت الهـدى مـع عـدم الاهتـداء، واحتـج صاحـب الكشّـاف بأمـور ثلاثـة:

والجـواب عـن الثالـث: أنّ الائتـمار مُطَـاع الأمـر، **يقـال:** أمرتـه فائتمر، ولم يلـزم منه أن يكـون من شرط كوْنـه أمـرًا حصـول الائتـمار، وكـذا لا يلـزم مـن كوْنـه هذه أن يكـون مفضيًـا إلى الاهتـداء، على أنّـه معارض بقولـه: هديته فلـم يهتد.

ومـمّا يـدلّ عـلى فسـاد قول مَـن قال: الهدى هـو العلم خاصّـة أنّ الله تعـالى وصف القـرآن بأنه هدى، ولا شـّك أنّـه في نفسـه ليـس بعلـم، فدلّ على أنّ الهـدى هو الدلالة لا الاهتـداء والعلم.

فصل في اشتقاق المتقي

والمتّقي في اللغةِ: اسمُ فاعل من **قوْلهم:** وقاه فاتَّقى، والوقاية: فرط الصيانة.

قـال ابـنُ عبـاس رَضِيَ اللـهُ عَنْهـما: التّقـيّ: مَـن يتقـي الـّشْرك والكبائـر والفواحـش، وهـو مأخـوذ مـن الاتقـاء، وأصلـه: الحجـز بـين شـيئين.

وفي الحديـث: (**كان إذا احمَـرَّ البـأسُ اتَّقينـا برسـول اللـه ﷺ**)[٢]، أي: إذا اشـتدّ الحَـرْبُ جعلنـاه بيننـا وبـين العـدو، فـكأن المتقـي جعـل الامتثـال لأمـر اللـه، والاجتناب عـما نَهَـاهُ حاجـزًا بينه وبـين العذاب.

وقـال عمـر بـن الخَطّـاب لكعـب الأحبـار: (حدّثني عـن التقوى، فقـال: هل أخـذت طريقًا ذا شَـوْكٍ؟ قـال: نعـم، قـال: فـما عملت فيـه؟ قال: حـذرت وشَـمّرت، قال كعـب: ذلك التَّقـوى)[٣].

(١) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ١٧.

(٢) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٤٥

(٣)**الحديث**: سبق تخريجه في ص ٣٠.

وقال عمر بن عبد العزيز: (التقوى تَرْكُ ما حَرَّمَ الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير)[١].

وقال ابن عمر: (التَّقوَى ألّا ترى نفسك خيراً من أحد)[٢].

إذا عرفت هذا فنقول: إنّ الله تعالى ذكرَ المتقي ها هنا في معرض المدح، وأن يكون ذلك: بأنْ يكون متقيًا فيما يتّصل بالدّين، وذلك بأن يكون آتيًا بالعبادات، محترزًا عن المحظورات، واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصّغائر في التقوى؟

فقال بعضُهم: يدخل كما تدخل الصّغائر في الوعيد.

وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة عن الكُلّ، إنما النزاع في أنّه إذا لم يتوقّ الصّغائر هل يستحقّ هذا الاسم؟ فروي عنه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام، أنّه **قال: (لا يَبْلُغُ العَبْدُ درجة المتّقين حتى يَدَعَ ما لا بَأسَ به حَذَرًا مّما به بَأسُ)**[٣]، وعن **ابن عباس** رضي الله تعالى عنهما: أنّهم الذين يَحْذَرُون من الله العُقُوبَة في تَرْكِ ما يميل الهَوَى إليهن، ويرجون رحمته بالتَّصديق بما جاء منه.

واعلم أنّ حقيقة التقوى: وإنْ كانت هي التي ذكرناها إلّا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلي منها الإيمان.

تارة الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٤] أي: التوحيد ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[٥]، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[٦] أي: لا يؤمنون.

---

(١) **الأثر:** سبق تخريجه في ص ٣١.

(٢) **الأثر:** أورده البغوي في تفسيره، ج١ ص٦٠.

(٣) **الحديث:** رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم ٢٤٥١، وفي مسند عبد بن حميد برقم ٤٩٢، ورواه أحمد من حديث أنس والخطيب من حديث ابن عمر والطبراني في الكبير من حديث رابعة بن معبد.

(٤) **سورة:** الفتح، الآية رقم: ٢٦.

(٥) **سورة:** الحجرات، الآية رقم: ٣.

(٦) **سورة:** الشعراء، الآية رقم: ١١.

وتـارة: التوبـة كقولـه تبـارك وتعالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـواْ وَاتَّقَـواْ ﴾[1]،﴿وَأَنَا رَبُّكُـمْ فَاتَّقُونِ ﴾[2].

وتارة: ترك المعصية كقوله تعالى:﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللـهَ﴾[3] أي: فلا تعصوه.

وتارة: الإخلاص كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[4] أي: من إخلاص القلوب.

وهاهنا سؤالات:

السّؤال الأوّل: كـوْن الـشّيء هُـدى ودليـلًا لا يختلف بحسـب شـخص دون شـخص، فلماذا جعـل القرآن هـدى للمتَّقـين فقـط؟ وأيضًـا فالمتقـي مهتـدٍ؟ والمهتدي لا يهتـدي ثانيًا، والقـرآن لا يكون هـدى للمتقين؟

والجـواب: أنّ القـرآن كـما أنّـه هـدى للمتقين، ودلالـة لهم على وجـود الصانع، وعلى صدق رسـوله؛ فهو أيضًـا دلالـة للكافريـن، إلّا أن اللـه تبـارك وتعـالى ذكر المتقين مدحـاً ليبين أنهم هـم الذين اهتـدوا، وانتفعوا بـه كـما قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا أَنتَ مُنـذِرُ مَن يَخْشَـاهَا ﴾[5]، وقـال: ﴿إِنَّمَا تُنـذِرُ مَنِ اتَّبَـعَ الذِّكْـرَ﴾[6]، وقد كان عَلَيْـهِ الصَّلَاة وَالسَّـلَام منـذرًا لـكلّ النـاس، فذكـر هـؤلاء الناس لأجـل أنّ هـؤلاء هُمُ الذيـن انتفعـوا بإنذاره، وأمّـا مَـن فـسّر الهُـدَى بالدّلالـة الموصلـة إلى المقصـود، فهذا السـؤال زائـلٌ عنـه؛ لأنّ كونه القـرآن موصلًا إلى المقصـود ليـس إلّا في حـّق المتقين.

السّـؤال الثـاني: كيـف وصـف القـرآن كلّـه بأنّـه هـدى، وفيـه مجمـل ومتشـابه كثـير، ولـولا دلالـة العقـل لمـا تميّـز المُحْكـم عـن المُتَشَـابه، فيكـون الهـدى في الحقيقـة هـو الدّلالـة العقليـة لا القـرآن؟ ونقـل

---

(١) **سورة:** الأعراف، الآية رقم: ٩٦.

(٢) **سورة:** المؤمنون، الآية رقم: ٥٢.

(٣) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٨٩.

(٤) **سورة:** الحج، الآية رقم: ٣٢.

(٥) **سورة:** النازعات، الآية رقم: ٤٥.

(٦) **سورة:** يس، الآية رقم: ١١.

عـن **عـلي** بـن أبي طالـب أنّـه قـال **لابـن عباس** حـين بعثـه رسـولًا إلى الخـوارج: لا تَحْتَجَّ عليهـم بالقـرآن، فإنه خَصْـمٌ ذو وجهـين، ولـو كان هـدى لما قـال **عـلي** بـن أبي طالـب- رَضِيَ اللـهُ عَنْـه- ذلك فيـه، ولأنّا نـرى جميع فـرق الإسـلام يحتجّـون بـه، ونـرى القـرآن مملوءًا من آيـات بعضها صريـح في الجبر، وبعضها صريـح في القدر، فـلا يمكـن التوفيـق بينهما إلّا بالتعسُّـف الشـديد، فكيف يكـون هدى؟

الجـواب: أنّ ذلـك المُتَشَـابه والمُجْمَـل لمّـا لمْ ينفـك عـمّا هـو المـراد عـلى التعيين، وهـو إمّا دلالـة العقل، أو دلالـة السـمع؛ صـار كلـه هُدًى.

السّـؤال الثّالـث: كلّ مـا يتوقَّـف كـوْن القـرآن حُجّة عـلى صحّته لم يكن القـرآن هدى فيه، فإذا اسـتحال كـوْن القـرآن هـدى في معرفـة ذات اللـه تعالى وصفاتـه، وفي معرفة النبوة، فلا شَـكَّ أنّ هـذه المَطَالب أشرفُ المطالـب، فـإذا لم يكـنِ القـرآن هـدى فيها، فكيـف جعله الله هدى عـلى الإطلاق؟

الجـواب: ليـس مـن شرط كوْنـه هـدى أن يكـون هـدًى في كلّ شيء، بـل يكفـي فيـه أن يكـون هـدى في بعـض الأشـياء، وذلـك بـأنْ يكـون هـدًى في تعريـف الشَّرَائع، أو يكـون هدًى في تأكيـد ما في العقـول، وهذه الآيـة مـن أَقْـوَى الدّلائـل عـلى أن المُطْلـق لا يقتـضي العمـوم، فـإنّ اللـه تعـالى وصفـة بكونـه هُـدًى من غير تقييـد في اللَّفـظ، مـع أنّـه يسـتحيل أن يكـون هـدًى في إثبـات الصَّانـع، وصفاتـه، وإثبـات النبـوة، فثبت أنّ المطلـق لا يفيـد العموم.

السّـؤال الرابـع: الهُـدَى هـو الـذي بلغ في البيـان والوضوح إلى حيث بـيّن غيره، والقرآن ليـس كذلك، فإنّ المفسّريـن مـا ذكـروا آيـة إلّا وذكـروا فيهـا أقوالًا كثـيرة متعارضـة، ويؤيّد هذا قـوله: ﴿لِتُبَيِّـنَ لِلنَّاسِ مَـا نُزِّلَ إِلَيْهِـمْ﴾[1]، ومـا يكـون كذلـك لا يكـون مبينًا في نفسـه، فضلًا عـن أن يكون مبينًا لغيره، فكيـف يكون هدى؟

الجـواب: قلنـا: مَـن تكلّـم في التفسـير بحيث يورد الأقـوالَ المُتعارضـة، ولا يرجّح واحدًا منهـا على الباقي يتوجّـه عليـه السـؤال، وأمّـا مَن رجح واحـدًا على البواقـي فلا يتوجّه عليه السـؤال.

(١) **سورة**: النحل، الآية رقم: ٤٤.

(٢٥)

وجاء في نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: حاشية السّيوطي على تفسير البيضاوي[١] لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السّيوطي رحمه الله (٩١١هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله: (**ذلك**): إشارة إلى (**الم**) إلى آخره، **حاصله أنه**: ردّد بين كونه: إشارة إلى (**الم**) أو إلى (**الكتاب**) الموعود به، فتكون (**اللام**) في الكتاب للعهد الذهني.

والتّحقيق: أنّه إشارةٌ إلى الكتاب الحاضر، واللام للعهد الحضوري.

قال ابنُ عصفور: كلّ (**لام**) واقعةٌ بعد اسم الإشارة، أو (أيِّ) في النداء، أو (**إذا**) الفجائية فهي للعهد الحضوري.

جاءت العبارة في الكشاف: أنّه وقعت الإشارة إلى (الم).

قال الشيخ أكمل الدين: وفيه بحث؛ لأنّ المراد بـ (**الكتاب**): هو القرآن، وحينئذ، على كلّ حال لا تصحّ الإشارة إلى (**الم**)، وإنّ فسر بالسورة؛ لأنّه جزءٌ من القرآن، والجزء لا يكون الكلّ، ولا مجازًا عنه؛ لأنّه ليس ملزومًا للكل، والمجاز ذكر الملزوم وإرادة اللازم، وإذا كان المشار إليه هو الموعود في الكتب المتقدّمة لا يجوز أن يقع (**ذلك الكتاب**) خبرًا عن (الم)؛ لأنّ الموعود هو القرآن كله، لا (**الم**).

وأمّا إذا كان الموعود هو: النبي ﷺ فيجوز أن يكون المراد **بقوله:**﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢] ويكون الكتاب عبارة عن هذه السورة، كذا **قيل**.

---

(١) الإمام البيضاوي: سبقت ترجمته في ص٧٨.

(٢) سورة: المزمل، الآية رقم: ٥

قـال: ويمكـن أن **يقـال**: الكتـاب مفهـوم بسـيط يشـترك جـزؤه وكله في الاسـم والرسـم كالمـاء، والدليل عـلى ذلـك إجـماع العلـماء عـلى إطـلاق الكتاب عـلى آية يثبـت بها حكـم شرعـي، **كقولهم:** فـرض الوضوء ثابـت بالكتـاب، وهـو **قولـه تعالى:**﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ إِذَا قُمْتُـمْ إِلَـى الصَّـلاةِ ﴾[1]، في حكـم المتباعـد، وهـذا في كلّ كلام، يحـدّث الرجـل بحديـث، ثـمّ **يقـول:** ذلـك مـمّا لا شـكّ فيـه، ويحسـب الحاسـب، ثـمّ **يقـول:** فذلـك كـذا وكـذا، **قال الله تعـالى:** ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْـنَ ذَلِكَ﴾[2]، **وقال سـبحانه:** ﴿ذَلِكُمَا مِمَّـا عَلَّمَنِـي رَبِّـي﴾[3]، ولأنّـه لمّـا وصل من المرسـل إلى المرسـل إليه وقـع في حدّ البعد، كـما **تقول** لصاحبك وقـد أعطيتـه شـيئًا: احتفـظْ بذلـك، **وقيـل:** معنـاه: ذلك الكتـاب الذي وعـدوا به.

قال الطّيبي: وأحسنُ ما قيل في توجيه الإشارة إليه بصيغة البُعد، ما ذكره صاحب (المفتاح) **قال:**

(**ذلك الكتاب**) ذهابًا إلى بعده درجة.

وقـال الإمـام: إنّ القـرآن لمّا اشـتمل على حكَـمٍ عظيمة، وعلوم كثـيرة يتعسّر اطّلاع القـوة البشرية عليها بأسرهـا، فهـو وإن كان حـاضرًا نظـرًا إلى صورتـه، غائبًـا نظـرًا إلى أسراره وحقائقـه، فجـاز أنْ يشـار إليـه كـما يشـار إلى البعيـد الغائب.

قولُـه: وتذكـيره متـى أريـد بــ (الم) السّـورة، لتذكـير (**الكتـاب**) فإنـه خـبره، جـواب سـؤال مقـدر، تقديـره كـما أفصـح بـه في **الكشــاف:** لم ذَكَّـرَ اسـم الإشـارة، والمشـار إليـه مؤنـث، وهـو السـورة؟ وحاصـل الجـواب تخريجـه عـلى القاعـدة المعروفـة: إذا توسّـط الضمـير أو الإشـارة بـين مبتـدأ وخـبر، أحدهـما مذكـر، والآخـر مؤنّـث جـاز في الضمـير والإشـارة التذكـير والتأنيـث، مراعـاة لهـذا ولهـذا،

---

(١) سورة: المائدة، الآية رقم: ٦.

(٢) سورة: البقرة، الآية رقم: ٦٨.

(٣) سورة: يوسف، الآية رقم:٣٧.

وفي هـذا تسـليم السّـؤال، **والإمـام** منعـه مـن أصلـه، فقال: لا نسـلم أنّ المشـار إليـه مؤنـث؛ لأنّ المؤنث إمّا المسـّمى، أو الاسـم، والأوّل باطـل؛ لأنّ المسـمى: هـو ذلك البعض من القـرآن، وهو ليس بمؤنث، وأمّا الاسـم: فهـو (**الم**) وليـس بمؤنـث، نعم ذلك المسـمّى له اسـمٌ آخر، وهو السّـورة، وهو مؤنث، وليسـت الإشـارة إليه، بـل إلى الاسـم الآخر، وهـو (**الم**) الـذي ليس بمؤنث.

وقـال الشّـيخ أكمـل الديـن: قولـه: إنّ المشـار إليـه مؤنـث فيـه نظـر؛ لأنّ المشـار إليـه (**الم**) وهـو اسـم للسّـورة، أو هـو الموعـود للأمـم السـالفة، ولا شيء منهـما بمؤنـث.

قـال الرّاغـب: الكتـب ضـمّ أديـم إلى أديـم بالخياطـة، وفي التعـارف ضـمّ الحـروف بعضهـا إلى بعـض في الخـطّ، **وقـد يقـال** ذلـك للمضمـوم بعضهـا إلى بعـض في اللفظ، ولهذا سـمّي كتـاب الله وإن لم يكتـب كتابًا.

قولُه: (لَا رَيْبَ فِيهِ) معناه: أنّه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل.. إلى آخره.

قـال الطّيبـي: يعنـي مـا نفـى الرّيـب بحيـث ينتفـي بـه المرتابـون، وإنّمـا نفـى بطريـق يرشـد إلى أنّه لا ينبغـي لمُرتـاب أنْ يرتـاب فيـه، فـإذن الـكلام مـع المرتابين، ويـدلّ عليـه أيضًا تصديـر الكلام بأسـامي حروف التهجّـي، لأنّهـا كالتنبيـه وقـرع العصـا لهـم، **كأنّـه قيـل**: أيهـا المرتابـون تنبّهـوا مـن رقـدة الجهالـة، واعْلمـوا أنّ القـرآن مـن وضـوح الدّلالـة وسـطوع البرهـان بحيـث لا ينبغـي لمرتـاب أن يقـع فيـه، فينطبـق على هذا استشـهادهـ **بقولـه:** ﴿وَإِن كُنتُـمْ فِـي رَيْـبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَـا عَلَى عَبْدِنَا﴾[1]، وتفسـيره حتى إذا عجـزوا عنها تحقق لهـم أن ليـس فيـه مجال للشـبهة.

قوله: (فإنه ما أبعد عنهم الريب) إلى آخره.

قـال الطّيبـي: أي خاطـب المُصِريـن عـلى الريـب الجازمـين فيـه بمـا يـدلّ عـلى خلوهـم عنـه، ولم يقصـد بـه أنّهـم غـير مُرتابـين، وإنّمـا قصـد بـه إرشـادهم وتعريفهـم الطريـق إلى مزيـل الرّيـب عـلى

---

(١) سورة: البقرة، الآية رقم:٢٣.

سبيل الاستدراج، يعني أنّ الارتياب من العاقل في مثل هذا المقام واجب الانتفاء، فلا يفرض إلّا كما يفرض المحالات، وأنتم عقلاء ألِبَاء تفكّروا فيه، وجرّبوا نفوسكم، وانظروا هل تجدون فيه مجالًا للريب.

قولُه: و(**هدى**) حالٌ من الضمير المجرور، والعامل فيه الظرف.

قال أبو حيان: هذا مشكل؛ لأنّ الحال تقييد، فيكون انتفاء الرّيب مقيدًا بالحال، أي لا ريب يستقر فيه في حال كوْنه هدى للمتقين، لكن يزيل الإشكال أنها حال لازمة.

قولُه: (سمّي به الشّك)، ظاهره ترادفهما، وليس كذلك، بل الريب أخص.

قال بعضهم: الرّيب شكّ مع تهمة.

وقال الإمام: الرّيبُ قريب من الشّك، وفيه زيادة كأنه ظنّ سوء.

وقال الرّاغب: الفرق بين الشكّ والمرية والريب أنّ الشّك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجّح أحدهما على الآخر بأمارة، والمرية التردّدُ في المتقابلين وطلب الأمارة، مأخوذ من مَرى الضَّرْعَ، أي مسحه للدر، فكأنَّه يحصل مع الشكّ تردّد في طلب ما يقتضي غلبة الظن، والريب أنْ يتوهّم في الشيء أمرٌ ما، ثمّ ينكشف عمّا توهّم فيه.

وقال الخويي: الشكّ لما استوى فيه الاعتقادان، أو لم يستويا ولكنْ لم ينته أحدهما درجة الظهور الذي يبني عليه العاقل الأمورَ المعتبرة، والرّيب لما لم يبلغ درجة اليقين وإن ظهر نوع ظهور، ولهذا حسُن (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) هنا، فإنه بيان لكون الأمر ظاهرًا بالغًا درجة اليقين بحيث لا يحصل فيه ريب، فضلًا عن شك.

قولُه: وفي الحديث: «**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشكّ ريبة، والصدق طمأنينة**»[1]، أخرجه الترمذي، وصحّحه بلفظ: (**فإنّ الصدق طمأنينة، وإنّ الكذب ريبة**).

(١) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ٦٤.

قال الطّيبي: دعْ ما اعترض لك الشكّ فيه منقلبًا إلى ما لا شكّ فيه، فإذا وجدت نفسك ترتاب في الشيء فاتركه، فإنّ نفس المؤمن تطمئنّ إلى الصدق، وترتاب من الكذب، فارتيابك في الشيء منبئ عن كوْنه باطلًا، فاحذره، واطمئنانُك إلى الشيء مشعِرٌ بكونه حقًّا، فاستمسك به، وهذا مخصوص بذوي النفوس الشريفة القدسية الطاهرة من أوضار الذنوب، وأوساخ الآثام.

قال: وظهر أنّ **قوله:** فإنّ الشكّ ريبة لا يستقيم رواية، ولا دراية، وقد أخرجه ابن المنذر في تفسيره عن أبي الدرداء موقوفًا بلفظ: (**فإنّ الخير طمأنينة، وإنّ الشّر ريبة**).

قوله: والهدى في الأصل مصدر.

قال الطّيبي: اضطرب كلام سيبويه في الهدى، فمرّة يقول: هو عِوَض من المصدر؛ لأنّ (فُعَلًا): لا يكون مصدرًا، وأخرى يقول: هو مصدر هدى.

قولُه: (ومعناه الدلالة) إلى آخره، مأخوذٌ من كلام الإمام؛ حيث قال: الهدى عبارة عن الدلالة.

وقال صاحبُ الكشّاف: هي الدّلالة الموصلة إلى البغية، والذي يدلّ على صحة الأول، وفساد الثاني أنّه لو كان كوْن الدلالة موصلة إلى البغية معتبرة في مسمّى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأنّ كون الدلالة موصلةً إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكن الله تعالى أثبت الهدى مع عدم الاهتداء في **قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[1].

واحتجّ صاحب **الكشاف** بثلاثة أمور:

أحدها: وقوعُ الضلالة في مقابل الهدى، في **قوله تعالى:**﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2] **وقوله عزّ وجل:** ﴿اشْتَرُوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[3].

(١) سورة: فصلت، الآية رقم:١٧.

(٢) سورة:سبأ، الآية رقم:٢٤.

(٣) سورة: البقرة، الآية رقم:١٦.

ثانيها: أنّـه يقـال: مهـدي في موضـع المـدح كمهتـدٍ، فلـولا أنّ مـن شرط الهدى كـوْن الدلالـة موصلةً إلى البغيـة لم يكـن الوصـف بكونـه مهديًـا مدحًـا، لاحتمال أنّـه هدي، فلـم يهتد.

ثالثهـا: أنّ اهتـدى مطـاوع هـدى، **يقال**: هديتـه فاهتدى، **كما يقـال**: كسرته فانكسر، وقطعته فانقطع، فكـما أنّ الانكسـار والانقطـاع لازمـان للكسر والقطع؛ وجب أن يكـون الاهتداء من لـوازم الهدى.

والجـوابُ عـن الأوّل: أنّ الفـرق بـين الهـدى والاهتـداء معلـومٌ بالـضرورة، فمقابـلُ الهدى هـو الإضلال، ومقابـلُ الاهتـداء هـو الضـلال، فجعـل الهـدى في مقابلة الضـلال ممتنع.

وعـن الثّـاني: أنّ المنتفـع بالهـدى يسـمّى مهديًّـا، وغـير المنتفـع بـه لا يسـمّى مهديًّـا؛ لأنّ الوسـيلة إذا لم تُفـضِ إلى المقصـود كانـت نازلـة منزلـة العدم.

وعـن الثالـث: أنّ الائتـمار مطـاوع الأمـر، يقـال: أمرتـه فائتمـر، ولم يلـزم منـه أن يكـون مـن شرط كونه أمـرًا حصـول الائتـمار، فكـذا هـذا، انتهـى كلام الإمام.

قـال الطّيبـي: والجـواب عـن إثبـات الهـدى مـع عـدم الاهتـداء في آيـة: (**وأمّـا ثمـود**) أنْ يقال: لا نُسـلِم حصـول الهـدى الحقيقـي؛ لأنّ المـراد بإثبـات الهـدى تمكينهـم عليه، بسـبب إزاحـة العلل من بعثة الرسـول، وبيـان الحق.

وعـن قولـه: فجعـلُ الهـدى في مقابلـة الضـلال مُمتنـع أن لـو كان ممتنعًـا لم يقـع في الآيتـين، ولأنّ المراد بالمقابلـة في الصّناعـة: الجمـع بـين اللّفظـين الدّالـين عـلى المعنيـين المتضادّيـن حقيقـة أو تقديـرًا، سـواء كانا متعديّـين، أم لازمـين، أم أحدهـما متعديًـا والآخـر لازمًـا، وهـذا المعنـى موجـود في الآيتـين، لاسـيّما في الأولى، فإنـه صريـح فيهـا لتوسـيط كلمـة التقابل.

وعـن قولـه: (إنّ المنتفـع بالهـدى يسـمى مهديًّـا، بخـلاف غـيره تنزيلًا لـه منزلة العـدم)، أنّ هـذا مجاز، والمهـدي مـن الأوصـاف التـي تسـتعمل في المـدح مطلقًـا، وذلك علامـة الحقيقة.

وعـن قولـه: (أمرتـه فائتمـر) **مـا قالـه البـزدوي في أصولـه:** أنّ قضية الأمر لغـة أنْ لا يثبـت إلّا بالامتثال؛ لأنّ أمـر فعـل متعـدّ، لازمـه ائتمر، ولا وجـود للمتعدي إلّا أن يثبـت لازمه، كالكسر لا يتحقق إلّا بالانكسـار، إلّا أنّ ذلـك لـو ثبـت بالأمـر نفسـه لسـقط الاختيار من المأمـور أصلًا، وللمأمـور ضربٌ عندنا مـن الاختيار.

ومعنى هذا الكلام: أنّ أصحاب اللغة ما أثبتوا لكلّ فعلٍ متعدّ لازمًا إلّا إذا اتفقا في الوجود.

وقـال ابـنُ الحاجـب: معنـى المطاوعة حصـولُ فعل عن فعـل، فالثاني مطـاوِعٌ؛ لأنّه طـاوع الأول، والأول مطـاوَعٌ؛ لأنّـه طاوعـه الثـاني، فإذا وجـد المطاوَعُ وجـب أن لا يتخلّف عنـه المطاوِع.

فـإذًا: **معنـى** أمرتـه فائتمـر جعلتـه مؤتمـرًا فائتمـر، لكـن منـع الائتـمار معنـى سـقوط الاختيـار، ولـزوم الجـبر، فعـرض لـه عـارض، فوجـب العـدول عـن الحقيقـة، هـذا كلام **الطيبـي** رحمـه اللـه تعـالى.

ثـمّ قـال: والواجـبُ تحريـر معنى الهـدى، أهو حقيقـةٌ في الدّلالة المطلقـة، مجازٌ في الدلالـة المخصوصة، أمْ عكسـه، أمْ مشـترك بينهـما، أمْ موضـوع للقـدر المشـترك، وهـو البيـان، فـكلام **الإمـام:** يميـل إلى الأول، **وصاحـب الكشّـاف:** إلى الثـاني، **والزّجـاج والواحـدي:** إلى الأخـير.

قولُـه: (واختصاصُـه بالمتقـين) إلى آخـره...، هـذا السـؤال مـع مـا أجـاب بـه عـلى مـا اختـاره من تفسـير الهـدى بمطلـق الدّلالـة، إمّـا عـلى التفسـير الثّـاني فـلا يتوجّـه السـؤال ألبتـة، كـما نبّه عليـه **الإمـام**؛ لأنّ كون القـرآن موصـلًا إلى المقصـود ليـس إلّا في حـّق المتقـين.

نعمْ يُقال عليه: كيف يستقيم (**هدى للمتقين**) والمتقون هُم المهتدون؟ فهو من تحصيل الحاصل.

ويجاب عليه بجوابين:

أحدهما: أنّه باعتبار الثبات والزيادة.

والثاني: أنّه باعتبار ما يؤول، أي هدى للضالين المشارفين للتقوى، الصائرين إليها.

قوله: (وهو في عرف الشرع) إلى آخره...، هذا حدّ المتقي، ويؤخذ منه حدّ التقوى.

قال الرّاغب: التقوى جعل النفس في وقاية ممّا يخاف، وفي التعارف حفظ النفس عن كلّ ما يؤثم.

قولُه: (حتى الصغائر عند قوم)، اعلمْ أنّه اختلف في التقوى هل يدخل فيها اجتناب الصغائر، وأنه إذا لم يتوقّها هل يستحقّ هذا الاسم؟ على قولين، وظاهر كلام **المصنِّف، والإمام** وهو المجزوم به في **الكشاف**: أنّه لا يشترط في التقوى، واستحقاق الوصف بالمتقي اجتنابها، وإلّا لم يكدْ يستحقّ هذا الوصف أحد.

وقد شقّ على الصحابة لما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1]، المفسر بأن يطاع فلا يعصى، فنسخ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2]، وقال تعالى﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى {٣١/٥٣} الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[3]، فاستثنى اللّمم، فلم يقدح في الإحسان، وهو كالتقوى، بل أخصّ منها.

وأصرح منه في الاستدلال قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ {١٣٣/٣} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء﴾[4] إلى أن **قال:** ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾[5].

وأمّا حديث الترمذي: «لا يبلغ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يدعَ ما لا بأس به حذرًا لما به بأس»[6]، فمحمول على الكمال، أي أعلى درجات المتقين.

ثمّ الكلام فيما لا ينتهي إلى حدّ الإصرار السّالب للعدالة، بحيث تغلب صغائره على حسناته، على ما حرّر في باب الشهادات من كتب الفقه.

---

(١) **سورة:** آل عمران، الآية رقم:١٠٢.

(٢) **سورة:** التغابن، الآية رقم: ١٦.

(٣) **سورة:** النجم، الآية رقم: ٣١ .

(٤) **سورة:** آل عمران، الآية رقم:١٣٣، ١٣٤.

(٥) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ١٣٥.

(٦) الحديث: سبق تخريجه في ص ٩٩.

قولُه: (واعلمْ أنّ الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب) إلى آخره....

قال أبو حيان: قد ركبوا وجوهًا من الإعراب في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ﴾ والذي نختاره منها **أنّ قوله:** (**ذلك الكتاب**): جملة مستقلة من مبتدئ وخبر؛ لأنّه متى أمكن حمل الكلام على غير إضمار، ولا افتقار؛ كان أولى مِن أن يسلك به مسلك الإضمار والافتقار.

وقالوا: يجوز أن يكون (**ذلك**) خبرًا لمبتدئ محذوف، تقديره هو (**ذلك الكتاب**)، و(**الكتاب**) صفة، أو بدل، أو عطف بيان، ويحتمل أن يكون مبتدأ، وما بعده خبر، وفي موضع خبر(**الم**)، و(**لا ريب فيه**): جملة تحتمل الاستئناف فلا يكون لها موضع من الإعراب، وأن تكون في موضع رفع خبرًا لـ (**ذلك**)، و(**الكتاب**) صفة، أو بدل، أو عطف، أو خبر بعد خبر إذا كان (**الكتاب**) خبرًا، وقلنا بتعدّد الأخبار، وأن تكون في موضع نصبٍ على الحال، أي مبرأ من الريب.

وجوّزوا في قوله: (**فيه**) أن يكون: خبرًا لـ (**لا**) على مذهب **الأخفش**، وخبرًا لها مع اسمها على مذهب **سيبويه**، وأن يكون صفة، والخبر محذوف، وأن يكون من صلة (**ريب**) يعني أنّه يضمر عامل من لفظ ريب، فيتعلّق به، لا أنّه يكون متعلقًا بنفس (**لا ريب**) إذ يلزم إذ ذاك إعرابه؛ لأنّه يصير اسم (**لا**): مطولًا بمعموله، **نحو**: لا ضاربًا زيدًا عندنا، والذي نختاره أن الخبر محذوف؛ لأنّ الخبر في باب: (**لا**) إذا علم لم يلفظ به **بنو تميم**، وكثر حذفه عند أهل الحجاز، وهو هنا معلوم.

وجوّزوا في قوله تعالى: (**هدى للمتقين**) أن يكون (**هدى**): في موضع رفع على أنّه مبتدأ، و(**فيه**) في موضع الخبر، أو خبر مبتدئ محذوف، أي هو (**هدى**)، أو على (**فيه**) مضمرة إن جعلنا (**فيه**) من تمام (**لا ريب**) أو خبر بعد خبر، فتكون قد أخبرت بالكتاب عن (**ذلك**)، وبقوله (**لَا رَيْبَ فِيهِ**)، ثمّ جاء (**هدى**) خبرًا ثالثًا، أو كان (**الكتاب**) تابعًا، و(**هدى**) خبر ثان، أوفي موضع نصب على الحال، وبُولغ بجعل المصدر حالًا، وصاحب الحال اسم الإشارة أو (**الكتاب**)، والعامل فيها على هذين الوجْهين معنى الإشارة أو الضمير في (**فيه**)، والعامل ما في الظرف من

الاستقرار. **والأولى:** جعل كلّ جملة مُستقلة، فـ (**ذلك الكتاب**) جملة، و(**لا ريب**) جملة، و(**فيه هدى للمتقين**) جملة، ولم يُحتج إلى حرف عطف؛ لأنّ بعضها آخذ بعنق بعض.

قولُه تعالى: (**لا ريب**) في المشهورة مبني، لتضمّنه معنى: (**من**) منصوب المحلّ إلى آخره.

قال ابن يعيش في شرح المفصل: اعلم أنّ (**لا**) النافية على **ضربين**: عاملة، وغير عاملة:

فالعاملة: التي تنفي على جهة استغراق الجنس؛ لأنّها جواب ما كان على طريقة: هل مِن رجل في الدّار؟ فدخول (**من**) في هذا لاستغراق الجنس، ولذلك تختص بالنكرات لشمولها، ألا ترى أنّه لا يجوز (هل من زيد في الدار)؟ كما يجوز في: (هل زيد في الدار)، فهذه التي لاستغراق الجنس عاملة النصب فيما بعدها من النكرات المفردة، ومبنية معها بناء خمسة عشر، وإنما استحقت أن تكون عاملة لشبهها بـ (**إن**) النّاصبة للأسماء، ووجْه المشابهة بينهما أنها داخلة على المبتدئ والخبر، كما أنَّ (**إنَّ**) كذلك، وأنّها نقيضه من الإعراب، نحو ضربت زيدًا، وما ضربت زيدًا، فقولُك: ضربت زيدًا فعل وفاعل ومفعول، **وقولك**: ما ضربت زيدًا نفي لذلك، ومع ذلك فقد أعربته بإعرابه من حيث كان نقيضُه ليُشعِر بمعنى الرّفع له، فلّما أشبهت (**لا**) (**إن**) وكانت (**إن**): عاملة في المبتدئ والخبر كانت (**لا**): كذلك عاملة في المبتدئ والخبر؛ لأنّها تقتضيهما جميعًا، كما تقتضيهما: (**إن**)، ولمّا نصبوا بها لم تعمل إلّا في نكرة على سبيل حرف الخفض الذي في المسألة، لأنها كالنّائبة عنه إلّا أنّ (**لا**): بنيت مع النّكرة، لأنّها وقعت في جواب هل من رجل عندك، على سبيل الاستغراق، فوجب أن يكون الجواب أيضًا بحرف الاستغراق الذي هو (**من**)، ليكون الجواب مطابقًا للسّؤال، فكان قياسه لا من رجل في الدار، ليكون النفي عامًّا، كما كان السؤال عامًّا، ثمّ حذفت (**من**) من اللّفظ تخفيفًا، وتضمّن الكلام معناها، فوجب أن يبنى لتضمّنه معنى الحرف، كما بني خمسة عشر حين تضمن حرف العطف.

لطيفة: قال ابنُ جنّي في (الخصائص): باب في اقتضاء الموضع لك لفظًا، وهو معك إلّا أنّه ليس بصاحبك، من ذلك قولهم: لا رجل عندك، ولا غلام لك، فـ (**لا**) هذه: ناصبة لاسمها،

وهـو مفتـوح إلّا أنّ الفتحـة فيـه ليسـت فتحـة النصـب التـي تتقضاهـا (**لا**)، إنمـا هـذه فتحـة بنـاء وقعـت موقـعَ فتحـة الإعـراب الـذي هـو عمـل (**لا**) في المُضـاف، نحـو لا غـلام رجـل عنـدك.

قـال: ونظـيرُ ذلـك قولـك: مـررتُ بغلامـي، فالميـمُ تسـتحقّ جـرّة الإعـراب بالبـاء، والكسـرة فيها ليسـت الموجبـة بحـرف الجـر، إنمـا هـي التـي تصحـب يـاءَ المتكلّـم في الصحيـح، لأنّهـا تثبـت في الرفـع وفي النّصب، وذلـك دليـلٌ عـلى أنهـا ليسـت كـسرة الإعـراب وإن كانـت بلفظها.

قولُـه: مرفـوع بــ (**لا**)، زاد في **الكشـاف:** والفـرق بينهـا وبـين المشـهورة أنّ المشـهورة توجب الاسـتغراق، وهذه تجـوّزه.

وقـال الإمـام: والـذي يـدلّ على إيجاب المشـهورة للاسـتغراق أنّ نفـي الجنس نفي الماهيـة، وهو يقتضي نفـي كلّ فـردٍ مـن أفرادهـا، فلو ثبت فردٌ مـن أفرادها ثبتـت الماهية.

وأمّـا قـراءة (لَا رَيْـبٌ فِيـهِ) بالرفـع: فهـو وإنْ كان نكـرةً في سـياق النفي، لكنّـه نقيض **قولنـا:** ريب فيه، وهـو يحتمـل أن يكـون إثباتًـا لفـردٍ واحد منهـا، ونفيُه يفيـد انتفاءه.

وقـال الزّجـاج: إذا قلـت: لا رجـلٌ في الـدار جـازَ أن يكـون فيهـا رجـلان، **وإذا قلت:** لا رجـلَ في الدار فهو نفـي عام.

وقـال الشّـيخ أكمـل الديـن: قد ردّ مـا ذكره **صاحب الكشـاف:** من الفرق بـأنّ (**ريـب**) في (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) نكـرة، والنّكـرة في سـياق النّفـي تعـمّ، فينتفي جميـع آحادِ الرّيب، فلا فـرق في ذلك بين نفـي الجنس وغيره، **قـال:** والجـواب أنّـه غلـط؛ لأنّ الـذي ذكـره مـن كوْن النكـرة تعمّ دليـل جواز الاسـتغراق، إذ لـولا ذلك لكان نكـرة في سـياق الإثبـات، ولم تكـن عامّـة، ولأنّ المبنـي في تقديـر (**مـن**) الاسـتغراقية: لكونهـا مؤكـدةً للنفـي، والنفـي المؤكّـد ليـس كغـيره، وإلّا كان الـشيء مع غيره كالشيء لا مع غـيره، ولأنّ (**من**) المقـدّرة: زائدة، لعدم اختـلال أصـل المعنـى بتركـه، وأَقَـلُّ مراتبهـا التأكيد، وتأكيـد العام ينفي احتـمال الخصوص، فـكان محكمًا في الاسـتغراق، لا يفارقـه، وليـس كذلـك الـذي مـع (**لا**) المشـبّهة بليـس، فإنّ احتـمال الخصوص فيه بـاق، لعدم مـا يقطعـه، فكانـت دلالتُـه على الاسـتغراق جائزة الافـتراق، وهو ظاهـر لا محالة.

وقال أبو حيان: قرئ بالرّفع، والمراد أيضًا الاستغراق، بأنه لا يريد نفي ريب واحد عنه، فيكون مبتدءًا، و(**فيه**) الخبر، وهذا ضعيف، لعدم تكرار (**لا**)، أو يكون أعملها إعمال ليس، وهو ضعيف، فيكون (**فيه**) في موضع نصبٍ على قول الجمهور مِن أنّ (لا) إذا أعملت عمل ليس: رفعت الاسم، ونصبت الخبر.

قولُه: (ولم يقدّم كما قدّم في **قوله: لَا فِيهَا غَوْلٌ**)؛ لأنّه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب، كما قصد ثمة).

قال أبو حيان: انتقل **الزمخشري** من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر، ولا نعلم أحدًا يفرق بين: ليس في الدار رجل، وليس رجل في الدّار.

قولُه: فلذلك وقفٌ على (**ريب**)، عُزي هذا الوقف لنافع وعاصم.

قال الإمام: والأولى الوقُف على (**فيه**) لأنّ الوقف عليه يكون الكتاب نفسُه هدى، وقد تكرّر في التنزيل أنّه هدى، وأنه نور، وعلى الأوّل لا يكون نفسُه هدى، بل فيه هدى.

قولُه: (والتقدير (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) فيه **هدى**).

قال في (المرشد): إنْ جعلت (**لا ريب**) بمعنى حقًّا فالوقفُ عليه تام، ولا حاجة إلى تقدير فيه، وكأنّه

قال: (الم *ذلك الكتاب) حقًّا.

قولُه: (تؤكّد كونه حقًّا لا يحوم الشك حوله).

قال الطّيبي: أي **قوله:** (**هدى**) تأكيدٌ لقوله: (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) لأنه لا يكون هاديًا إذا كان فيه مجال للشّبهة، **ففي قوله:** (لا يحوم الشك حوله) كناية، كقوله:

فَمَا جَازَهُ جُوْدٌ وَلا حَلَّ دُوْنَهُ وَلَكِنْ يَصِيْرُ الجُوْدُ حَيثُ يَصِيْرُ

وهذه المبالغة: مُستفادة من إيقاع المصدر خبرًا لـ (هو)، كما أنّ المبالغة في الجملة الثانية حصلت من تعريف الخبر، وفي الثالثة من الاستغراق.

قولُه: (ذات جزالة)، هي خلاف الرّكاكة.

قولُه: (ففي الأولى الحذف)، **قال الطيبي:** أي حذف المبتدئ، أي هذه (**الم**) إذا جعلت اسمًا للسّورة.

قولُه: (والرمز إلى المقصود)، **قال الطيبي:** أي التحدّي.

قولُه: (مع التعليل)، أي: الإشارة إليه بألطف وجْه، وهو أنها مُشيرة إلى أنّ المتحدّى به من جنس ما تنظمون منه كلامكم.

قولُه: (وفي الثانية فخامة التعريف)، **قال الطيبي:** أي الدلالة على كونه كاملًا في بابه.

قولُه: (وفي الثالثة تأخير الظرفِ حذرًا من إيهامه الباطل)، أي: إثباته في غيره.

قولُه: (وفي الرابعة الحذف)، **قال الطيبي:** أي هو (**هدى**).

قولُه: (والوصف: بالمصدر للمبالغة) لأنّ (**هدى**): مصدر وضع موضع هاد.

قولُه: (وإيراده منكرًا للتعظيم)، قال الطيبي: أي هادٍ لا يكتنه كنهه.

قولُه: (وتخصيص الهدى بالمتقين) إلى آخره، **قال الطيبي:** أي حيث لم يقل: للضالين الصائرين إلى التقوى، رعاية لحسن المطلع.

(٢٦)

وجاء في كتاب السّراج المنير لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني [1] **(٩٧٧هـ):**

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(**ذلك الكتاب**): الذي تقرؤه يا محمّد على الناس (**لا ريب فيه**)، لا شكّ في أنّه من عند الله تعالى.

فإنْ قيل: لمَ صحّت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟

أجيب: بأنّ الإشارة وقعت فيه للتعظيم، ولذلك **قال الطيبي**: أحسن ما قيل في توجيه ذلك قولُ صاحب (المفتاح) **قال:** (**ذلك الكتاب**) ذهابًا إلى بعده درجة.

وقيل: وقعت الإشارة إلى (**ألم**) بعدما سبق التكلّم به وتقضّى، والمنقضي في حكم المتباعد، وهذا في كلّ كلام يحدّث الرجل بحديث ثمّ **يقول**: (وذلك ما لا شكّ فيه)، ويحسب الحاسب ثمّ **يقول:** (فذلك كذا وكذا)، **وقال تعالى:** ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾[2]، وقال

---

(١) **الشربيني:** هو الشيخ الإمام العالم العلّامة الهمام شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، الشافعي، القاهري، الفقيه المفسّر المتكلّم، النحوي، ولد في شربين بمحافظة الدقهلية وإليها ينسب، ثمّ انتقل إلى القاهرة واستوطنها حتى توفي، كان رحمه الله ممّن أجمع أهل مصر على صلاحه وعلمه وعمله وزهده وورعه، مع كثرة النُّسكِ والعبادةِ، كثير التواضع، شديد الحياء، وكان من عادته- رحمه الله- أن يعتكف من أوّل رمضان فلا يخرج من الجامع إلّا بعد صلاة العيد،، توفي بعد العصر من يوم الخميس الثامن من شعبان سنة سبع وسبعين وتسعمائة (٩٧٧هـ) الموافق ١٥٧٠م- رحمه الله تعالى. انظر: الخطط التوفيقية، ج١٢ ص ١٢٧، ١٢٨، شذرات الذهب ج١٠ ص ٥٦١، ٥٦٢، الكواكب السائرة ج٣ ص ٧٢، ٧٣، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج٢ ص١١٣٩.

(٢) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٦٨.

نبـي اللـه يوسـف ﷺ: ﴿لاَ يَأْتِيكُمَـا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَـا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَـا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّـي﴾(١)، ولأنّـه لمّـا وصـل مـن المرسـل سـبحانه وتعالى إلى المرسَـل إليه ﷺ وقـع في حدّ البعـد كما تقول لصاحبـك وقـد أعطيته شـيئًا: (احتفظ بذلك)، أي: تمسّـكْ به.

وقيـل: معنـاه ذلـك الكتاب الموعـود إنزاله **بقوله تعالى:**﴿إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَوْلًا ثَقِيـلًا ﴾(٢) أو في الكتب المتقدّمـة لأنّ سـورة البقـرة مدنيـة كـما مـرّ، وأكثرهـا احتجـاج عـلى اليهـود وعلى بنـي إسرائيل، وقـد كانت بنـو إسرائيـل أخبرهـم مـوسى وعيـسى- عليهـما الصـلاة والسـلام- أنّ الله يرسـل محمـدًا، وينـزل عليـه كتابًا، **فقـال تعـالى:** (**ذلـك الكتـاب**) أي: الـذي أخـبر الأنبيـاء المتقدّمـون بأنّ الله سـينزله عـلى النبـيّ المبعوث من ولد إسـماعيل.

وقيـل: إنّـه تعـالى لمّـا أخـبر عن القرآن بأنـه في اللوح المحفوظ **بقولـه:** ﴿وَإِنَّهُ فِـي أُمِّ الْكِتَـابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيـمٌ ﴾(٣) وقـد كان ﷺ أخـبر أمتـه بذلـك فغـير مُمتنـع أنْ **يقـول تعـالى:** (**ذلـك الكتـاب**) ليعلـم أن هذا المنـزل هـو ذلـك الكتـاب المثبـت في اللـوح المحفـوظ، والكتاب مصدر سـمّي به المفعـول للمبالغـة، أو فعال بنـي للمفعـول كاللبـاس، ثـمّ أطلـق عـلى المنظوم عبارة قبـل أن يكتب لأنه مـمّا يكتب، وأصـل الكتب الضمّ والجمـع، سـمّي الكتـاب كتابًـا لأنـه جمـع حرف إلى حـرف، والكتاب جـاء في القـرآن على وجوه:

أحدهـا: الفـرض **قـال تعـالى:** ﴿كُتِـبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَـاصُ﴾(٤) ﴿كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَـامُ﴾(٥)، ﴿إِنَّ الصَّـلاَةَ كَانَتْ عَلَـى الْمُؤْمِنِيـنَ كِتَابًـا مَّوْقُوتًا ﴾(٦).

---

(١) **سورة:** يوسف، الآية رقم: ٣٧.

(٢) **سورة:** المزمل، الآية رقم: ٥.

(٣) **سورة:** الزخرف، الآية رقم: ٤ .

(٤) **سورة:** البقرة، الآية رقم:١٧٨.

(٥) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٨٣.

(٦) **سورة:** النساء، الآية رقم: ١٠٣.

وثانيها: الحجة والبرهان، **قال تعالى:**﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) أي: برهانكم.

وثالثها: الأجل قال تعالى:﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾(٢) أي: أجل.

ورابعها: بمعنى مكاتبة السيد رقيقه، **قال تعالى:**﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾(٣).

فإن قيل: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه؟

أجيب: بأنّ الله تعالى ما نفى أنّ أحدًا لا يرتاب فيه، وإنّما المنفي كوْنه متعلقًا للريب ومظنّة له؛ لأنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا ينبغي لأحدٍ أن يرتاب فيه، ألا ترى إلى **قوله تعالى:**﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(٤) فإنه لم ينفِ عنهم الريبَ بل أرشدهم إلى الطريق المزيح للرّيب، وهو أن يجتهدوا في معارضة سورةٍ من سوره ويبذلوا فيها غاية جهدهم، حتى إذا عجزوا عنها تحقّق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للرّيبة.

وقيل: هو خبرٌ بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه **كقوله تعالى:** ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٥) أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، والريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيه الريبة وهي قلق النفس واضطرابها سمّي به الشكّ لأنّه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة.

وفي الحديث: «**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك فإنّ الشكّ ريبة والصدق طمأنينة**»(٦)، رواه **الترمذي** لكنْ بلفظ: «**فإنّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(٧) وصحّحه، **ومعناه:** اتركْ ما

---

(١) **سورة:** الصافات، الآية رقم: ١٥٧.

(٢) **سورة:** الحجر، الآية رقم: ٤.

(٣) **سورة:** النور، الآية رقم: ٣٣..

(٤) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ٢٣.

(٥) **سورة:** البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

(٦) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٧) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ٦٤.

فيـه شـكّ إلى مـا لا شـكّ فيـه، فإذا ارتابت نفسـك في شيء فاتركه أو اطمأنـت إليه فافعله، فـإنّ نفس المؤمن تطمـئنّ إلى الصّـدق وترتـاب من الكذب، وهذا مخصوص بـذوي النفوس الشريفة القدسـية الطاهرة.

وجُملـة النفـي خـبرٌ مبتـدؤه ذلـك، و(**هـدى**): خـبرٌ ثـانٍ، أي هـادٍ (**للمتقـين**) الصائريـن إلى التقـوى بامتثـال الأوامـر واجتنـاب النواهـي لاتّقائهـم بذلك النـار، وتخصيص المتقـين بالذكر تشريفًا لهـم ولأنهم هُم المنتفعـون بالهـدى كـما **قـال تعـالى:** ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنـذِرُ مَن يَخْشَـاهَا ﴾[١]، **وقال تعـالى:** ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَـنِ اتَّبَعَ الذِّكْـرَ ﴾[٢]، وقـد كان- ﷺ- منـذرًا لـكلّ النـاس لأنّ هـؤلاء هـم الذيـن انتفعـوا بإنذاره.

ولها ثلاثُ مراتب:

الأولى: التوقّي من العذاب المخلّد بالتبري عن الشرك، وعليه **قوله تعالى:** ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٣]

والثانيـة: التجنّـب عـن كلّ مـا يؤثـم مـن فعـل أو تـرك حتـى الصغائـر عنـد قـوم، وهـذا التجنّـب هـو المُتعـارف بالتقـوى في الـشرع، وهـو المعنـى **بقوله تعـالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُرَى آمَنُـواْ وَاتَّقَـواْ ﴾[٤] وعلى هذا قـول **عمـر بـن عبـد العزيـز:** «التقـوى تـرك ما حـرّم اللـه وأداء ما افـترض الله، فـما رزق الله بعـد ذلك فهو خـيرٌ إلى خير»[٥].

والثالثـة: أنْ يتنـزّه عـمّا يشـغل سرّه عـن الحـقّ تعـالى، وهـذه هـي التقـوى الحقيقيـة المطلوبـة **بقولـه تعـالى:** ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُـواْ اللـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ ﴾[٦]، وقـال **ابـنُ عمـر:** «**التقـوى أنْ لا تـرى نفسَـك**

(١) **سورة:** النازعات، الآية رقم:٤٥.

(٢) **سورة:** يس، الآية رقم: ١١.

(٣) **سورة:** الفتح، الآية رقم: ٢٦.

(٤) **سورة:** الأعراف، الآية رقم: ٩٦.

(٥) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ٣١.

(٦) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

خيرًا من أحد»(١). قرأ **ابن كثير**: فيه هدى، فَيَصلُ الهاء من فيه بياء في الوصل لأنّها مكسورة وقبلها ساكن، فإنْ كانت هاء الكناية مضمومةً وقبلها ساكن وصَلَها بواو، فإنْ كان قبلها متحرّك وبعدها متحرّك؛ فجميع القرّاء يصلونها مكسورة بياء ويصلونها مضمومةً بواو، فمثال المكسورة: ﴿بِهِ أَن يُوصَلَ﴾(٢)، ومثالُ المضمومة: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ ﴾(٣) وما أشبه ذلك، فإن كان قبلها متحرّك وبعدها ساكن، فالجميع على عدم الصلة، مثال ذلك (**به الله**)، (**وله الملك**) وما أشبه ذلك، ويدغم **أبو عمرو** الهاء في الهاء بخلاف عنه، وكذا كلّ مثلين ما لم يكن الحرف المدغم تاءَ متكلّم مثل: ﴿كُنتُ تُرَابًا﴾(٤)، أو تاء مخاطب مثل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾(٥)، أو منوّنًا مثل: (**سميع عليم**)، أو مشدّدًا مثل: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ ﴾(٦).

---

(١) الحديث: سبق تخريجه في ص ١١٤.

(٢) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٧.

(٣) **سورة**: الكهف، الآية رقم: ٣٧.

(٤) **سورة**: النبأ، الآية رقم: ٤٠.

(٥) **سورة**: يونس، الآية رقم: ٩٩.

(٦) **سورة**:الأعراف، الآية رقم: ١٤٢ .

(٢٧)

وجاء في تفسير أبي السّعود لأبي السّعود[١] محمد العمادي رحمه الله (٩٨٢هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(**ذلك**): (**ذا**) اسمُ إشارة، واللام عماد جيء به للدّلالة على بُعد المشار إليه، والكاف للخطاب، والمشار إليه هو المسمّى، فإنّه مُنزّل منزلة المشاهد بالحسّ البصري، وما فيه من معنى البعد، مع قرْب العهد بالمشار إليه، للإيذان بعلوّ شأنه، وكوْنه في الغاية القاصية من الفضل والشرف، إثر تنويهه بذكر اسْمه، وما قيل من أنّه باعتبار التقصّي، أو باعتبار الوصول من المرسِل إلى المرسَل إليه، في حكم المتباعد، وإنْ كان مصحّحًا لإيراده، لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ما وضع للإشارة إلى القريب، وتذكيره على تقدير كوْن المسمّى هي السّورة؛ لأنّ المشار إليه هو المسمّى بالاسْم المذكور، من حيث هو مسمّى به، لا من حيث هو مسمّى بالسورة، ولئن ادّعي اعتبار الحيثية الثّانية في الأول، بناءً على أنّ التسمية لتمييز السور بعضها من بعض، فذلك لتذكير ما بعده، **وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثان.**

---

(١) **أبو السعود**: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المُفْتي والمُفسِّر، ولد في إحدى ضواحي القسطنطينية في بيت علم وفضل عام ٨٩٨ هـ تلقى العلوم على يد نخبة من علماء عصره، ومنهم والده، حتى اشتهر أمره، وذاع صيته لعلمه وفضله، اشتغل بالتدريس، وتولّى قضاء القسطنطينية وغيرها من المدن، وتولى بعد ذلك الإفتاء ومكث فيه ثلاثين سنة، وقام بأمره خير قيام، وكان يجيب عن الأسئلة التي توجَّه إليه بنفس الأسلوب واللغة التي توجَّه بها، ممّا يدلّ على سعة علمه وقدرته الفائقة، وضع أبو السعود كتابًا في التفسير سمّاه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، وهو في تسعة أجزاء، كشف فيه عن مزايا القرآن اللغوية والعقلية، ومن كتبه تحفة الطلاب، في المناظرة؛ قصة هاروت وماروت، توفي أبو السعود عام ٩٨٢هـ ودفن إلى جوار قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري قرب أسوار القسطنطينية.

انظر: العقد المنظوم ص ٧٠، انظر: الكواكب السائرة ج٣ ص٣١، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني، ت (١٢٥٠هـ)، نشر: دار المعرفة بيروت، (١ / ٢٦١).

وقولُـه عـزّ وعـلا: (**الكتـاب**): إمّـا خـبر لـه، أو صفـة، إمّـا إذا كان خـبرًا لـه، فالجُملـة عـلى الوجْـه الأول مسـتأنفة، مؤكّـدة لمـا أفادتـه الجُملة الأولى من نباهة شـأن المسـمّى، لا محـلّ لها من الإعـراب، وعلى الوجْه الثـاني في محـّل الرفـع، عـلى أنّهـا خبر للمبتدأِ الأول، واسْـم الإشـارة مغنٍ عن الضمـير الرابـط، و(**الكتاب**) إمّا مصـدرٌ سـمّي بـه المفعـول مبالغـة، كالخلـق والتصوير للمخلـوق والمصـور، وإمّا (**فعـال**) بنـي للمفعول، كـ (اللبـاس)، وهـو مـن (**الكتـب**)، الـذي هـو ضمّ الحـروف بعضها إلى بعـض، وأصلـه الجمع، والضـمّ في الأمور الباديـة للحـسّ البـصري، ومنـه (**الكتيبـة**) للعسـكر، كـما أنّ أصل القـراءة الجمع والضـمّ في الأشـياء الخافية عليـه، وإطـلاق (**الكتـاب**) عـلى المنظـوم عبارة لمـا أنّ مآله الكتابـة، والمراد به عـلى تقدير كوْن المسـمّى هي السـورة جميـع القـرآن الكريـم، وإن لم يتـمّ نزولـه عنـد نـزول السّـورة، إمّـا باعتبـار تحقّقـه في علـم الله عزّ وجـلّ، أو باعتبـار ثبوتـه في اللّـوح، أو باعتبـار نزوله جملة إلى السّـماء الدنيا، حسـبما ذكـر في فاتحة الكتاب، والـلام للعهد.

والمعنـى: أنّ هـذه السـورة هـي الكتـاب، أي العمـدة القصـوى منـه، كأنه في إحـراز الفضـل كلّ الكتاب المعهـود، الغنـي عـن الوصـف بالكـمال، لاشـتهاره بـه فيـما بـين الكتـب، عـلى طريقـة قولـه ﷺ: «**الحـج عرفـة**»[1]، وعـلى تقديـر كـوْن المسـمّى كلّ القـرآن، فالمـراد بالكتـاب الجنـس، والـلام للحقيقـة.

والمعنـى: أنّ ذلـك هـو الكتـاب الكامـل الحقيـق بـأن يخـصّ بـه اسـم الكتـاب، لغايـة تفوقـه عـلى بقيـة الأفـراد في حيـازة كـمالات الجنـس، كأنّ مـا عـداه مـن الكتـب السـماوية خـارجٌ منـه، بالنسـبة إليـه، كـما يقـال: هـو الرجـل، أي الكامـل في الرّجوليـة، الجامـع لمـا يكـون في الرجـال مـن مـراضي الخِصـال، وعليـه قـول مَـن **قـال**: **هُـم القـوم كلّ القـوم يـا أمّ خالـد**، فالمـدحُ كـما تـرى مـن جهـة حـصر كـمال الجنـس في فـردٍ مـن أفـراده، وفي الصـورة الأولى مـن جهـة حـصرِ كـمال الـكلّ في الجـزء، ولا مســاغ هنـاك لحمـل الكتـاب عـلى الجنـس، لمـا أنّ فـرده المعهـود هـو مجمـوع القـرآن، المقابـل لسـائر أفـراده،

(١) **الحديث**: أخرجه أبو داود برقم ١٩٤٩، والنسائي ج٢ ص٤٥، والترمذي ج١ ص١٦٨، وأحمد ج٤ ص٣٠٩.

مـن الكتـب السـماوية، لا بعضـه الـذي ينطلق عليه اسـم الكتـاب، باعتبار كونه جـزءًا لهذا الفـرد، لا باعتبار كونـه جزئيًّـا للجنـس عـلى حيالـه، ولأنّ حـصر الكـمال في السـورة مُشْـعر بنقصان سـائر السـور، وإن لم يكنِ الحـصر بالنسـبة إليهـا لتحقيـق المغايـرة بينهـما، هـذا عـلى تقدير كـون (**الكتـاب**)، خبرًا لــ (**ذلـك**)، وأمّا إذا كان صفـة لـه فـ (**ذلـك الكتـاب**)، عـلى تقدير كون (**الـم**)، خـبر مبتدئ محـذوف، إمّا خبر ثـان، أو بدل من الخـبر الأول، أو مبتـدأ مسـتقل خـبره مـا بعـده، وعلى تقدير كوْنـه مبتدأ، إمّا خـبر له، أو مبتدأ ثـان خبره ما بعـده، والجملـة خـبر للمبتدئ الأول، والمشـار إليه على كلا التقديرين هو المسـّمى، سـواء كان هي السـورة، أو القـرآن، ومعنـى البُعـد **مـا ذكر من الإشـعار بعلو شـأنه.**

والمعنـى: ذلـك الكتـاب العجيـب الشّـأن، البالـغ أقـصى مراتـب الكـمال، **وقيل**: المشـار إليه هـو الكتاب الموعـود، فمعنـى البُعـد حينئـذ ظاهـر، خـلا أنّـه إنْ كان المسـمّى هي السـورة ينبغـي أن يُـراد بالوعد ما في **قولـه تعـالى:** ﴿إِنَّـا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، **كـما قيل**: وإن كان هـو القرآن فهو ما في التـوراة والإنجيل، هـذا عـلى تقديـر كوْن (**الـم**)، اسـمًا للسـورة، أو القرآن، وأمّـا على تقديـر كوْنها مسرودة على نمـط التعديد فــ (**ذلـك**)، مبتـدأ، و(**الكتـاب**)، إمّـا خـبره، أو صفتـه، والخـبر مـا بعده، عـلى نحو ما سـلف، أو يقـدر مبتدأ، أي: المؤلـف مـن هـذه الحروف ذلـك الكتاب، **وقـرئ:** ﴿الـم {١/٣٢} تَنزِيلُ الْكِتَـابِ ﴾[2].

وقولُـه تعـالى: (**لا ريـب فيـه**): إمّـا في محـل الرفـع، عـلى أنّـه خـبر لــ (**ذلـك الكتـاب**)، عـلى الصـور الثـلاث المذكـورة، أو عـلى أنّـه خـبر ثـان لــ (**الـم**)، أو لــ (**ذلـك**)، عـلى تقديـر كـون (**الكتـاب**)، خـبره، أو للمبتـدئ المقـدّر آخـرًا، عـلى رأي مَـن يجـوّز كـوْن الخـبر الثـاني جُملـة، كـما في **قولـه تعـالى:** ﴿فَـإِذَا هِـيَ حَيَّـةٌ تَسْـعَى﴾[3]، وإمّـا في محـلّ النّصـب عـلى الحاليـة مـن (**ذلـك**)، أو مـن (**الكتـاب**)، والعامـلُ

(١) **سورة**:المزمل، الآية رقم: ٥ .

(٢) **سورة**:السجدة، الآية رقم: ١، ٢ .

(٣) **سورة**:طه، الآية رقم: ٢٠ .

معنـى الإشـارة، وإمّـا جملـة مسـتأنفة، لا محلّ لهـا من الإعـراب، مؤكّدة لما قبلهـا، وكلمـة (**لا**) نافية للجنس، مفيـدة للاسـتغراق، عاملـة عمـل (**إن**)، بحملها عليهـا، لكوْنها نقيضًا لها، ولازمة للاسـم لزومها، واسـمها مبنيّ عـلى الفتـح، لكونـه مفـردًا نكـرة، لا مضافًـا، ولا شـبيهًا بـه، وأمّـا ما ذكـره الزّجاج مـن أنّه معـرب وإنّما حذف التنويـن للتّخفيـف فمـّما لا تعويـل عليه، وسـبب بنائه تضمّنـه لمعنى (**من**) الاسـتغراقية، لا أنّـه مركب معها تركيـب (**خمسـة عـشر**) كـما توهّـم، وخبرهـا محـذوف، أي: (لا ريب موجـود)، أو نحـوه، كما في **قولـه تعالى:** ﴿قَـالَ لاَ عَاصِـمَ الْيَـوْمَ مِـنْ أَمْـرِ اللـهِ إِلاَّ مَـن رَّحِـمَ﴾[1]، والظرف صفة لاسـمها، **ومعناه:** نفـي الكون المطلق وسـلبه عـن الريـب المفـروض في الكتـاب، أو الخبر هـو الظرف، ومعناه: سـلب الكون فيه عـن الريب المطلق، وقـد جعـل الخـبر المحـذوف ظرفًـا، وجعل المذكـور خبرًا لما بعـده، **وقرئ:** (**لا ريـب فيه**)، عـلى أنّ (**لا**) بمعنى (**ليـس**)، والفـارق بينـه وبـين الأول أنّ ذلـك موجِـب للاسـتغراق، وهـذا مجـوّز لـه، **والريـب**: في الأصل مصدر (رابنـي)، إذا حصـل فيـك الريبـة، وحقيقتهـا قلق النفـس، واضطرابها، ثمّ اسـتعمل في معنى الشـكّ مطلقًا، أو مـع تهمـة؛ لأنّـه يقلـق النفـس، ويزيل الطمأنينـة، **وفي الحديـث**: «**دعْ ما يريبـك إلى ما لا يريبـك**»[2]، ومعنى نفيـه عـن الكتـاب أنّـه في علوّ الشـأن وسـطوع البرهـان بحيث ليس فيـه مظنّـة أن يرتاب في حقيقتـه، وكونه وحيًـا منـزّلًا مـن عنـد اللـه تعالى، لا أنّه لا يرتـاب فيه أحدٌ أصلًا، ألا يرى كيف جوز ذلـك في **قوله تعالى**: ﴿وَإِن كُنتُـمْ فِـي رَيْـبٍ مِّمَّـا نَزَّلْنَـا عَلَـى عَبْدِنَا﴾[3]، فإنه في قوة **أن يقـال**: وإن كان لكم ريب فيما نزلنـا، أو إن ارتبتم فيـما نزلنـا، إلّا أنّـه خولِف في الأسـلوب، حيث فـرض كوْنهم في الريب، لا كوْن الريب فيه، لزيادة تنزيه سـاحة التنزيـل عنـه، مـع نـوع إشـعارٍ بـأنّ ذلك مـن جهتهم، لا مـن جهتـه العالية، ولم يقصـد ها هنا ذلك الإشـعار، كـما لم يقصـد الإشـعارَ بثبـوت الريـب في سـائر الكتب، ليقتـضي المقام تقديـم الظرف، كما **في قولـه تعالى**:﴿لَا فِيهَـا غَـوْلٌ وَلَا هُـمْ عَنْهَـا يُنزَفُـونَ﴾، وأمّـا (**هـدى**): مصـدر من (هـداه)، كـ (الـسرى)، و(البكى)، وهـو الدّلالة

---

(١) **سورة**: هود، الآية رقم: ٤٣.

(٢) **سورة**: الحديث: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٣) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٣.

بلطف على ما يوصل إلى البغية، أي ما من شأنه ذلك، **وقيل:** هي الدلالة الموصّلة إليها، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته، في **قوله تعالى:** ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾[1]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2]، ولا شكّ في أن عدم الوصول معتبر في مفهوم الضّلال، فيعتبر الوصول في مفهوم مقابله، ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره في مفهوم الهدى المتعدي، إذ لا فرق بينهما إلّا من حيث التأثير والتأثر، ومحصله أنّ الهدى هو التوجيه الموصل؛ لأنّ اللازم هو التوجّه الموصل، بدليل أن مقابله الذي هو الضلال توجّه غير موصل قطعًا، وهذا كما ترى مبنيّ على أمرين:

اعتبار الوصول وجوبًا في مفهوم اللازم، واعتبار وجود اللازم وجوبًا في مفهوم المتعدي، وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت.

أمّا الأول: فلأنّ مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه، على الإطلاق، بل هما مُعتبران في مفهوميْهما على وجهٍ مخصوص به، ليتحقّق التقابل بينهما، وتوضيحه أنّ الهدى لا بدّ فيه من اعتبار توجّه عن علم إلى ما مِن شأنه الإيصال إلى البُغية، كما أنّ الضلال لا بدّ فيه من اعتبار الجوْر عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعًا، وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين، ومحقّقة للتقابل بينهما، وإنّما النزاع في أنّ إمكان الوصول إلى البغية هل هو كافٍ في تحصّل مفهوم الهدى، أو لا بدّ فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل، كما أن عدم الوصول بالفعل معتبَر في مفهوم الضلال قطعًا.

إذا تقرّر هذا نقول: إن أريد باعتبار الوصول بالفعل في مفهوم الهدى اعتباره مقارنًا له في الوجود زمانًا، حسب اعتبار عدمه في مفهوم مقابله، فذلك بيِن البطلان؛ لأنّ الوصول غاية للتوجّه المذكور، فينتهي به قطعًا لاستحالة التوجّه إلى تحصيل الحاصل، وما يبقى بعد ذلك هو

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٦.

(٢) **سورة**: سبأ، الآية رقم: ٢٤.

إمّـا توجّـه إلى الثبـات عليـه، وإمّا توجّه إلى زيادتـه، ولأنّ التوجّه إلى المقصد تدريجـي، والوصول إليه دفعي، فيسـتحيل اجتماعُهـما في الوجـود ضرورة، **وأمّـا عـدم الوصـول** فحيث كان أمرًا مسـتمرًّا مثل مـا يقتضيه من الضـلال وجـبَ مقارنتـه لـه في جميـع أزمنـةِ وجـوده، إذْ لـو فارقـه في آنٍ مِـن آنـات تلـك الأزمنـة لقارنـه في ذلـك الآن مقابلـة الـذي هـو الوصـول، فـما فرضنـاه ضـلالًا لا يكون ضـلالًا، وإن أريـد اعتباره مـن حيث أنّه غايـة لـه واجبـة الترتّـب عليـه لـزم أن يكون التوجّه المقـارن لغاية الجدّ في السـلوك إلى ما مِن شـأنه الوصول عنـد تخلّفـه عنـه، لمانـع خارجـي، كاخـترام المنيـة مثلًا من غـير تقصـير، ولا جوْر من قبـل المتوجّـه، ولا خلل مـن جهـة المسـلك ضـلالًا، إذْ لا واسـطة بينهـما، مـع أنّـه جـور فيه عـن القصـد أصـلًا، فبطل اعتبـار وجوب الوصـول في مفهـوم الـلازم قطعًـا، وتبـين منه عـدم اعتبـاره في مفهوم المتعـدي حتمًا.

وأمّـا اعتبـار وجـود الـلازم فيـه وجوبًـا: وهـو الأمـرُ الثـاني فبيانُه مبنـيّ على تمهيـد أصل، وهـو أنّ فعل الفاعـل حقيقـة هـو الـذي يصـدرُ عنـه، ويتمّ من قبلـه، لكن لمّا لم يكنْ له في تحقّقه في نفسـه بـدّ من تعلقه بمفعولـه اعتـبر ذلـك في مدلـول اسـمه قطعًا، ثمّ لمّا كان لـه باعتبار كيفية صـدوره عن فاعلـه، وكيفية تعلّقه بمفعولـه، وغـير ذلـك آثار شـتى مترتّبـة عليه، متمايزة في أنفسـها، مسـتقلّة بأحكام مقتضية لإفرادها بأسـماء خاصّـة، وعـرض لـه بالقيـاس إلى كلّ أثـرٍ مـن تلـك الآثـار إضافـة خاصّـة ممتـازة عـمّا عداهـا مـن الإضافات العارضـة لـه بالقيـاس إلى سـائرها، وكانـت تلـك الآثار تابعةً لـه في التحقّق، غـير منفكّة عنه أصـلًا إذْ لا مؤثر لهـا سـوى فاعلـه، عـدت مـن متمّماته، واعتـبرت الإضافـة العارضة له بحسـبها داخلـة في مدلولـه، كالاعتماد المتعلّـق بالجسـم مثـلًا، وضـع لـه باعتبار الإضافـة العارضة له من انْكسـار ذلك الجسـم الذي هـو أثرٌ خاصّ لذلـك الاعتـماد اسـم الكـسر، وباعتبـار الإضافـة العارضة له مـن انقطاعه الذي هـو أثرٌ آخر له، اسـم القطع إلى غـير ذلـك مـن الإضافـات العارضـة لـه بالقياس إلى آثـاره اللازمة لـه، وهذا أمرٌ مطـرد في آثـاره الطبيعية، وأمّـا الآثـار التـي لـه مدخـل في وجودهـا في الجملـة مـن غير إيجـابٍ لها تترتّـب عليه تـارة، وتفارقـه أخرى، بحسـب وجـودِ أسـبابها الموجبـة لهـا، وعدمهـا، كالآثـار الاختياريـة الصّـادرة عـن مؤثّراتهـا بواسـطة كوْنـه

داعيًا إليها، فحيث كانت تلك الآثار مستقلّة في أنفسها، مستندةً إلى مؤثراتها، غير لازمة له لزومَ الآثار الطبيعية التابعة له، لم تعدْ من متمّماته، ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلة في مدلوله، كالإضافة العارضة للأمر، بحسب امتثال المأمور، والإضافة العارضة للدّعوة، بحسب إجابة المدعو، فإنّ الامتثال والإجابة وإن عدّا من آثار الأمْر والدعوة، باعتبار ترتّبهما عليهما غالبًا، لكنهما حيث كانا فعليْن اختياريين للمأمور والمدعو، مستقلّين في أنفسهما، غير لازمين للأمر والدعوة لم يعدّا من متمّماتهما، ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة في مدلول اسم الأمر والدعوة، بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلّق بالمأمور والمدعو، سواء وجد الامتثال والإجابة أو لا.

إذا تمهّد هذا نقول: كما أنّ الامتثال والإجابة فعلان مستقلّان في أنفسهما، صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما، غير لازمْين للأمر والدّعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها وإنْ كانا مترتّبين عليهما في الجُملة، كذلك هُدى المهدي: أي توجّهه إلى ما ذكر من المسلك فعل مستقلّ له، صادرٌ عنه باختياره، غير لازمٍ للهداية أعني التوجيه إليه لزوم ما ذكر من الآثار الطّبيعية، وإن كان مترتبًا عليها في الجُملة، فلّما لم يعدّا من متمّمات الأمر والدعوة، ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة في مدْلولهما، علم أنّه لم يعد الهدى اللازم من متمّمات الهداية، ولم يعتبرِ الإضافة العارضة لها بحسبه داخلة في مدلولها.

إنْ قيل: ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصليْهما، فإنّ تعلّق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضي إلّا اتّصافهما بكونهما مأمورًا ومدعوًّا، وليس من ضرورته اتّصافهما بالامتثال والإجابة، إذ لا تلازم بينهما وبين الأولين أصلًا، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية، فإن تعلّقها بالمهدي يقتضي اتّصافه به؛ لأنّ تعلّق الفعل المتعدي المبني للفاعل بمفعوله يدلّ على اتّصافه بمصدره المأخوذ من المبني للمفعول قطعًا، وهو مستلزم لاتّصافه بمصدر الفعل اللازم، وهل هو إلّا اعتبار وجود اللازم في مدلول المتعدي حتمًا.

قلنا: كما أنّ تعلّق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعي إلّا اتّصافهما بما ذكر، من غير تعرّض للامتثال والإجابة إيجابًا وسلبًا، كذلك تعلّق الهداية التي هي عبارة عن الدلالة

المذكورة بالمهدي لا يستدعي إلّا اتّصافه بالمدلوليّة التي هي عبارة عن المصدرِ المأخوذ من المبني للمفعول، من غير تعرّض لقبول تلك الدّلالة، كما هو معنى الهدى اللازم، ولا لعدم قبوله، بل الهداية عين الدّعوة إلى طريق الحق، والاهتداء عين الإجابة، فكيف يؤخَذ في مدلولها؟ واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدّي المبني للمفعول، للاتّصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقًا، إنما هو في الأفعال الطّبيعية، كالمكسورية والانكسار، والمقطوعية والانقطاع، وأمّا الأفعال الاختيارية فليست كذلك، كما تحقّقته فيما سلف .

وإن قيل: التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية، مع أنّه معتبر في مدلول التعليم قطعًا، فليكنِ الهدى مع الهداية كذلك.

قلنا: ليس ذلك لكوْنه فعلًا اختياريًّا على الإطلاق، ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للمتعلّم كما قيل، فإنّ المعلم ليس بمستقلّ في ذلك، ففي إسناده إليه ضرب تجوّز، بل لأنّ كلًّا منهما مفتقرٌ في تحقّقه وتحصّله إلى الآخر، فإنّ التعليم عبارة عن إلقاء المبادئ العلمية على المتعلّم، وسوقها إلى ذهنه شيئًا فشيئًا، على ترتيبٍ يقتضيه الحال، بحيث لا يُساق إليه بعض منها إلّا بعد تلقّيه لبعض آخر، فكلّ منهما متمّم للآخر، معتبرٌ في مدلوله، وأمّا الهدى الذي هو عبارة عن التوجّه المذكور ففعلٌ اختياري، يستقلّ به فاعله، لا دخل للهداية فيه سوى كوْنها داعيةً إلى إيجاده باختياره، فلم يكنْ من متمّماتها، ولا معتبرًا في مدلولها.

وإنْ قيل: التعليم نوعٌ من أنواع الهداية، والتعلّم نوعٌ من أنواع الاهتداء، فيكون اعتبارُه في مدلول التعليم اعتبارًا للهدى في مدلول الهداية.

قلنا: إطلاق الهداية على التعليم إنّما هو عند وضوح المسلك، واستبداد المتعلّم بسلوكه، من غير دخل للتعليم فيه، سوى كوْنه داعيًا إليه، وقد عرفت جلية الأمر على ذلك التقدير.

وإنْ قيل: أليس تخلّف الهدى عن الهداية كتخلّف التعلّم عن التعليم، فحيث لم يكن ذلك تعليمًا في الحقيقة، فليكنِ الهداية أيضًا كذلك، وليحمل تسمية ما لا يستتبع الهدى بها على التجوّز.

قلنا: شتّان بين التخلّفين، فإنّ تخلّف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه، كما أن تخلف الانكسار عن الضرب الضّعيف لذلك، وأمّا تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها، بل إنما هو لفقدِ سببه الموجب له من جهة المهدي، بعد تكامل ما يتمّ من قبل الهادي، وبهذا التحرير اتّضح طريق الهداية، وتبيّن أنها عبارة عن مطلق الدّلالة على ما من شأنه الإيصال إلى البغية، بتعريف معالمه، وتبيين مسالكه، من غير أن يشترط في مدلولها الوصول، ولا القبول، وأنّ الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما، والمفارقة عنهما، كلّ ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها أفراد حقيقية لها، وأنّ ما في **قوله تعالى**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، ونحو ذلك ممّا اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز، وانكشف أنّ الدّلالات التكوينية المنصوبة في الأنفس، والآفاق، والبيانات التشريعية الواردة في الكتب السماوية على الإطلاق، بالنسبة إلى كافة البرية، برّها وفاجرها، هدايات حقيقية فائضة من عند الله سبحانه، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(**للمتقين**): أي المتصفين بالتقوى حالًا أو مآلًا، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره، المُنتفعون بآثاره، وإن كان ذلك شاملًا لكلّ ناظر، من مؤمن وكافر، وبذلك الاعتبار:

قال الله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، والمتقي: اسم فاعل من باب الافتعال، من الوقاية، وهي فرط الصيانة، والتقوى في عرف الشرع: عبارة عن كمال التوقي عمّا يضرّه في الآخرة، قال **عليه الصلاة والسلام**: (**جماع التقوى في قوله تعالى**: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[٣] وعن **عمر بن عبد العزيز** أنه: «ترك ما حرم الله، وأداء ما فرض الله»[٤]، **وعن شهر بن حوشب**: (المتقي من يترك ما لا بأس به، حذرًا من الوقوع فيما فيه بأس)، **وعن أبي يزيد أنّ**: (التقوى هو التورع

---

(١) **سورة**: القصص، الآية رقم: ٥٦ .

(٢) **سورة**:النحل، الآية رقم: ٩.

(٣) **سورة**:النحل، الآية رقم: ٩٠.

(٤) الأثر: سبق تخريجه في ص ٣١.

عـن كلّ مـا فيـه شـبهة)، **وعـن محمـد بـن حنيـف أنـه:** (مجانبـة كلّ ما يبعـدك عن اللـه تعالى)، **وعن سـهل:** (المتقـي مَـن تبرّأ عـن حولـه وقدرته).

وقيـل: (التقـوى أنْ لا يـراك اللـه حيـث نهـاك، ولا يفقـدك حيـث أمـرك)، وعـن **ميمـون بن مهـران:** (لا يكـون الرجـل تقيًّـا حتـى يكـون أشـدَّ محاسـبة لنفسـه مـن الشريـك الشـحيح، والسـلطان الجائـر)، وعـن **أبي تـراب:** (بـين يـدي التقـوى خمـسُ عقبـات، لا ينالـه مَـن لا يجاوزهـن: إيثار الشـدة عـلى النعمـة، وإيثار الضعـف عـلى القـوة، وإيثـار الـذل عـلى العزة، وإيثـار الجهد عـلى الراحة، وإيثـار الموت على الحيـاة)، **وعن بعـض الحكـماء أنـه:** (لا يبلـغ الرجل سـنام التقـوى إلّا أن يكون بحيـث لو جعل ما في قلبـه في طبق، فطيف بـه في السـوق؛ لم يسـتحِ ممّـن ينظـر إليه).

وقيل: التقوى أنْ تزيّن سرّك للحقّ، كما تزيّن علانيتك للخلق، والتحقيق أنّ للتقوى ثلاثَ مراتب:

الأولى: التوقي عن العذاب المخلّد بالتبرؤ عن الكفر، وعليه **قوله تعالى:** ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[1]

والثّانيـة: التجنّـب عـن كلّ مـا يؤثـم من فعل، أو تـرك، حتى الصغائر عنـد قوم، وهو المتعـارف بالتقوى في الـشرع، وهـو المعني بقولـه تعالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُـواْ وَاتَّقَوْاْ﴾.

والثّالثـة: أن يتنـزّه عـن كلّ مـا يشـغل سرّه عـن الحـقّ عـزّ وجـل، ويتبتّـل إليـه بكليتـه، وهـو التقـوى الحقيقـي المأمـور بـه في **قولـه تعـالى:** ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُـواْ اللـَّـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ﴾[2]، ولهـذه المرتبـة عـرض عريـض، يتفـاوت فيـه طبقـات أصحابهـا، حسـب تفـاوت درجـات اسـتعداداتهم الفائضـة عليهـم بموجـب المشـيئة الإلهيـة، المبنيـة عـلى الحكـم الأبيـة، أقصاهـا مـا انتهـى إليـه همـمُ الأنبيـاء- عليهـم الصـلاة والسـلام- حيـث جمعـوا بذلـك بـين رياسـتي النبـوة والولايـة، ومـا عاقهـم

(١) **سورة**:الفتح، الآية رقم: ٢٦.

(٢) **سورة**:آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

التعلّـق بعـالم الأشـباح عـن العـروج إلى معـالم الأرواح، ولم يصدّهـم الملابسـة بمصالـح الخلق عن الاسـتغراق في شـئون الحـقّ، لكـمال اسـتعداد نفوسـهم الزكيـة المؤيـدة بالقوة القدسـية، وهدايـة الكتاب المبين شـاملة لأربـاب هـذه المراتـب أجمعين.

فـإنْ أريـد بكوْنـه (هـدى للمتقـين): إرشـاده إيّاهـم إلى تحصيـل المرتبـة الأولى ونيْلهـا، فالمـراد بهـم المشـارفون للتقـوى مجـازًا، لاسـتحالة تحصيـل الحاصـل إيثـاره عـلى العبـارة المعربـة عـن ذلـك، للإيجـاز، وتصديـر السـورة الكريمـة بذكـر أوليائـه تعـالى، وتفخيـم شـأنهم، وإن أريـد بـه إرشـاده إلى تحصيـل إحـدى المرتبْتـين الأخيرتـين، فـإنْ عنـى بالمتقـين أصحـاب الطبقـة الأولى تعيّنـت الحقيقـة، وإن عنـى بهـم أصحـابُ إحـدى الطبقتـين الأخيرتـين تعـين المجـاز؛ لأنّ الوصـول إليهـما إنمـا يتحقّـق بهدايتـه المترقّبـة، وكـذا الحـال فيـما بـين المرتبـة الثانيـة والثالثـة، فإنـه إنْ أريـد بالهـدى الإرشـاد إلى تحصيـل المرتبـة الثّالثـة، فـإنْ عنـى بالمتقـين أصحـاب المرتبـة الثانيـة تعيّنت الحقيقـة، وإن عنى بهم أصحـاب المرتبة الثالثة تعـَين المجاز، ولفظ **(الهدايـة)** حقيقـة في جميـع الصـور.

وأمّـا إنْ أريـد بكوْنـه هـدى لهـم تثبيتهم على ما هُم عليه، أو إرشـادهم إلى الزّيادة فيـه، على أن يكون مفهومهـا داخـلًا في المعنـى المسـتعمَل فيه، فهو مجـاز لا محالة، ولفظ **(المتقين)** حقيقة عـلى كلّ حال، واللام متعلّقـة بهـدى، أو بمحـذوف وقـع صفة له، أو حالًا منه، ومحل **(هدى)** الرفـع، على أنّه خبر لمبتدئ محذوف أي: هـو هـدى، أو خـبر مـع **(ريـب فيه)**، لـ **(ذلـك الكتاب)**، أو مبتدأ خـبره الظرف المقدّم، كما أشـير إليه، أو النّصـب عـلى الحاليـة من **(ذلك)**، أو من **(الكتاب)**، والعامل معنى الإشـارة، أو من الضمير في **(فيه)**، والعامل ما في الجار والمجرور من معنى الفعل المنفي، **كأنه قيل:** لم يحصل فيه الرّيب حال كونه هاديًا، على أنّه قيد للنفـي لا للمنفـي، وحاصلـه: انتفـى الريب فيه حـال كوْنه هاديًا، وتنكـيره للتفخيم، وحمله عـلى **(الكتاب)**، إمّـا للمبالغـة، كأنـه نفـس الهـدى، أو لجعـل المصدر بمعنـى الفاعل، هذا والذي يسـتدعيه جزالـة التنزيل في شـأن ترتيـب هـذه الجمـل أن تكون متناسـقة، تقـرّر اللاحقة منها السـابقة، ولذلـك لم يتخلّـل بينها عاطف، فـ **(الـم)**، جملة برأسـها، على أنها خبر لمبتدئ مُضمر، أو طائفة من حروف المعجم مسـتقلّة بنفسـها، دالّة

علـى أنّ المتحـدّى بـه هـو المؤلّـف مـن جنس ما يؤلّفـون منه كلامهـم، و(**ذلك الكتـاب**)، جملة ثانيـة مقرّرة لجهـة التحـدي، لمـا دلّـت عليـه مـن كوْنه منعوتـًا بالكـمال الفائق، ثمّ سـجل على غايـة فضله بنفـي الرّيب فيـه، إذ لا فضـل أعـلى ممّا للحـقّ واليقين.

و(**هـدى للمتقـين**): مـع مـا يقـدر لـه من المبتـدئ جملـة مؤكّدة لكونـه حقًّا لا يحوم حوله شـائبة شـكّ مـا، ودالّـة عـلى تكميله بعد كماله، أو يسـتتبع السـابقة منهـا اللاحقة اسـتتباع الدليل للمدلول، فإنّـه لمّا نبّه أولًا عـلى إعجـاز المتحـدّى بـه، مـن حيث أنّه مـن جنس كلامهم، وقـد عجزوا عـن معارضته بالمـرّة، ظهر أنّه الكتـاب البالـغ أقـصى مراتـب الكـمال، وذلك مسـتلزم لكوْنـه في غاية النزاهة عـن مظنّة الريـب، إذ لا أنقص مـمّا يعتريـه الشـك، ومـا كان كذلـك كان لا محالـة هـدًى للمتقـين، وفي كلّ منها مـن النكت الرائقـة، والمزايا الفائقـة مـا لا يخفى جلالة شـأنه، حسـبما تحقّقته.

(٢٨)

جاء في روح البيان لإسماعيل حقّي بن مصطفى الإستانبولي[1] رحمه اللهِ (١١٢٧هـ):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(**ذلِـكَ الْكِتـابُ**)، (الم): مبتـدأ على أنّه اسـم القرآن عـلى أحد الوجوه، و(**ذلك**): خبرُه إشـارة إلى (**الكتاب**) فيكـون (**الكتـاب**): صفـة، والمـراد بـه الكتـاب الكامـل الموعـود إنزالـه في الكتب المتقدّمـة، وإنّما أشـار بذلك إلى مـا ليـس ببعيـد؛ لأنّ (**الكتـاب**) مـن حيث كوْنه موعـودًا في حكم البعيـد،، ولما وعد الله ذلـك في التوراة، وأنزلـه عـلى **محمـد**- عليه السـلام- جحـدت اليهود، لعنهـم الله، أن يكون هـذا (**ذلك**).

فقـال تعـالى: ﴿ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ﴾ كـما في تفسـير التيسـير، ولهذه الآيـة وجوهٌ أُخـر من الإعـراب ذكرت في التفاسـير، فلتُطلـب ثمة.

(**لا رَيْـبَ**): كائـن فِيـهِ، **فقولـه** (**ريـب**): اسـم (**لا**)، و(**فيـه**): خبرهـا وهـو في الأصـل: مـن رابنـى الـشيء إذا حصـل فيـك الرّيبـة، وهـي قلـق النفـس واضطرابهـا، سـمى بـه الشـكّ لأنّـه يقلـق النفـس ويزيـل الطمأنينـة، وفي الحديـث: «**دعْ مـا يريبـك إلى مـا لا يريبـك فـإنّ الشـكّ ريبـة والصـدق طمأنينـة**»[2]، ومنـه ريـب الزّمـان لنوائبـه، وفي التفسـير المسـمّى بالتيسـير: (**الريـب**): شـكّ فيـه خـوف

---

(١) **الإستانبولي**: هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، ولد في بلدة آيدوس سنة ١٠٦٣هـ وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة الخلوتية، له كتب عربية وتركية، توفي رحمه الله سنة ١١٢٧هـــ انظر: خير الدين الزركلي (أيار ٢٠٠٢ م). الأعلام ج ١ (الطبعة الخامسة عشر). بيروت: دار العلم للملايين. صفحة ٣١٣. يوسف اليان سركيس (بدون تاريخ). معجم المطبوعات العربية ج ١، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. صفحة ٤٤١. انظر: تفسير روح البيان ج١ ص٢٩.

(٢) الحديث: سبق تخريجه في ص ٦٤.

وهـو أخـصّ مـن الشـكّ، فـكلّ ريب شـكّ، وليس كلّ شـك ريبًا، والشـك: هـو التردّد بـين النقيضـين لا ترجيح لأحدهـما عـلى الآخـر عنـد الشّـاك، ولم يقـدّم الظـرف عـلى الريب لئـلّا يذهـب الفهـم إلى أنّ كتابًـا آخر فيه الرّيـب لا فيـه، **فـإنْ قلـت:** الكفـار شـكُوا فيـه فلـمْ يقـرّوا بكتـاب اللـه تعـالى، والمبتدعـون من أهـل القبلة شـكّوا في معـاني متشـابهة فأجروهـا عـلى ظاهرها وضلّـوا بها، والعلماء شـكّوا في وجوهه فلـم يقطعوا القول عـلى وجـهٍ منهـا، والعـوام شـكّوا فيـه فلم يفهمـوا معانيـه، **فما معنـى:** نفى الريـب عنه.

فالجـوابُ أنّ: هـذا نفـي الرّيـب عـن الكتاب لا عـنِ النّاس، والكتاب موصـوفٌ بأنه لا يتمكّـن فيه ريب فهـو حـقّ صـدق معلـوم ومفهـوم شـكّ فيه النـاس أو لم يشـكّوا كالصّدق صـدق في نفسـه وإنْ وصفه الناس بالكـذب والكـذب كـذب، وإن وصفـه النـاس بالصـدق، فكذا الكتـاب ليس مـمّا يلحقه ريـب أو يتمكّن فيه عيـب، ويجـوز أن يكـون خـبرًا في معنـى الأمـر، ومعنـاه: لا ترتابـوا **كقولـه تعـالى** ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[1]، **المعنـى:** لا ترفثوا ولا تفسـقوا ولا تجادلوا.

(**هُـدًى**): أي هـو رشـد وبيـان لِلْمُتَّقِينَ، أي: للضّالـين المشـارفين التقـوى الصّائريـن إليها، ومثلـه حديث: «**مَـن قتـل قتيـلًا فلَـهُ سـلبُه**»[2]، وفي **تفسـير الإرشـاد** أي: المتّصفـين بالتقـوى حـالًا أو مآلًا، وتخصيـص الهدى بهـم لمـا أنهـم المقتبسـون مـن أنـواره المنتفعـون بآثـاره، وإنْ كان ذلـك شـاملًا لكلّ ناظـر مِن مؤمـن وكافر، وبذلـك الاعتبـار **قـال تعـالى:** ﴿هُـدًى لِّلنَّـاسِ﴾ أي: كلهـم، بيانًـا وهـدى للمتقين عـلى الخصوص إرشـادًا.

قـال في التّيسـير: وكذلـك يُقـال في كلّ مَـن انتفـع بـشيء دون غـيره أنّـه لـك عـلى الخصـوص، أي أنـتَ المنتفـعُ بـه وحـدك، وليـس في كـوْن بعـض النـاس لم يهتـدوا مـا يخرجـه مـن أن يكـون هـدًى، فالشـمس

(١) **سورة**:البقرة، الآية رقم: ١٩٧.

(٢) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٦٦.

شـمس وإن لم يرهـا الضريـر، والعسـل عسـل وإن لم يجـد طعمـه المَمْـرور، والمسـك مسـك وإن لم يـدرك طيبه المأنـوف، فالخيبـة كلّ الخيبـة لمَـن عطـش والبحـر زاخـر، وبقـي في الظلمـة والبـدر زاهـر، وخبـث والطيـب حـاضر، وذوى والـرّوض ناظـر، والحـسْرة كلّ الحسرة لمَن عصى وفسـق والقـرآن ناهٍ آمر، وفـارق الرّغبة والرّهبة والوعْـد متواتـر، والوعيـدُ مُتظاهـر، ولذلك **قال تعـالى**: ﴿وَإِنَّـهُ لَحَسْـرَةٌ عَلَـى الْكَافِرِينَ﴾[1].

والمتّقـي: اسـمُ فاعـل مـن بـاب الافْتعـال مـن الوقايـة، وهـي: فـرط الصيانـة، **قال البغـوي**: هـو مأخوذٌ مـن الاتّقـاء، وأصلُـه الحاجـز بـين الشـيئين، ومنْـه **يقـال**: اتّقـى بترسـه، أي: جعلـه حاجـزًا بين نفسـه وبين ما يقصـده، **وفي الحديـث:** «**كنّـا إذا احمـرّ البـأس اتّقينـا برسـول اللـه** ﷺ»[2] أي: إذا اشـتدّ الحـرب جعلنـاه حاجـزًا بيننـا وبـين العـدو، فـكأنَّ المتّقـي يجعـل امتثـال أمـر اللـه والاجتنـاب عـمّا نهـاه حاجـزًا بينـه وبـين العـذاب، والتّقـوى في عـرف الـشرع: عبـارة عـن كـمال التوقـي عـمّا يـضرّه في الآخـرة.

---

(١) **سورة**: الحاقة، الآية رقم: ٥٠.

(٢) **الحديث**: سبق تخريجه في ص ٤٥.

(٢٩)

وجاء في كتاب التفسير المظهري للمظهري[1]، محمد ثناء الله رحمه الله (١٢٢٥هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(**ذلِكَ الْكِتابُ**): أي هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد- ﷺ- ويكذّب به المشركون، فالمُشار إليه ما سبق نزولُه من القران على سورة البقرة، أو القرآن كلّه الذي سبق بعضه، فذلك مبتدأ، والكتاب خبرُه: أي الكتاب المعهود الموعود، أو الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمّى كتابًا، أو صفة، وخبره ما بعده.

وقيل (هذا): فيه مُضمر، أي (هذا): الذي يوحَى إليك (**ذلك الكتاب**) الذي وعدنا إنزاله في التوراة والإنجيل، أو وعدناك من قبل بقولنا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً﴾[2]، ف (**ذلك**): خبر مبتدأ محذوف، و(**الكتاب**) صفته، و(**الكتاب**): مصدر بمعنى المكتوب، وأصل الكتب: الضمّ والجمع، يقال للجند كتيبة لاجتماعها، سُمّي به لأنّه قد جمع في الكتاب حرف إلى حرف، أو لأنه ممّا يكتب، والإشارة بـ (**ذلك**) وهي للبعيد تعظيمًا لشأنه، (**لا رَيْبَ فِيهِ**): لوضوحه وسطوع برهانه، بحيث لا يرتاب فيه العاقل بعد النظر الصحيح في كوْنه وحيًا، **وقيل:** خبر

(١) المظهري: هو القاضي مولوي محمد ثناء الله الهندي الفاني فتي النقشبندي، الحنفي العثماني المظهري، من تلامذة الشاه ولي اللّه الدهلوي، كان الشاه عبد العزيز يسمّيه (بيهقي العصر)، له تفسيرٌ عظيم، لا نظير له في أحاديث الأحكام، وأدلتها، وله كتاب (منار الأحكام) لم يطبع، وغيرهما، ولد في حدود ١١٤٣هـ بـ (فاني فت)، ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم وعمره ٧ سنين، واشتغل بعده بأخذ العلوم النقلية والعقلية فتبحّر فيها، ثمّ ارتحل إلى دهلي، فلزم الشاة ولي الله الدهلوي فسمع الحديث منه وأخذ الطريقة النقشبندية من الشيخ خواجة محمد عابد السنامي، ثمّ أخذ الطريقة الأحمدية من الشيخ ميرزا جانجانان مظهر، ثمّ رجع إلى وطنه، وأقام به وقضى عمرَه في نشر العلوم وفصل الخصومات والإفتاء، وألف كتبًا كثيرة في التفسير والفقه وغيرها، منها (تفسير المظهري)، و(ما لا بدّ منه) في الفقه، توفي في غرة رجب ١٢٢٥هـ. انظر: المكتبة الشاملة، موقع مشروع دين الإسلام، وانظر كذلك: تفسير المظهري.

(٢) **سورة**:المزمل: ٥.

بمعنى النّهي، أي لا ترتابوا فيه، و(لا): لنفي الجنس، وفيه خبره، أو فيه صفته، و(**للمتقين**): خبره، و(**هدى**): نصب على الحال، أو الخبر محذوف كما في لا ضير، و(**فيه**): خبر (**هدى**) قُدم عليه لتنكيره، والتقدير (**لا ريب فيه**): (**فيه هدى**)، والأولى أن **يقال:** إنها جُملٌ متناسقات تُقرّر اللّاحقة السابقة ولذا لم يعطف، فـ (**ذلِكَ الْكِتابُ**): جُملة تفيد أنّه الكتاب المنعوت بغاية الكمال حيث لا رَيْبَ فِيهِ.

وكذا قولُه: (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**)، قرأ ابن **كثير** (**فيه**) بالإشباع في الوصل، وكذلك كلّ هاء ضمير الغائب قبلها ساكن يشبعها وصلًا بالياء إنْ كان الساكن ياءً، وإلّا بالواو، نحو: (**منه**)، كما يشبع القرّاء كلهم كلّ هاء قبلها متحرّك مكسور ياءً، نحو (**به**)، أو غير مكسور واوًا نحو (**يضربهُ**)، (**لهُ**) ما لم يلقها ساكن، فإذا لقيها ساكنٌ سقط مدّة الإشباع لاجتماع السّاكنين إجماعًا، نحو (**عليهُ الكتب**)، (**ولهُ الحكم**)، غير أنّ الكلمة إذا كانت ناقصة حذف آخرها لأجل الجزم، نحو (**يؤدّه ونولّه- ونصله- فالقه- ويتّقه- ويأته- ويرضه**)، وبقي ما قبل الهاء متحركًا، ففيها خلاف القراء نذكرها في مواضعها إن شاء الله تعالى، فقرأ بعضهم بالإشباع نظرًا إلى تحرّك ما قبلها، وبعضهم بالاختلاس نظرًا إلى كوْن الحركة عارضية، وتنبيهًا على الحرف المحذوف، وبعضهم بالسكون لحلوله محلّ المحذوف (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) أي: هو هدًى، فهو جملة ثالثة يؤكّد كوْنه حقًّا لا ريب فيه، أو يكون كلّ جُملة منها يستتبع السابقة اللاحقة استتباعَ الدّليل للمدلول، فإنه لمّا كان بالغًا حدّ الكمال لا يسوغ فيه الرّيب، فيكون ألبتة (**هدى**)، و(**هدى**): مصدر بمعنى الدّلالة على الطريق الموصل، أو الدّلالة الموصلة إلى المقصود بمعنى الهادي، أو ذكر مبالغة كزيد عدل، وتخصيص الهدى **بالمتقين**: إمّا **على المعنى الأول** فلأنّهم هُم المنتفعون به، وإنْ كانت الدلالة عامّة، **ولذا قال** ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1].

وإمّا على الثاني فظاهر: لأنّه لا يكون دلالة موصّلة إلّا لمَن صقل عقله كالغذاء الصالح ينفع الصّحيح دون المريض، **ولذا قال:** ﴿شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾[2].

(١) **سورة**:البقرة: ١٨٥.

(٢) **سورة** الإسراء: الآية رقم: ٨٢.

والمتّقـي مَـن يقـي نفسَـه: عـمّا يضرّه في الآخـرة من الـشّرك، وذلك أدناه، ومـن المعاصي، وذلك أوسـطه، ومـن الاشـتغال بما لا يعينـه ويشـغله عـن ذكـر اللـه تعـالى وذلـك أعلاه، وهـو المـراد **بقولـه تعـالى:** ﴿اتَّقُواْ اللَّـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ﴾[1]، **وقـال ابـن عمـر:** «التقـوى أن لا ترى نفسَـك خيراً مـن أحد»[2].

وقـال شـهر بـن حوشـب: المتّقي: الـذي يترك ما لا بأس به حـذرًا عمّا به بأس، **روى الشـيخان وابن عدي عـن النعـمان بـن بشـير:** قـال: قـال **رسـول اللـه** ﷺ: «**الحـلال بيّن والحـرام بـيّن، وبينهـما أمور مشـتبهات لا يعلمهـا كثـيرٌ مـن النـاس، فمَـن اتّقـى المشـتبهات اسـتبرأ لعرضـه ودينـه، ومَـن وقـع في المشـتبهات وقعَ في الحـرام كـراعٍ يرعـى حـول الحمـى يوشـك أن يواقعـه، ألا وإنّ لـكلّ ملِـكٍ حمـى ألا وإنّ حمـى اللـه في أرضـه محارمُـه، ألا وإن في الجسـد مضغـة إذا صلحـت صلـح الجسـد كلّه، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كلّه، ألا وهـي القلب**»[3].

---

(١) **سورة:** آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

(٢) الأثر: سبق تخريجه في ص١١٤ .

(٣) الحديـث: رواه البخـاري ج١ ص٢٠ مـن حديـث: أبي نعيـم، وفي ج٣ ص٦٩ مـن حديـث: زكريـا، ومسـلم ج٥ ص٥٠، ٥١، مـن حديـث: محمـد بـن عبـد الله بن نمـير الهمـداني، وأبـو داود برقم: (٣٣٢٩) مـن حديث: أبي شـهاب، والترمـذي برقم: (١٢٠٥) مـن حديـث: قتيبـة بـن سـعيد، والنسـائي برقم: (٢٤١/٧) مـن حديث: محمد بـن عبد الأعلى الصنعـاني، وأخرجه أحمـد برقـم: (٢٦٧/٤) مـن حديث: هاشـم بن القاسـم.

(٣٠)

وجاء في تفسير الألوسي لشهاب الدين السيد محمود الألوسي[1] رحمه الله (١٢٧٠هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

جُملة مستأنفة، وابتداءُ كلام أو متعلّقة بما قبلها، وفيه احتمالاتٌ أطالوا فيها، وكتاب الله تعالى يُحمل على أحْسن المحامل، وأبعدها من التكلّف، وأسوَغها في لسان العرب، وذلك إشارة إلى (**الكتاب**) الموعود به- ﷺ- **بقوله تعالى:** ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2] كما **قال الواحدي**، أو على لسان **موسى وعيسى**- عليهما السلام- **لقوله تعالى:** ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[3] الآية، ويؤيّده ما روي عن **كعب:** «**عليكم بالقرآن، فإنّه فهْمُ العقل ونورُ الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالله عهدًا**»[4]، كما قاله غيرُ واحد، أو إلى ما بين أيدينا، والإشارة بذلك للتعظيم، وتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي كما في **قوله تعالى:** ﴿فَذَلِكُنَّ

(١) الألوسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، فقيه ومفسّر ومحدّث، ولد في بغداد سنة ١٢١٧هـ- ١٨٠٢م، وتلقّى العلوم على شيوخ عصره، وكان شديدَ الحرص على التعلّم، ذكيًّا فطنًا، لا يكاد ينسى شيئًا سمعه، حتى صار إمامَ عصره بلا منازع، اشتغل بالتأليف والتدريس في سنّ مبكرة، فذاع صيتُه وكثرَ تلاميذه، تولّى منصب الإفتاء، وبقي فيه حتى سنة ١٢٦٣هـ قام بعدة زيارات علمية إلى الآستانة وغيرها. له عدّة كتب قيّمة، أبرزها تفسيره الكبير «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة، ويُعدُّ هذا التفسير موسوعة كبيرة، جمع فيه الألوسي خلاصةَ علم المتقدّمين في التفسير، توفي الألوسي في ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ- ١٨٥٢م في بغداد ودُفن فيها. انظر: الدر المنتثر ص ٣٨، لبّ الألباب ج٢ ص٣١٨، محمود شكري وآراؤه اللغوية ص ٢٨، أعلام العراق ص ٨٥، ٣٤١، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور باشا ص ٣١١.

(٢) **سورة:** المزمل، الآية رقم: ٥.

(٣) **سورة:** البقرة ، الآية رقم:٨٩ .

(٤) الحديث: رواه الدارمي في سننه ج٢ ص٥٢٥، رقم ٣٣٢٧، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ج٥ ص٣٧٦.

الَّـذِي لُمْتُنَّنِـي فِيـهِ﴾[1] كـما اختـاره في المفتـاح، أو لأنـه لما نزل عن حـضرة الربوبية وصار بحضرتنـا بعد، ومن أعطـى غـيره شـيئًا، أو أوصلـه إليه، أو لاحـظ وصوله عبر عنه (**بذلـك**)، لأنّه بانفصاله عنه بعيـد، أو في حكمه، **وقـد قيـل:** كلّ مـا ليـس في يديـك بعيد، ولمّـا لم يتأتّ هذا المعنـى في **قوله تعالى:** ﴿وَهَـذَا كِتَـابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ لأنّه إشـارة إلى مـا عنـده سـبحانه لم يـأتِ بذلـك مع بُعـد الدّرجـة، **والكتـاب**: كالكتب مصـدر كتـب، ويطلق على المكتـوب، كاللبـاس بمعنـى الملبـوس، والكتـب كـما **قـال الراغب**: ضـمّ أديم إلى أديـم بالخياطـة، وفي المتعارف ضـمّ الحـروف بعضهـا إلى بعـض، والأصـل في الكتابـة النّظـم بالخـط، **وقـد يقـال:** ذلـك للمضمـوم بعضـه إلى بعـض باللفـظ، ولـذا يُسـتعار كلّ واحـدٍ للآخـر، ولـذا سـمّي كتـاب اللـه، وإن لم يكن كتابًـا، والكتـاب هنا إمّا بـاق عـلى المصدريّـة، وسـمّي بـه المفعـول للمبالغـة، أو هـو بمعنى المفعـول وأطلق عـلى المنظوم عبـارة قبل أن تنظـم حروفـه التـي يتألّـف منهـا في الخط تسـمية بما يئـول إليه مع المناسـبة.

وقـول الإمـام: إنّ اشـتقاق الكتـاب مِـن كتبـت الـشيء إذا جمعتـه، وسـمّيت الكتيبة لاجتماعها، فسـمّي الكتـاب كتابًـا لأنّـه كالكتيبـة عـلى عسـاكر الشّـبهات، أو لأنـه اجتمـع فيه جميـع العلـوم، أو لأنّ **اللـه تعالى** ألـزم فيـه التكاليـفَ عـلى الخلـق، كلام ملفّـق لا يخفـى مـا فيـه، ويطلـق الكتـاب كالقـرآن عـلى المجمـوع المنـزّل عـلى **النبـي** المرسـل- ﷺ- وعـلى القدر الشـائع بين الـكلّ والجـزء، ولا يحتاج هنا إلى مـا قيل في دفْع المغالطـة المعروفـة بالجـذر الأصـمّ، ولا أرى فيـه بأسًـا، إن احتجته.

والـلّام في الكتـاب: للحقيقـة، مثلهـا في: أنـت الرّجـل، والمعنـى: ذلـك هـو الكتـاب الكامـل الحقيـق بأن يخـصّ بـه اسـم الكتـاب لغايـة تفوقـه عـلى بقية الأفـراد في حيـازة كـمالات الجنس، حتـى كأنّ ما عـداه من الكتـب السـماوية خـارج منـه بالنسـبة إليه.

وقال ابنُ عصفور: كلّ لامٍ وقعت بعد اسـم الإشـارة وأي في النداء، وإذا الفجائية فهي للعهد الحضوري، وقرئ:﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾.

---

(١) **سورة**: يوسف، الآية رقم: ٣٢.

(**والرّيـب**) الشـكّ، وأصلـه مصـدر رابنـي الـشيء إذا حصـل فيـك الريبـة، وهي قلـق النفس، ومنـه ريَبُ الزّمـان لنوائبـه، فهـو مـمّا نقـل مـن القلـق إلى مـا هـو شـبيه به، ويسـتعمل أيضًـا لمـا يختلـج في القلب من أسـباب الغيظ.

وقـول الإمـام الـرازي: إنّ هذيـن قد يرجعـان إلى معنى الشـكّ لأنّ ما يخاف من الحـوادث محتمل، فهو كالمَشـكوك، وكذلـك مـا اختلـج في القلـب، فإنّه غير مسـتيقن ردّه، فالمنون من الريب، أو يشـكّ فيه، ويختلج في القلـب مـن أسـباب الغيـظ عـلى الكفـار مثـلًا، مـمّا لا ريـب فيه، أو فيـه ريب، وفـرق أبو زيد بـين رابني، وأرابنـي، فيقـال: رابنـي مـن فـلان أمـر، إذا كنت مسـتيقنًا منـه بالرّيب، وإذا أسـأت بـه الظنّ، ولم تسـتيقنْ منـه قلـت: أرابني، وعليه **قول بشـار:**

أخوك الذي إنْ ربته قال إنّما أراب وإن عاتبته لان جانبُه

فبعضُهم فرَق بين الرّيب والشّك: بأنّ الرّيب شكّ مع تهمة.

وقـال الرّاغـب: الشـكّ وقـوف النفـس بين شـيئين مُتقابلـين، بحيث لا يترجّـح أحدهما على الآخـر بأمارة، والمريـة الـتردّد في المتقابلـين، وطلـب الأمـارة من مرى الضّرع أي مسـحه للـدّر، والرّيـب أن يتوهّم في الشيء ثـمّ ينكشـف عـمّا توهّم فيه.

وقـال الجـولي: يقـال الشـكّ لمـا اسـتوى فيـه الاعتقـادان، أو لم يسـتويا، ولكـن لم ينتـه أحدهـما لدرجـة الظّهـور الـذي تنبنـي عليـه الأمـور، والرّيـب لما لم يبلغ درجـة اليقين، وإن ظهـر نوع ظهور، ولذا حسـن هنا: (**لا ريـب فيـه**) للإشـارة إلى أنّـه لا يحصـل فيـه ريـب فضـلًا عـن شـكّ، ونفـى سـبحانه الريـبَ فيه مـع كثرة المُرتابـين- لا كثّرَهُـم اللـهُ تعـالى- عـلى معنـى أنّـه في علـوّ الشـأن، وسـطوع البرهان بحيـث لا يرتـاب العاقلُ بعـد النظـر، في كوْنـه وحيًـا مـن اللـه تعـالى، لا أنْ لا يرتـاب فيـه حتـى لا يصـح، ويحتـاج إلى تنزيـل وجـود الريـب عـن البعـض منزلـة العـدم لوجود مـا يزيله.

وقيـل: إنّـه عـلى الحـذف، كأنّـه **قـال:** لا سـبب ريـب فيـه، لأنّ الأسـباب التي توجبـه في الـكلام التلبيس والتعقيـد والتناقـض والدعـاوى العاريـة عـن البرهـان، وكلّ ذلـك منتـفٍ عـن كتاب اللـه تعالى.

وقيل: معناه النهي، وإن كان لفظُه خبراً، أي لا ترتابوا فيه على حدّ، فلا رفثَ ولا فسوق.

وقيل: معناه لا ريبَ فيه للمتقين، فالظرف صفة، (**وللمتقين**): خبر، و(**هدى**): حالٌ من الضمير المَجرور، أي لا ريب كائنًا فيه للمتقين حال كوْنه هاديًا، وهي حالٌ لازمة فيفيد انتفاء الريب في جميع الأزمنة والأحوال، ويكون التقييد كالدليل على انتفاء الريب، و(**لا**) لنفي اتّصاف الاسم بالخبر، لا لنفي قيد الاسم، فلا تتوجّه إليه ليختلّ المعنى، نعم هو قول قليل الجدوى مع أنّ الغالب في الظرف الذي بعد لا هذه كوْنه خبرًا، وإنّما **لم يقلْ سبحانه:** لا فيه ريب، على حدّ (**لا فيها غول**) لأن التقديم يشعر بما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتابًا غيره فيه الرّيب، كما قصد في الآية تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنّها لا تغتال العقول كما تغتالها، فليس فيها ما في غيرها من العيب **قاله الزّمخشري.**

وبعضُهم لم يفرّق بين: ليس في الدار رجل، وليس رجل في الدار، حتى أنكر **أبو حيان** إفادة تقديم الخبر هنا الحصر، وهو ممّا لا يلتفت إليه.

وقرأ سليم أبو الشّعثاء: (**لا ريبٌ فيه**) بالرّفع، وهو لكونه نقيضًا لريب فيه، وهو محتمل لأنْ يكون إثباتًا لفرد، ونفيه يفيد انتفاءه، فلا يوجب الاستغراق، كما في القراءة المشهورة، ولهذا جاز: لا رجل في الدّار، بل رجلان، دون: لا رجل فيها، بل رجلان، فلا لعموم النفي لا لنفي العموم، والوقف على (**فيه**) هو المشهور، وعليه يكون الكتابُ نفسُه هدًى، وقد تكرّر ذلك في التنزيل، وعن نافع وعاصم الوقْف على (**لا ريب**)، ولا ريب في حذف الخبر، وذهب **الزّجاج** إلى جعل لا ريب بمعنى حقًّا، فالوقف عليه تامّ، إلّا أنّه أيضًا دون الأول، وقرأ ابن كثير (**فيهي**) بوصل الهاء ياء في اللفظ، وكذلك كلّ هاءٍ كناية قبلها ياءٌ ساكنة، فإنْ كان قبلها ساكنٌ غير الياء وصَلَها بالواو، ووافقه حفص في (**فيه مهانا**) و(**ملاقيه**)، و(**سأصليه**)، والباقون لا يشبعون، وإذا تحرّك ما قبل الهاء أشبعوه، وقرأ **الزّهري، وابن جندب** بضمّ الهاء من الكنايات في جميع القرآن على الأصل، و(**الهدى**) في الأصل مصدر هدى، أو عِوض عن المصدر، وكلّ في كلام

سيبويه، ولم يجيء من المصادر بهذه الزّنة إلّا قليل كالتقى والسرى والبكى بالقصر في لغة، ولقى كما قال **الشاطبي** وأنشد:

وقد زعموا حلمًا لقاك فلم أزد بحمد الذي أعطاك حلمًا ولا عقلا

والمُراد منه هنا اسمُ الفاعل بأحد الوجوه المعروفة في أمثاله، وهو لفظ مؤنّث عند ابن **عطية**، ومذكّر عند **اللحياني**، **وبنو أسد** يؤنّثون كما **قال الفراء**، فهو كالهداية، وقد تقدّم معناها، وفي الكشاف هي: الدّلالة الموصلة إلى البغية، واستدلّ عليه بثلاثة وجوه:

الأول: وقوع الضلال في مقابله كما في **قوله تعالى:** ﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ﴾[1] والضلال عبارة عن الخيبة، وعدم الوصول إلى البغية، فلو لم يعتبر الوصول في مفهوم الهدى لم يتقابلا لجواز الاجتماع بينهما.

والثّاني: أنّه يقال: مهدي في موضع المدح كمهتدٍ، ومَن حصل له الدّلالة من غير الاهتداء لا يقال له ذلك، فعلم أنّ الإيصال معتبَر في مفهومه.

والثّالث: أنّ اهتدى مطاوع هدى، ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله، ألا ترى إلى نحو كسره فانكسر، وفيه بحث:

أمّا أولًا: فلأنّ المذكور في مقابلة الضّلالة هو الهدى اللازم بمعنى الاهتداء مجازًا أو اشتراكًا، وكلامُنا في المتعدّي ومقابله الإضلال، ولا استدلال به، إذ ربّما يّفسر بالدلالة على ما لا يوصل، ولا يجعله ضالًّا، على أنّه لو فسّرت **الهداية**: بمطلق الدّلالة على ما من شأنه الإيصال، أوصَلَ أم لا، وفسّر الضّلال المقابل لها تقابل الإيجاب والسّلب بعدم تلك الدلالة المطلقة لزم منه عدم الوصول، لأنّ سلب الدّلالة المطلقة سلبٌ للمقيدة، إذ سلب الأعمّ يستلزم سلبَ الأخصّ، فليس في هذا التقابل ما يرجح المدّعى.

---

(١) **سورة**: يوسف، الآية رقم: ٣٢.

وأمّا ثانيًا: فلأنّا لا نسلم أنّ الضّلالة عبارة عن الخيبة.. إلخ، بل هو العدول عن الطريق الموصّل إلى البغية، فيكون الهدى عبارةً عن الدّلالة على الطريق الموصل، نعم إنَّ عدم الوصول إلى البغية لازمٌ للضلالة، ويجوز أن يكون اللازم أعمّ.

وأمّا ثالثًا: فلأنّه لا يلزم من عدم إطلاق المهدي إلّا على المهتدي أن يكون الوصول معتبرًا في مفهوم الهدى، لجواز غلبة المشتقّ في فرض مفهوم المشتق منه.

وأمّا رابعًا: فلأنّا لا نسلّم أنّ اهتدى مطاوع هدى، بل هو مِن قبيل أمره فائتمَر، من ترتب فعل يغاير الأوّل، فإنّ معنى هداه فاهتدى دلّه على الطريق الموصل فسلكه، بدليل أنّه يقال: هداه فلم يهتدِ، على أنّ **جمعًا يعتدّ بهم قالوا**: لا يلزم من وجود الفعل وجود مطاوعه مطلقًا، **ففي المختار:** لا يجب أنْ يوافق المطاوع أصله، ويجب في غيره، ويؤيّده **قوله تعالى:** ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾[1] مع قوله سبحانه: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[2]، فقد وجد التخويف بدون الخوف، ولا يقال: كسرته فما انكسر، والفرقُ بينهما مفصّل في عروس الأفراح.

وأمّا خامسًا: فلأنّ ما ذكره معارضٌ بما فيه الهداية، وليس فيه وصول إلى البغية، وقد مرّ بعضه، **ولهذا اختلفوا:** هل هي حقيقة في الدّلالة المطلقة مجاز في غيرها، أو بالعكس، أو هي مشتركة بينهما، أو موضوعة لقدرٍ مشترك؟ وإلى كلّ ذهب طائفة.

قيل والمذكورُ في كلام الأشاعرة: أنّ المختار عندهم ما ذكر في الكشّاف، **وعند المعتزلة:** ما ذكرناه، والمشهور هو العكس، والتوفيق بأنّ كلام الأشاعرة في المعنى الشرعي، والمشهور مبني على المعنى اللّغوي، أو العرفي، يخدشه اختيار **صاحبِ الكشّاف** مع تصلّبه في الاعتزال ما اختاره، مع أنّ الظّاهر في القرآن المعنى الشّرعي، فالأظهر للموفّق عكس هذا التوفيق، والحقّ

---

(١) **سورة:** الإسراء، الآية رقم: ٥٩.

(٢) **سورة:** الإسراء، الآية رقم: ٦٠

عنـد أهـل الحـقّ أنّ الهدايـة مشـتركة بـين المعنيـين المذكوريـن، وعـدم الإهـلاك، وبه يندفـع كثيرٌ مـن القال والقيـل، و(**المتقـين**): جمـع متّق اسـمُ فاعل من وقـاه فاتّقى، ففـاؤه واو لا تاء، والوقاية لغـة الصيانة مطلقًا، وشرعًـا صيانـة المـرء نفسـه عمّا يـضرّ في الآخـرة، والمراتب متعـدّدة لتعـدّد مراتب الضرر:

فأولاها: التوقّي عن الشرك.

والثانية: عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر.

والثالثـة: مـا أشـير إليـه بمـا رواه الترمـذي عنـه ﷺ: (**لا يبلـغ العبد أن يكـون من المتّقين حتـى يدع ما لا بـأس بـه حـذرًا مـمّا به بـأس**)[1]، وفي هـذه المرتبة يعتبر تـرك الصغائر.

(١) **الحديث:** سبق تخريجه في ص ١١٤.

(٣١)

جاء في كتاب فتح البيان لأبي الطّيب محمد صديق خان[1] القِنَّوجي رحمه الله (١٣٠٧هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(**ذلك الكتاب**): أي القرآن، وقيل فيه إضمار، أي هذا الكتاب الذي وعدتك به أو وعدت به على لسان موسى وعيسى أنْ أنزله عليك، قال ابن عباس في الآية يعني هذا الكتاب، وبه **قال**: **مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة،** والإشارة إلى الكتاب المذكور بعده، والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب، مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، ومنه **قوله تعالى:** ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[2] ، **وقوله:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[3] ، **وقوله:** ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾[4] **وقوله:** ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ﴾[5] .

---

(١) القنوجي: هو الإمام العلّامة المحقّق، محيي السنة، وقامع البدعة، أبو الطيب محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله القِنَّوجِي البخاري، نزيل بهوبال، ويرجع نسبه إلى زين العابدين بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب، وُلد المترجم في بلدة بانس بريلي شمالي الهند، ضحى الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٤٨، في منزل جدِّه لأمّه مفتي البلدة، ثمّ أتى به والده إلى وطنه قنوج، وبعد أن أتمّ خمس سنوات وطعن في السّادسة توفي والده، فرجعت به أمّه إلى بلدتها، وتربى في بيت جدِّه المذكور، واعتنت به أمُّه، وعيّنت له مدرسًا للقرآن، وقرأ الفارسية، ثمّ استفاد من أخيه أحمد حسن في العربية، فعني بهِ أخوهُ أحمد حيث أشرف على تعليمهِ وتثقيفهِ، ثمّ أخذ يطلب العلم وهو في مقتبل العمر، عاش المترجم أواخر سنواته مظلومًا مضطهدًا، وأُصيب سنة ١٣٠٧بمرض الاستسقاء وفاضت نفسُه، وكان ذلك في ليلة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثمائة وألف، وله من العمر تسع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. انظر: جلاء العينين للألوسي ص٦٢، والنفح المسكي لأحمد أبي الخير العطار ص١٠٤، وحلية البشر للبيطار ج١ ص٧٣، ونزهة الخواطر ج٢ ص٢٠٢، وتراجم علماء أهل الحديث في الهند للنوشهروي ج ١ ص٢٦٥.

(٢) **سورة**: السجدة، الآية رقم:٦.

(٣) **سورة**: الأنعام، الآية رقم: ٨٣.

(٤) **سورة**: يونس، الآية رقم: ١

(٥) **سورة**:الممتحنة الآية رقم: ١٠.

قال أبو السعود: وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ شأنه، وكوْنه في الغاية القاصية من الفضل والشّرف، **وقيل:** إنّ الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب:

فقيل: هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق.

وقيل: الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل، كما في صحيح مسلم عن **أبي هريرة** قال: قال **رسول الله** ﷺ: «**مّا قضى الله الخلق كتب في كتابٍ على نفسه فهو موضوعٌ عنده؛ إنّ رحمتي تغلب غضبي**»[1] ، وفي رواية: (**سبقت**)، وقيل الإشارة إلى ما قد نزل بمكة، **وقيل: إلى** ما في التوراة والإنجيل.

وقيل: إلى قوله قبله (**الم**) ورجّحه **الزمخشري**، وقد وقع الاختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما **حكاه القرطبي** وأرجحها ما صدرناه.

و(**الكتاب**): مصدر بمعنى المكتوب، وأصله الضمّ والجمع، ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها، والكتاب يجمع الحروف بعضها إلى بعض، وهو اسمٌ من أسماء القرآن.

(**لا ريب فيه**): أي لا شكّ فيه أنّه من عند الله، وأنّه الحقّ والصدق، وقيل هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه، والرّيب والشكّ مع التّهمة مصدر، وهو قلق النفس واضطرابها، ومنه **قوله:** ﷺ:«**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشكّ ريبة وإنّ الصدق طمأنينة**»[2] ، ومنه ريب الزمان وهو: ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، وقيل: الرّيب هو الشك مطلقًا.

---

(١) الحديث: ورد في صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشُه على الماء} {وهو ربّ العرش العظيم} حديث رقم ٧٠٢٦، وأخرجه أحمد (٣١٣/٢) قال: حدثنا عبد الرزاق بن همام، قال: حدثنا معمر، عن همام بن منبه، فذكره.

(٢) الحديث: سبق تخريجه في ص ٦٤.

وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافًا، وقد يستعمل الرّيب في التّهمة والحاجة، حكى ذلك **القرطبي**، **ومعنى هذا:** النّفي العام أي أنّ: الكتاب ليس بمظنّة للريب لوضوح دلالته وضوحًا يقوم مقامَ البرهان المقتضى لكوْنه لا ينبغي الارتياب فيه بوجهٍ من الوجوه.

(**هدى**): أي رشاد وبيان، وأنه يذكر وهو الكثير، وبعضهم يؤنّث أي هو هدى أو هذه هدى أو هو هادٍ لهم إلى الحقّ، والهدى مصدر، وهذا وزنٌ نادر في المصادر لم يردْ منه فيما قيل إلّا الهدى والتقى والسرى والبكا بالقصر في لغة، وزاد **الشاطبي**: لغى بالضمّ في لغة أيضًا، قال **الزمخشري**: وهو الدّلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابلته.

قال القرطبي: الهدى: هديان، هدى دلالة: وهو الذي يقدر عليه الرّسل وأتباعهم، **قال الله تعالى:** ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدّلالة والدعوة والتنبيه، وتفرّد سبحانه بالهدى الذي معناه: التأييد والتوفيق، **فقال لنبيه** ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه **قوله تعالى:** ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[4] ، **وقوله:** ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[5] .

(**للمتقين**): أي مَن ثبتت لهم التقوى، وتخصيص الهدى بالمتقين لما أنّهم المقتبسون من أنواره المُنتفعون بآثاره، وإنْ كانت هدايته شاملة لكلّ ناظرٍ من مؤمن وكافر، ولذا أطلقت في **قوله**: (**هدى للناس**) قاله أبو السعود.

قال ابن فارس: وأصلها في اللغة قلة الكلام.

---

(١) **سورة**: الرعد، الآية رقم: ٧

(٢) **سورة**: الشوربد، الآية رقم: ٥٢

(٣) **سورة**: القصص، الآية رقم: ٥٦.

(٤) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٥.

(٥) **سورة**: القصص، الآية رقم: ٥٦.

وقال في الكشاف: المتّقي في اللغة: اسمُ فاعل من قولهم وقاه فاتّقى، والوقاية الصيانة، وهو في الشّريعة الذي يقي نفسَه تعاطي ما يستحقّ به العقوبة من فعل أو ترك انتهى، **قال ابن مسعود:** وهُم المؤمنون.

وعن معاذ بن جبل أنّه قيل له: «مَن المتقون؟ فقال: قومٌ اتّقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة»(١) .

وعن أبي هريرة: «أنّ رجلًا قال له ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقًا ذا شوك، قال نعم، قال فكيف صنعت قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذلك التقوى»(٢).

وعن أبي الدرداء قال: «تمامُ التقوى أن يتقي الله العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنّه حلال خيفة أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الله»(٣)، وقد روي نحْو هذا عن جماعة من التابعين.

---

(١) الأثر: جاء في تفسير ابن أبي حاتم ج١ ص٣٣، وفي إسناده ميمون القصّاب، ضعيف.

(٢) الأثر: رواه البيهقي في الزهد الكبير برقم (٩٧٣) من طريقٍ عن هشام بن زياد، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه.

(٣) الأثر: جاء في كتاب الزهد لنعيم بن حماد، بَابٌ فِي التَّقْوَى، رقم الحديث: ٨٤.

(٣٢)

وجاء في تفسير القاسمي لمحمد جمال الدين القاسمي[1] رحمه الله (١٣٣٢هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

أي: هـذا القـرآن لا شـكّ أنّـه مـن عنـد الله تعالى، كما **قـال تعالى:** ﴿الـم {١/٣٢} تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ لَا رَيْبَ فِيـهِ مِـن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

قـال بعـضُ المحقّقـين: اختصـاص ذلـك بالإشـارة للبعيـد حكـمٌ عـرفي لا وضعي، فـإنّ العرب تعـارض بين اسـمي الإشـارة، فيسـتعملون كلًّا منهـما مـكانَ الآخر، وهـذا معروفٌ في كلامهـم، وفي التنزيل مـن ذلك آياتٌ كثـيرة، ومـن جـرى عـلى أنّ ذلك إشـارة للبعيد.

يقـول: إنّمـا صحّـت الإشـارة بذلـك هنـا إلى ما ليـس ببعيـد، لتعظيم المشـار إليـه، ذهابًا إلى بعـد درجته وعلـوّ مرتبتـه ومنزلته في الهدايـة والشرف.

---

(١) القاسمي: محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر، المعروف بالقاسمي نسبة إلى جدّه المذكور، وهو الإمام فقيه الشام وصالحها في عصرها الشيخ قاسم المعروف بالحلّاق، وكان أبوه (محمد سعيد) رحمه الله فقيهًا أديبًا، اشتغل في أول حياته بالتجارة ثمّ اعتزلها لأسباب لا نعرفها، وأمّه عائشة بنت أحمد جبينه، وجدته لأبيه فاطمة بنت محمد الدسوقي، ولد ضحوة يوم الاثنين لثمانٍ خلت من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف، في زقاق المكتبي، ظاهر باب الجابية، وبالقرب من قصر الحجاج في محلّة القنوات في دمشق الشام، ونشأ القاسمي في بيت عرف بالعلم والتقوى، وكان ذلك له أثرٌ كبير في توجيهه الوجهة التي تولّاها، واختاره الله لها،، بدأ الشيخ حياته العلمية مدرسًا في حياة والده فلمّا توفّي والده تولّى مكانه في خدمة إمامه في جامع السنانين بدمشق، ومارس نشاطه العلمي في التأليف والشرح والنقد والإصلاح حتى ازدهرت تأليفه، وكثرت مصنفاته، ووصل عددها إلى ما يقرب من الثمانين ما بين مخطوط ومطبوع، توفي رحمه الله تعالي في دمشق مساء السبت الثالث والعشرين من جمادى الأولى، سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق، وله من العمر تسعة وأربعون عامًا. انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج١ ص٧، الأعلام لخير الدين الزركلي ج٢ ص١٣٥، معجم المؤلفين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض ط١(١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

(٢) **سورة:** السجدة، الآية رقم: ١، ٢.

والرّيب في الأصل: مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة، وحقيقتُها: قلق النفس واضطرابها، ثمّ استعمل في معنى الشكّ مطلقًا، أو مع تهمة؛ لأنّه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة.

وفي الحديث: «**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[١]، ومعنى نفيه عن الكتاب، أنّه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث ليس فيه مظنّة أنْ يرتاب في حقيقته، وكوْنه وحيًا منزّلًا من عند الله تعالى، والأمر كذلك؛ لأنّ العرب، مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجّة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه، لا أنّه لا يرتاب فيه أحدٌ أصلًا.

(**هدًى للمتقين**) أي: هادٍ لهم ودالٌّ على الدين القويم المفضي إلى سعادتي الدارين.

قال الناصر في الانتصاف: الهدى يطلق في القرآن على معنييْن:

أحدهما: الإرشاد وإيضاح سبيل الحقّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[٢]، وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنّه رشد إلى الحق، سواء حصل له الاهتداء أو لا.

والآخر: خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٣].

فإذا ثبت ورودُه على المعنيين: فهو في هذه الآية يحتمل أن يُراد به المعنيان جميعًا.

وعلى الأوّل: فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم حتى يتبيّن أنهم هُم الذين اهتدوا وانتفعوا به **كما قال تعالى:**﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[٤] **وقال:** ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) الحديث: سبق تخريجه في ص ٦٤.

(٢) **سورة**:فصلت ، الآية رقم: ٧.

(٣) **سورة**: الأنعام، الآية رقم: ٩٠ .

(٤) **سورة**: النازعات ، الآية رقم: ٤٥.

الذِّكْـرَ ﴾[1] وقـد كان صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم، منـذرًا لـكلّ النـاس، فذكـر هؤلاء لأجـل أنّهم هُـم الذين انتفعـوا بإنـذاره، وهـذه الآيـة نظير آيـة: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِيـنَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاء وَالَّذِيـنَ لَا يُؤْمِنُونَ فِـي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِـمْ عَمًـى أُوْلَئِـكَ يُنَـادَوْنَ مِـن مَّـكَانٍ بَعِيـدٍ﴾[2] **وقولـه سـبحانه:** ﴿وَنُنَـزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَا هُوَ شِـفَاء وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِيـنَ وَلاَ يَزِيـدُ الظَّالِمِيـنَ إَلاَّ خَسَـارًا ﴾[3] **وكقولـه تعـالى:** ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَـةٌ مِّـن رَّبِّكُـمْ وَشِـفَاء لِّمَـا فِـي الصُّدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِيـنَ﴾[4] إلى غير ذلك، مـما دل على أنّ النفـع بـه لا ينالـه إلّا الأبرار.

والمـراد بالمتقـين هنـا: مـن نعتهم **اللـه تعالى بقولـه:** ﴿الَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُـمْ يُنفِقُونَ ﴾[5].

(١) **سورة:**، يس الآية رقم: ١١.

(٢) **سورة:**فصلت ، الآية رقم: ٤٤.

(٣) **سورة:** الإسراء ، الآية رقم:٨٢.

(٤) **سورة:** يونس ، الآية رقم: ٥٧.

(٥) **سورة:**البقرة ، الآية رقم: ٣.

(٣٣)

وجاء في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا[١] رحمه الله (١٣٥٤هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(**ذلك الكتاب**): الكتاب بمعنى المكتوب: وهو اسمُ جنسٍ لما يكتب، والمراد بالكتاب هذه الرّقوم والنقوش ذات المعاني، والإشارة تفيد التّعيين الشخصي أو النوعي، وليس المراد هنا نوعًا من أنواع الكتب، بل المراد كتاب معروف معهودٌ للنبي ﷺ بوصفه، وذلك العهد مبني على صدق الوعد من الله بأنه يؤيّده بكتاب تامّ كامل كافل لطلاب الحقّ بالهداية والإرشاد في جميع شئون المعاش والمعاد، فأشار بذلك إليه، ولا يضرّ أنّه لم يكن موجودًا كلّه وقت نزول أمثال هذه الإشارة، فقد يكفي في صحّتها وجود البعض، وقد كان نزل من القرآن جملةٌ عظيمة قبل نزول أول هذه السّورة، وأمر النبيﷺ بكتابتها فكتبت وحُفظت، فالإشارة إليها إشارةٌ إليه بل يكفي في صحّة الإشارة أنْ يشار إلى سورة البقرة نفسها؛ لأنّه يصحّ فيها وصف (**هدى**

(١) محمد رشيد رضا: هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار)، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام)، وتعلم فيها وفي طرابلس، وتنسّك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثمّ رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وكان قد اتّصل به قبل ذلك في بيروت، ثمّ أصدر مجلة (المنار) لبثّ آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، ولمّا أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦هـ) زار بلاد الشام، واعترضه في دمشق، وهو يخطب على منبر الجامع الأموي؛ أحدُ أعداء الإصلاح، فكانت فتنة، عاد على أثرها إلى مصر، ثمّ رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، وعاد، فاستقرّ بمصر إلى أن توفّي فجأة في (سيارة) كان راجعًا بها من السويس إلى القاهرة، ودفن بالقاهرة. انظر: أحمد الشرباصي: رشيد رضا صاحب المنار- إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة. إبراهيم العدوي- رشيد رضا الإمام المجاهد- المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، بدون تاريخ، أنور الجندي- أعلام وأصحاب أقلام- دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

للمتقـين) والأوّل أشـبه، والإشـارة إلى الكتـاب كلّـه عنـد نـزول بعضـه إشـارة إلى أنّ اللـه تعـالى منجـزٌ وعـدَه للنبـي ﷺ بإكـمال الكتـاب كلّه.

ومِـن حكمـة الإشـارة إليـه بهـذا الكتـاب (أي المكتـوب المرقـوم) أنّ **النبي** ﷺ أمـر: بكتابتـه دون غيره فهـو الكتـاب وحـده، ولا يـضرّ أنّـه عنـد النـزول لم يكن مكتوبًـا بالفعل، لأنـك تقول: أنـا أملي كتابًـا، أو هلمّ أملِ عليـك كتابًـا، والإشـارة البعيـدة بالـكاف يُـراد بهـا بعـد مرتبتـه في الكـمال، وعلـوّه عـن متنـاول قريحة شـاعر أو مقـول خطيـب قـوال، والبعـد والقـرب في الخطـاب الإلهـي إنّمـا بالنسـبة إلى المخلوقـين، ولا يقـال: إنّ شـيئًا بعيـدًا عنـه تعـالى أو قريبًـا منـه في المـكان الحـسي؛ لأنّ كلّ الأشـياء بالنسـبة إليه تعالى سـواء، وإنّما القـرب منـه والبعـد عنـه تعـالى معنـوي، وهو أقـرب إلينا مـن أنفسـنا بعلمه.

(**لا ريـب فيـه**) الرّيـب والرّيبـة: الشـكّ والظنّـة (التّهمـة) **والمعنـى**: أنّ ذلـك الكتـاب مـبرّأ مـن وصمات العيـب فـلا شـكّ فيـه، ولا ريبـة تعتريـه، لا مـن جهـة كوْنـه من عنـد الله تعـالى، ولا في كوْنـه هاديًا مرشـدًا، ويصـحّ أن يقـال: إنّـه في قـوة آياتـه ونصوع بيناته، بحيـث لا يرتاب عاقلٌ مُنصف وغير متعنّت ولا متعسّـف في كوْنـه هدايـة مفاضـة مـن سـماء الحـقّ، مُهـداة إلى الخلـق، عـلى لسـان أمّيّ لم يسـبقْ لـه قبله الاشـتغالُ بـشيء مـن علومـه، ولا الإتيـان بـكلام يقـرب منـه في بلاغتـه، ولا أسـلوبه حتـى بعـد نبوّتـه، ولهذا قـال فيما يـأتي قريبًـا ﴿وَإِن كُنتُـمْ فِـي رَيْـبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَـا عَلَـى عَبْدِنَا﴾[1].

وحاصلُـه: أنّـه كذلـك في كلّ مـن نظمـه وأسـلوبه وبلاغتـه، ومـن معانيـه وعلومـه وتأثـيره في الهداية لا يمكـن أن توجّـه إليـه الشـبهة، أو تحوم الرّيبة، سـواء أشـكّ في ذلـك أحدٌ بجهالتـه وعمى بصيرتـه، أو بتكلّفه ذلـك عنادًا أو تقليـدًا أم لا.

(**هـدًى للمتقـين**) خـبر بعـد خـبر، **والهـدى**: مصـدر في الأصـل كالتقـى والـسرى، والمـراد بالهدايـة هنـا: الدّلالـة عـلى الـصّراط المسـتقيم مـع المعونـة الخاصّـة والأخـذ باليـد عـلى مـا تقـدّم في تفسـير المـراد

(١) **سورة**:البقرة ، الآية رقم: ٢٣.

مـن (**اهدنـا الـصراط**) لأنّ كوْنـه هاديًـا للمتقـين بالفعـل غـير كوْنـه هاديًـا دالًّا لسـائر النـاس مـن غـير مراعاة أخذهـم بدلالتـه، واسـتقامتهم عـلى طريقتـه، وكلمـة (**المتقـين**) مـن الاتّقـاء، **والاسـم:** التقـوى، وأصـل المـادّة: وقـى يقـي، والوقايـة معروفـةُ المعنـى، وهـو: البعد أو التباعـد عن المُـضّر أو مدافعته، ولكن نجـد هذا الحرف مستعمَلًا بالنسـبة إلى **اللـه تعـالى كقوله:** ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾، ﴿وَاتَّقُواْ الـلـَه﴾، ﴿فَاتَّقُواْ الـلـَه يَـا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فمعنـى اتّقـاء اللـه تعـالى: اتقـاء عذابـه وعقابه، وإنّما تضـاف التقوى إلى اللـه تعالى تعظيـمًا لأمر عذابه وعقابـه، وإلّا فـلا يمكـن لأحـدٍ أن يتقـي ذات اللـه تعـالى ولا تأثـير قدرتـه، ولا الخضـوع الفطـري لمشـيئته، ومدافعـة عـذاب اللـه تعـالى تكـون باجتنـاب مـا نهـى واتّبـاع ما أمـر، وذلـك يحصـل بالخوف مـن العذاب ومـن المعـذِّب، فالخـوف يكـون ابتـداء مـن العـذاب وفي الحقيقـة مـن مصـدره، فالمتقـي: هـو مَـن يحمـي نفسـه مـن العقـاب، ولا بـدّ في ذلـك أن يكون عنده نظر ورشـد يعرف بهما أسـباب العقـاب والآلام فيتقيها.

وأقـول الآن: إنّ العقـاب الإلهـي الـذي يجـب عـلى النـاس اتقاؤه قسـمان: دنيـوي وأخـروي، وكلٌّ منهما يُتّقـى باتقـاء أسـبابه، وهـي نوعـان: مخالفـة ديـن الله وشرعـه، ومخالفة سـنته في نظـام خلقه.

فأمّـا عقـاب الآخـرة: فيُتقـى بالإيمـان الصحيـح الخالـص والعمـل الصالـح، واجتنـاب مـا ينـافي ذلـك من الـشرك والكفـر والمعـاصي والرّذائـل، وذلـك مبـيّن في كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ، وأفضـل ما يُسـتعان به عـلى فهمهـما واتّباعهـما سـيرة السـلف الصالح مـن الصحابة والتابعين والأئمـة الأوّلين من آل الرسـول وعلماء الأمصار.

وأمّـا عقـاب الدّنيـا: فيُجـب أن يُسـتعان عـلى اتّقائـه بالعلـم بسـنن اللـه تعـالى في هـذا العـالم، ولاسـيّما سـنن اعتـدال المـزاج وصحّـة الأبـدان وأمثلتهـا ظاهـرة وسـنن الاجتـماع البـشري، **فاتقـاء الفشـل والخـذلان في القتـال:** يتوقّـف عـلى معرفـة نظـام الحـرب وفنونهـا، وإتقـان آلاتهـا وأسـلحتها التـي

---

(١) **سورة:** المائدة، الآية رقم: ١٠٠.

ارتقت في هذا العصر ارتقاءً عجيبًا، وهو المشار إليه **بقوله تعالى:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللـهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١)، كما يتوقّف على أسباب القوّة المعنوية من اجتماع الكلمة واتّحاد الأمّة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده ﴿وَأَطِيعُواْ اللـهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

ونحن نُبيّن معنى التقوى في القرآن في كلّ موضوع بما يناسبه كالتّقوى في الأكل من الطيبات في سورة المائدة، ومثله في سياق تحريم الخمر منها، وغير ذلك فيراجع كلّ شيء في موضعه.

---

(١) **سورة**: الأنفال، الآية رقم: ٦٠.

(٢) **سورة**:الأنفال، الآيتان رقم: ٤٥، ٤٦.

(٣٤)

وجاء في تفسير المراغي للإمام أحمد بن مصطفى المراغي[1] رحمه الله (١٣٧١هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(**ذلِكَ الْكِتابُ**) الكتاب: اسمٌ بمعنى المكتوب، وهو النقوش والرّقوم الدّالة على المعاني، والمراد به الكتاب المعروف المعهود **للنبي** ﷺ الذي وعدَه الله به لتأييد رسالته وكفل به هداية طلاب الحقّ وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وفي التعبير به إيماء إلى أنّ **النبي** ﷺ لم يؤمر بكتابة شيء سواه، وعدم كتابة القرآن كله بالفعل حين الإشارة إليه لا يمنع الإشارة، ألا ترى أنّ من المستفيض الشائع في التخاطب أن يقول إنسان لآخر: هلمّ أملل عليك كتابًا، والكتاب لم يوجد بعد.

(**لا رَيْبَ فِيهِ**) الرّيب والرّيبة: الشك، وحقيقته قلق النفس واضطرابها، سمّي به الشك لأنّه يقلق النفس ويزيل منها الطمأنينة، **وقد جاء في الحديث: «دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشك ريبة والصّدق طمأنينة»**[2]، والمعنى أنّ هذا (**الكتاب**): لا يعتريه ريب في كوْنه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحدٌ أن يأتي بكلام يقرب منه

---

(١) المراغي: هو أحمد بن مصطفى المراغي، مفسّر مصري، من العلماء، من مركز المراغة، محافظة سوهاج بصعيد مصر، وينتهي نسبه الشريف إلى الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت النبي محمد ﷺ، وقد كان على قدر من العلم والثقافة، حفظ القرآن، وتلقّى نصيبًا من المعارف العامة، ولنجابته بعث به والدُه لطلب العلم في الأزهر بالقاهرة، فتلقى العلم على كوكبة من علمائه، وتأثر بأصحاب التيار المجدّد، تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩م، توفي بالقاهرة عام ١٣٧١هـ الموافق لسنة ١٩٥٢م، له كتب، منها: الحسبة في الإسلام- رسالة مطبوعة، وكتاب الوجيز في أصول الفقه- مطبوع في مجلدين، وكتاب تفسير المراغي- مطبوع في ثمانية مجلدات، وكتاب علوم البلاغة- طبعة الأزهر. انظر: كتاب الأعلام- خير الدين الزركلي.

(٢) الحديث: سبق تخريجه في ص ٦٤.

بلاغة وفصاحة، وإلى هذا أشار **بقوله:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، وارتياب كثير من الناس فيه، إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عمى بصيرتهم، أو عن التعنّت عنادًا واستكبارًا واتّباعًا للهوى أو تقليدًا لسواهم.

(**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) **فالهدى بالنظر إلى المتقين**: هو الدّلالة على الصراط المستقيم مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه، إذْ هُم قد اقتبسوا من أنواره وجنوا مِن ثماره، وهو لغيرهم هدّى ودلالةٌ على الخير وإنْ لم يأخذوا بهديه وينتفعوا بإرشاده، وكوْن بعض الناس لم يهتدوا بهديه لا يُخرجُه عن كوْنه هدًى، فالشمس شمس وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسل وإن لم يجد طعمَه ذو المرّة.

والمتقين: واحدهم متّقٍ، من الاتقاء وهو الحجزُ بين الشيئين، ومنه يقال اتّقى بترسه أي جعله حاجزًا بين نفسه ومَن يقصده، فكأنّ المتّقي يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزًا بينه وبين العقاب الإلهي.

والعقاب الذي يتّقى ضربان: دنيوي وأخروي، وكلٌّ منهما يُتّقى باتقاء أسبابه.

فعقابُ الدنيا: يُستعان على اتّقائه بالعلم بسنن الله في الخليقة، وعدم مخالفة النّظم التي وضعها في الكون.

فاتّقاء الفشل والخُذلان في القتال مثلًا يتوقّف على معرفة نظم الحرب وفنونها وآلاتها، كما يشير إلى ذلك **قوله تعالى:**﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٢]، كما يتوقّف على القوّة المعنوية من اجتماع الكلمة واتّحاد الأمّة، والصبر والثبات والتوكّل على الله واحتساب الأجر عنده.

(١) **سورة**: البقرة، الآيتان رقم: ٢٣.

(٢) **سورة**:الأنفال، الآيتان رقم:٦٠.

وعقـاب الآخـرة: يُتّقـى بالإيمان الخالـص، والتوحيد والعمل الصالـح، واجتناب ما يضـادّ ذلك من الشّرك، واجتنـاب المعـاصي والآثـام التي تضرّ المـرء أو تضرّ المجتمع.

والمتّقـون في هـذه الآيـة: هُـم الذين سـمتْ نفوسُـهم، فأصابت ضربًا مـن الهداية واسـتعدادًا لتلقّي نور الحـقّ، والسـعي في مرضـاة اللـه بقـدر مـا يصـل إليـه إدراكهـم ويبلغ إليـه اجتهادهـم، وقد كان مـن هؤلاء نـاسٌ في الجاهليـة، كرهـوا عبـادةَ الأصنـام، وأدركـوا أنّ خالـق الكون لا يـرضى بعبادتها، كذلـك كان من **أهل الكتـاب نـاس:** ﴿يُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَيَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَيُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ وَأُوْلَئِـكَ مِـنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

(١) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ١١٤

(٣٥)

وجاء في تفسير الشيخ محمد حامد الفقي[1] رحمه الله (١٣٧٨هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: إخبارٌ من الله تعالى بأنّ هذا القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ: لا يتطرّق الرّيب إليه من أي ناحية، ولا يخطر الشكّ في نفس سامعه منصفًا، في ذلك الأسلوب المُعجز، وفي تلك المعاني، والأحكام والشّرائع، والقصص، والأخبار الغابرة والآتية التي لن يستطيع البشر مُجتمعين، فضلًا عن ذلك الأمي: أنْ يقولها من نفسه، أو ينطق بها لسانه، من سمع القرآن كذلك منصفًا ما يشكّ لحظة أنّه من عند الله العليم الحكيم، اللطيف الخبير، ويعلم أيضًا: أنّه ليس للشكّ إلى حقائقه سبيل، ولا للرّيب إلى أخباره ومقاصده أي استطراق، وتفهّم هذا أوضح إذا **قرأت قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[2]، فتستفيد من قوله **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معنيين:**

---

(١) **الفقي**: هو محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية، ولد محمد حامد الفقي بقرية جزيرة نكلا العنب في سنة ١٣١٠ هـ الموافق ١٨٩٢م، بمركز شبراخيت مديرية البحيرة، نشأ في كنف والدين كريمين، فوالده أحمد عبده الفقي تلقى تعليمه بالأزهر، ولكنه لم يكمله لظروف اضطرّته لذلك، أمّا والدته فقد كانت تحفظ القرآن وتجيد القراءة والكتابة، وبين هذين الوالدين نما وترعرع وحفظ القرن وسنّه وقتذاك اثنا عشر عامًا، ولقد كان والده أثناء تحفيظه القرآن يوضّح له معاني الكلمات الغريبة ويعلّمه مبادئ الفقه حتى إذا أتَمّ حفظ القرآن كان ملمًّا إلمامًا خفيفًا بعلومه ومهيّأ في الوقت ذاته لتلقي العلوم بالأزهر على الطريقة التي كانت متبعة وقتذاك، يقول عنه الشيخ عبد الرحمن الوكيل: «لقد ظلّ إمام التوحيد (في العالم الإسلامي) والدنا الشيخ محمد حامد الفقي ـ أكثر من أربعين عامًا مجاهدًا في سبيل الله. ظل يجالد قوى الشرّ الباغية في صبر، مارس الغلب على الخطوب، واعتادَ النصر على الأحداث، توفي فجر الجمعة ٧ رجب ١٣٧٨هـ الموافق ١٦ يناير ١٩٥٩م على إثر عملية جراحية أجراها بمستشفى العجوزة، وبعد أنْ نجحت العملية أصيب بنزيف حاد، وعندما اقترب أجله طلب ماءً للوضوء ثمّ صلى ركعتي الفجر بسورة الرّعد كلّها. وبعد ذلك طلب من إخوانه أن ينقل إلى دار الجماعة حيث توفّي بها. انظر: المجموع للشيخ حماد الأنصاري ج١ ص٢٩٤-٢٩٧، الموقع الرسمي لجمعية أنصار السنة.

(٢) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ٤٢.

الأوّل: أن القرآن من عند الله لا شكّ فيه.

الثّاني: أنّه منزّه في جُملته وتفصيله، وألفاظه ومعانيه، وغايته ومقاصده عن الباطل، فصفات الله التي وصف بها نفسه فيه: حقّ لا شكّ فيه، وما وصف الأمم السابقة: حقّ لا شكّ فيه، وما وصف الدّار الآخرة: حقّ لا شكّ فيه، وما صف به خلق السّموات والأرض، وخلق الإنسان والجان: حقّ لا شكّ فيه، وما وصف به المؤمنين وما أعدّ لهم: حقّ لا شكّ فيه، وما وصف به أنواع الكفر والشرك والكافرين والمشركين وما أعدّ لهم: حقّ لا شكّ فيه، وما فصل فيه من آداب وأخلاق، ضمن لمَن تأدّب بها وتخلّق سعادة الدنيا والآخرة: حقّ لا شكّ فيه، وما فصل فيه من أسباب رقي الأمم وعزتهم وأسباب انحلالهم وضعفهم وذلتهم: حقّ لا شكّ فيه.

﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾: **التقوى**: هي اتّخاذ الوقاية التي تقيك وتحفظك من كلّ ما يضّرك في نفسك وروحك وجسمك، ودنياك وآخرتك.

فمِن الناس: مَن يكون عنده استعدادٌ فطري، وتهيّئ طبيعي، وتوجّه باطني، يدفعه دائمًا إلى تعرّف أسباب الخير والفلاح، فيتّخذها سبيلًا لوقاية نفسه، وتعرّف جالبات الشقاء فيتجنّبها جهد استطاعته، فصاحبُ هذا الاستعداد ينتفع بهداية القرآن في تحديد أسباب الخير والفلاح تحديدًا دقيقًا، والكشف عن أسباب الشّقاء كشفًا يجلوها عن كلّ لبس وزخرف، **فيكون القرآن** له سراجًا منيرًا، **ويكون القرآن** له هاديًا وإمامًا، يقوده إلى كلّ خير، **ويباعده** عن كلّ شر، في نفسه وعقله وروحه وجسمه، ودنياه وآخرته.

ومِن النّاس: مَن هو جامدُ الطبع، خامل النفس، ميّت الفكر، لا يعنى بتعرّف أسباب الهدى بنفسه، ويرى أنّه أصغر وأقلّ من أنْ يصل إلى ذلك بنفسه، فهو إمّعة، يقلّد غيره تقليدًا أعمى، ويضع نفسه موضعَ البهائم التي تُقاد من أعناقها، **فأولئك** الذين يقولون ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1]، **وأولئك** الذين **قال الله فيهم:** ﴿ وَمِنَ النَّاسِ

---

(١) **سورة**: الزخرف، الآية رقم: ٢٣.

مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾[1]، **وأولئك** هم الذين يجمدون بالتقليد الأعمى على ما ورثوا عن الآباء، وعلى ما وجدوا عليه الشيوخ والجمهور وأكثر الناس، **وأولئك** هم الذين تدلّ أحوالهم هذه وأقوالهم على أنّهم في ريْب من الكتاب، وأنّهم في شكّ مِن صدق الرسول- صلى الله عليه وسلم- مُريب، **وأولئك** هُم الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، كلّ حزب بما لديهم فرحون، **وأولئك** هُم البلاء النّاصب، والشّر المستطير على أنفسهم وعلى ما ينتسبون إليه من دين، **وأولئك** هُم الذين ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾[2]، **وهم الذين** يقولون يوم القيامة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[3]، **وهم الذين** ذكر الله من خزيهم ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ {١٦٦/٢} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[4]، **وحذّرهم الله** عاقبة تقليدهم الأعمى، وما ينالون من عذاب وحسرة:﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا {٢٧/٢٥} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا {٢٨/٢٥} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[5].

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٦٥.

(٢) **سورة**: التوبة، الآية رقم: ٣١ .

(٣) **سورة**: الأحزاب، الآية رقم: ٦٧.

(٤) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٦٦، ١٦٧.

(٥) **سورة**: الفرقان، الآيات رقم: ٢٧، ٢٨ ،٢٩.

(٣٦)

وجاء في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطّاهر ابن عاشور[١] رحمه الله (١٣٩٣هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(**ذلـك الكتـاب**): مبـدأ كلام لا اتّصـال لـه في الإعـراب بحـروف (**الم**) كـما علمـت مـمّا تقـدّم عـلى جميع الاحتـمالات كـما هـو الأظهـر، وقـد جـوّز صاحـب الكشـاف عـلى احتـمال أن تكـون حـروف: (**الم**) مسـوقة مَسـاق التهجّـي لإظهـار عجـز المشركـين عـن الإتيان بمثل بعـض القرآن، أن يكون اسـمُ الإشـارة مشـارًا به إلى (**الم**) باعتبـاره حرفًـا مقصـودًا للتعجيـز، أي ذلـك المعنـى الحاصـل مـن التهجّـي، أي ذلك الحـروف باعتبارها مـن جنـس حروفكـم هي الكتـاب، أي منها تراكيبـه فما أعجزكم عـن معارضته، فيكون (**الم**) جملة مسـتقلّة مسـوقة للتعريـض، واسـمُ الإشـارة مبتدأ والكتـاب خبرًا.

---

(١) **ابن عاشور**: هو محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الطَّاهر بن محمد بن محمد الشَّاذلي بن عبد القادر بن محمد (بفتح الميم) ابن عاشور، وهذا الأخير من أشراف الأندلس، قدِم إلى تونس واستقرَّ بها بعد خروج والده من الأندلس فارًّا من القهر والتَّنصير، وكان عالمًا عاملًا صالحًا، ولد في ضاحية المَرْسى، قرب العاصمة التونسيَّة، سنة ١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م. ونشأ في رحاب العلم والجاه، فسلك تعلُّم القرآن الكريم في سنِّ السَّادسة، فقرأه وحفظه على المقرئ الشيخ محمد الخياري، ثمّ حفظ مجموعةً من المُتون، وتلقَّى قواعد العربيَّة على الشيخ أحمد بن بدر الكافي، تحمَّل الطاهر بن عاشور العلم عن أعيان علماء تونس وشيوخ جامع الزيتونة، تُوفِّي محمد الطَّاهر ابن عاشور عن أربع وتسعين سنة في ضاحية المَرْسَى قرب تونُس العاصمة، يوم الأحد ١٣ من رجب سنة ١٣٩٤هـ الموافق ١٢ من آب (أغسطس) ١٩٧٣م. ووُري الثَّرى بمقبرة الزَّلَّاج. انظر: كتاب (محمد الطَّاهر ابن عاشُور، علَّامة الفِقه وأُصوله والتَّفسير وعُلومه)، تأليف: إياد خالد الطَّباع، وهو الكتاب رقم (٢٦) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وقضايا الإصلاح في الفكر الإسلامي المعاصر: رؤية معرفية ومنهجية. تحرير د. فتحي حسن ملكاوي، الأعلام: للزركلي.

وعلى الأظهر: تكون الإشارةُ إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ، واسمُ الإشارة مبتدأ والكتاب بدل وخبرُه ما بعده، فالإشارةُ إلى الكتاب النّازل بالفعل وهي السّور المتقدمة على سورة البقرة؛ لأنّ كلّ ما نزل من القرآن فهو المعبّر عنه بأنّه القرآن وينضمّ إليه ما يلحق به، فيكون (**الكتاب**) على هذا الوجْه أطلق حقيقة على ما كتب بالفعل، ويكون قوله: (**الكتاب**) على هذا الوجه خبرًا عن اسم الإشارة، ويجوز أن تكون الإشارةُ إلى جميع القرآن ما نزل منه وما سينزل لأنّ نزوله مترقّب، فهو حاضرٌ في الأذهان فشُبِّه بالحاضر في العَيان، فالتعريف فيه للعهد التقديري والإشارة إليه للحضور التّقديري، فيكون قوله الكتاب حينئذ بدلًا أو بيانًا من ذلك، والخبر هو لا ريب فيه، ويجوز الإتيان في مثل هذا باسمِ الإشارة الموضوع للقريب والموضوع للبعيد، وكذا يجوز لك في الكلام المسموع عن قريبٍ أنْ تشير إليه بلفظ الغيبة والبعد، كما تقول: والله وذلك قسم عظيم، لأنّ اللفظ زال سماعه فصارَ كالغائب، ولكنّ الأغلب في هذا الإشارة بلفظ الحضور فتقول: وهذا قسم عظيم، أي الأكثر في مثله الإتيان باسم إشارة البعيد، ويقلّ ذكره بلفظ الحاضر، وعكس ذلك في الإشارة للقول، **وابن مالك** في التّسهيل سوَى بين الإتيان بالقريب والبعيد في الإشارة لكلام متقدّم إذ قال: وقد يتعاقبان أي اسم القريب والبعيد مشارًا بهما إلى ما ولياه أي من الكلام، ومثله شارحه بقوله تعالى بعد قصة **عيسى:** ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[١] ثمّ قال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[٢] فأشار مرّة بالبعيد ومرّة بالقريب والمُشار إليه واحد، **وكلام ابن مالك:** أوفق بالاستعمال إذ لا يكاد يحصر ما ورد من الاستعمالين.

وقولُه: (**الكتاب**)، يجوز أن يكون بدلًا من اسم الإشارة لقصد بيان المُشار إليه لعدم مشاهدته، فالتعريف فيه إذًا للعهد، ويكون الخبرُ هو جملة: (**لا ريب فيه**)، ويجوز أن يكون (**الكتاب**): خبرًا عن اسم الإشارة ويكون التعريف تعريف الجنس، **فتفيد الجملة:** قصر حقيقة

---

(١) **سورة:** آل عمران، الآيات رقم: ٥٨.

(٢) **سورة:** آل عمران، الآيات رقم: ٦٢.

(**الكتـاب**): عـلى القـرآن بسـبب تعريـف الجزئـين، فهـو إذًا قـصر ادّعـائي، ومعنـاه ذلك هـو الكتـاب الجامع لصفـات الكـمال في جنـس الكتـب بناءً عـلى أنّ غيره من الكتب إذا نسـبت إليه كانت كالمفقـود منها وصف الكتـاب لعـدم اسـتكمالها جميـع كـمالات الكتـب، وهـذا التعريف قـد يعبّر عنـه النحاة في تعـداد معاني لام التعريـف بمعنـى الدّلالـة عـلى الكمال، فلا يـرد أنّه كيف يحصر (**الكتـاب**) في أنه: (**الم**) أو في السـورة أو نحو ذلـك إذْ ليـس المقـام مقـام الحـصر، وإنّمـا هـو مقـام التعريـف لا غـير، ففائـدةُ التعريـف والإشـارة ظاهرية وليـس شيء مـن ذلـك لغـوًا بحـال، وإن سـبق لبعـض الأوهام على بعـض احتمال.

و(**الكتـاب**): بـوزن فِعـال، بمعنـى المكتـوب إمّـا مصـدر كاتب المصـوغ للمبالغـة في الكتابة، فـإنّ المصدر يجـيء بمعنـى المفعـول كالخلـق، وإمّـا فعال بمعنـى مفعول كلباس بمعنـى ملبوس وعماد بمعنـى معمود به، واشـتقاقه مـن كتـب بمعنـى جمـع وضـمّ لأنّ الكتـاب تجمـع أوراقه وحروفـه، فـإنّ **النبي** ﷺ: أمـر بكتابة كلّ مـا ينـزل مـن الوحـي وجعـل للوحـي كتابًـا، وتسـمية القـرآن كتابًـا إشـارة إلى وجـوب كتابتـه لحفْظـه، وكتابـة القـرآن فـرض كفاية على المسـلمين.

(٣٧)

وجاء في زهرة التفاسير لمحمد أبي زهرة[1] رحمه الله (١٣٩٤هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

الإشـارةُ هنـا إلى الحـروف (الم) التـي تتألّـف مـن كلـمات الكتـاب العزيـز الحكيـم، ولذلك قيـل إنّ (الم) اسـم للسّـورة، ولكـن نقـول إنّ هـذه الإشـارة إلى الحـروف باعتباريـن: **أوّلهـما**: أنّ هـذه هي الحـروف الذي كـوّن منهـا الكتـاب المعجـز الـذي تحدّى بـه الإنسـانية كلها.

والثّـاني: أنهـا اسـمٌ للسّـورة التـي افتُتحـت بهـا، وذلك مـن قبيل إطلاق اسـم الـكلّ وإرادة الجـزء، أو أنّ جـزء القـرآن قـرآن يتحـدّى، ألم تـر أنّ اللـه تعـالى تحدّاهـم أن يأتوا بسـورة مـن مثله.

(١) **أبو زهرة**: هو محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعروف بأبي زهرة، وُلِد في المحلَّة الكبرى التَّابعة لمحافظة الغربيَّة بمصر في (١٣١٥هـ / ١٨٩٨م)، في أسرة دينيّة، حيث كان والدُه مشهورًا بالالتزام ومكارم الأخلاق، وكانت والدته حافظة للقرآن الكريم. في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م، التحق بالجامع الأحمديُّ بمدينة طنطا، الّذي كان منارةَ العلمِ في مصر آنذاك، بعد الأزهر الشريف، ودرس فيه لمدّة ثلاث سنواتٍ، وفي سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م انتقل إلى مدرسة القضاء الشَّرعيِّ، حيث آنَس منه ناظرُها عاطف باشا بركات مخايل الذّكاء والنّجابة، فأولاه رعايةً واهتمامًا، فمكثَ بها تسع سنواتٍ، أربعة في القسم الثّانويّ، وخمسةً في القسم العالي، ليتخرّج فيها عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، حاصلًا على عالِميَّة القضاء الشرعي. وفي سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م نالَ معادلة دار العلوم، جامعًا بين التّخصُّص في العلوم الشّرعيّة، والتّخصّص في اللّغة العربيّة، في صباح يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ١٩٧٤م، وهو اليومُ المُقرّر لعقد المؤتمر؛ قام فضيلتُه بمعاينة المكان، ثمّ عاد إلى حجرة مكتبه، واستأنف عمله في تفسير سورة النَّمل، إلى أنْ رُفِع أذانُ الجمعة، فنزل فضيلتُه حاملًا القلمَ والأوراقَ، والمصحفَ مفتوحًا على آخر ما وصلَ إليه في التَّفسير، فتعثَّر وسقط ساجدًا على المصحف وأوراق التَّفسير، فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب من ذلك اليوم، وهكذا قدّر الله أنْ يكون ذلك السّرادَقُ سرادقًا للعزاء فيه. انظر: تعريف بالإمام الجليل محمد أبو زهرة، عن: زهرة التّفاسير، لأبي زهرة، دار الفكر العربيّ، الأعلام، للزّركلي: ج٦ ص٢٥، أبو زهرة عالمٌ يعرف قدره، أحمد تمام، ملتقى أهل الحديث بالشَّبكة العنكبوتية.

(**ذلك الكتاب**) والإشارةُ هنا للبعيد، وموضوعها قريب؛ لأنّ الحروف جاء بعدها فورًا ذكرُ الكتاب فكان الظاهرُ أنْ تكون الإشارة بما يدلّ على القرب، كـ (هذا) الكتاب، ولكن لأنّ (**الم**): تدلّ على السّورة التي هي جزءٌ متكامل من الكتاب، أو الكتاب نفسه، وقد نزل من الروح الأقدس، فنزل من العلا إلى **النّبي** المرسل، فكان ذلك إشعارًا بالبعد بين الملكوت الأعلى وخلق الله سبحانه وتعالى، أو **يقال**: إنّ الإشارة بالبعيد تنويهٌ بذكره وعلوّ مقامه، فإنّه تكون الإشارة بالبعيد في هذا المقام، وأي مقام يقارب كتاب الله تعالى، فهو عليٌّ في ذاته، ثقيلٌ في ميزانه كما **قال تعالى**: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، وفي **قوله تعالى**: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ﴾ فيه ثلاثة وقوف:

أوّلها: الوقوفُ عند (**الكتاب**)، وتكون (**ذلك**) مبتدأ، والكتاب خبر، ويكون فيه تعريف الطّرفين الذي يدلّ على القصر، أي ذلك وحده هو الجدير بأنْ يسمو، فلا يعلو علوّه كتاب، ولا يناصي سمته مقروءٌ سواه، إذْ هو تنزيلٌ من ربّ العالمين، وفيه علم بشرائع الله تعالى، ويكون **قوله تعالى**: (**لا ريب فيه**): جملة مستقلّة على هذه القراءة، وهي تأكيدٌ لمعنى العلوّ والسموّ فيه، إذ أنّه لا شكّ في حقائقه، وهي بيّنة تهتدي إليها العقول، ولا ترتاب فيها، فهو حجّة بصدقه في ذاته، وإدراك العقول لحقائقه، وهذا شرفٌ ذاتي فيه، وهو لا ريَب في أنّه من عند الله، إذ تحدّى المقاول من قريش وفحول الكلام منهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكان ذلك شرفًا إضافيًّا فوق شرفه الذاتي.

والثّاني: الوقفُ عند (**لا ريب**)، ومؤدّاها مقاربٌ من مؤدّى القراءة السابقة تقريبًا، إذ المؤدّى أنْ يكون **المعنى**: ذلك هو الكتاب بلا ريب، ويكون **قوله تعالى**: (**فيه هدى للمتقين**): جملة جديدة مستقلّة، وتكون لبيان كماله فوق أنّه لا ريب فيه.

والثّالث: الوقوفُ عند كلمة (**فيه**)، ويكون المعنى كالمعنى السابق، ثمّ يكون **قوله تعالى**: (**هدى للمتقين**): جملة مستقلّة، وهذه القراءات تتّجه كلّها إلى سموّ القرآن وعلوّه، وأنه فوق طاقة البشر، وفوق علم الناس، أنّه كتاب الله العلي الحكيم.

---

(١) **سورة**: المزمل، الآيات رقم: ٥.

ومعنى لا ريبَ فيه: أنّه لا يعتريه الرّيب لكمال حقائقه ووضوح مقاصده، والبراهين القاطعة المثبتة أنّه من عند الله تعالى، فلا مساغ لمُرتاب أن يرتاب، وإذا كان قد وقع فيه إنكار، فلأنّهم جحدوا آيات الله تعالى، واسْتيقنتها أنفُسهم، والنفي لوقوع الريب منه في ذاته، ويضلّ ناس فيجحدون ولا يؤمنون، ولا ينفي ذلك أنّه لا مكان للريب، ولا موضع له، إذ هو ارتياب حيث اليقين، وإنكار حيث يجب الإيمان، وهو الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من أي ناحية من نواحيه.

وأمّا هدى للمتقين: الهدى مصدرٌ على وزن فعل، كالسرى، والبكى، ومعناه الدلالة على الطريق الموصل للغاية الذي لا اعوجاج فيه، ولا تستعمل غالبًا إلّا للتوصيل إلى الخير، بدليل مقابلتها بالضّلالة في **قوله تعالى:** ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[١]، وبدليل نسبة الهدى إلى الله تعالى، فقد قال **تعالت كلماته:** ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ﴾[٢] والمهتدي مَن انتفع بما وجد من هداية، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[٣]، **وإذا قيل:** إنّ الهداية إنّما تكون للضّالين ليسترشدوا، ويسيروا في طريق الحق، ويبتعدوا عن الغواية، وما يدفع إليه من ضلالة كما **قال تعالى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[٤]، **نقول في الإجابة على ذلك:** إن المراد بالمتقين ليس من وصلوا إلى أقصى درجات الهداية؛ إنّما المراد مَن شارفوها وطلبوها وأرادوها، وحاولوا الازدياد من العلم، ولم تكنْ قلوبهم متحجّرة، مبلسة، لا تسترشد ولا تهتدي، وبيان ذلك أنّ الله تعالى خلق النفوس وسواها، وألهمها فجورها وتقواها، فمِن النفوس مَن فطرها الله تعالى على الفطرة المستقيمة المدركة للحقّ في ذاته، التي تتّجه إلى الحقّ تبتغيه وتريده، وتظلّ في حيرة حتى تجد المرشد من السماء برسول مبين يرشدها إلى صراط مستقيم، كأولئك الحنيفيّين الذين رفضوا عبادة الأوثان لأنها لا تنفع ولا تضرّ، ولا يتبعها إلّا الغاوون، إنّ هذه نفوس متّقية تبتغي الرشاد، فتكون

(١) **سورة:** البقرة، الآيات رقم:١٦.

(٢) **سورة:** آل عمران، الآيات رقم:٧٣.

(٣) **سورة:** يونس، الآيات رقم:١٠٨.

(٤) **سورة:** الضحى، الآية رقم: ٧.

مصغيـةً للحـقّ عنـد الدعـوة إليـه متبعـةً للنـور إذا أشرق، وهـذا مـا نـراه موضعًـا للتعبـير بقولـه تعالـتْ كلماتـه: (**هـدى للمتقـين**).

والمتّقـون مشـتقّ مـن الوقايـة، يقـال: وقـاه الله تعالى، ووقى نفسَـه السـوء، **وقـال تعالى:** ﴿وَمَـن يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾[١]، واتقـى: افتعل، من وقى، فهـي في أصلها: اوتقى، ثـمّ قلبت الواو تـاء، فأدغمـت في تـاء الافتعـال، فصـارت اتقى، ومنه أخـذت التقى، والتّقاة، كـما **قال تعالى:** ﴿اتَّقُواْ اللـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُـنَّ إِلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ﴾[٢]، والمتقـون مراتـب في إدراكهـم لتقوى الله تعـالى، وأعلاها: إدراكهـم لمعنـى الحـقّ وخضوعهـم لما يطلبـه، وإنهم بهـذا يطيعونه ويسـتجيبون له، ويلتزمونـه، وينطبق عليهـم **قـول اللـه تعـالى:** ﴿وَأَلْزَمَهُـمْ كَلِمَـةَ التَّقْـوَى﴾[٣] فـإذا علا في نفوسـهم طلـب الحق والاسـتعداد له؛ تركـوا شرّ الأشرار مهتديـن بهديـه، وتجنّبوا الإسـاءة إلى غيرهم، فإذا سـاروا في مدارج الهدايـة والتقوى نزّهوا أنفسـهم عـن كلّ مـا يخالـف الحـقّ، وصـارت قلوبهم نـورًا مبصرًا، وكانـوا أولياء اللـه تعـالى، وينطبق عليهم **قـول اللـه تعـالى:** ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـواْ وَاتَّقَـواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَـرَكَاتٍ مِّـنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٤]، إلّا إنّ هـؤلاء هُـم المتّقـون الذيـن ينتفعـون بهداية اللـه، وإنّ علم الله تعـالى وهدايته قد مثلـه **النبي** ﷺ بغيث ينـزل مـن السـماء فيجـيء إلى أرض طيبـة فتنبـت النبـات الطيـب، وينـزل عـلى أرض لا تنبت، ولكـن ينتقل منهـا إلى أخـرى تنبـت فيهـا النبـات الطيـب، وهناك أرض هـي قيعان لا تنبـت، ولا ينتقل منهـا إلى غيرها.

---

(١) **سورة**: الحشر، الآية رقم: ٩.

(٢) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ١٠٢.

(٣) **سورة**: الفتح، الآية رقم: ٢٦.

(٤) **سورة**: الأعراف، الآية رقم: ٩٦.

(٣٨)

وجاء في تفسير ابن عثيمين[1] رحمه الله (١٤٢١هـ):

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى: (**ذلك الكتاب**): (**ذا**): اسم إشارة، واللام للبعد، فإذا كان المشار إليه بعيدًا تأتي بهذه اللام التي نسمّيها: لام البعد، أمّا الكاف فهي للخطاب، وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:

اللغة الأولى: مراعاة المخاطب، فإن كان مفردًا مذكّرًا فُتِحت، وإن كان مفردًا مؤنّثًا كُسِرت، وإن كان مثنى قُرنت بالميم، والألف: (**ذلكما**)؛ وإن كان جمعًا مذكّرًا قُرنت بالميم: (**ذلكم**)، وإن كان جمعًا مؤنّثًا قُرنت بالنّون المشددة: (**ذلكنَّ**)، وهذه هي اللغة الفصحى.

(١) **ابن عثيمين:** هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقّق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد ابن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين، من الوهبة من بني تميم، ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام (١٣٤٧هـ) في عنيزة- إحدى مدن القصيم في المملكة العربية السعودية، ألحقه والده رحمه الله تعالى- ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمّه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ- رحمه الله-، ثمّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبد العزيز بن صالح الدامغ- حفظه الله، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبد الله الشحيتان رحمه الله حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب، ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد، وأمّا وفاته فإنّه لمّا نقل من الحرم في آخر يوم بعد ما انتهى من الدرس من شدّة الالتهاب الرئوي الذي أصابه إلى جدّة في العيد، عولج من هذا الالتهاب الرئوي، وكان طيلة الوقت، إذا أفاق يقرأ القرآن ويذكر الله، قال: وفي آخر ليلتين اشتدّ عليه المرض جدًّا، وكان الشيخ يعاني أيضًا من مرض السّرطان، وفي يوم وفاته بعد الظهر الساعة الواحدة والنصف دخل في غيبوبة إلى الساعة السادسة إلّا عشر دقائق، وأعلنت وفاته قبيل مغرب يوم الأربعاء ١٥ شوال سنة ١٤٢١هـ بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، وصلّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ الموافق ١١ يناير عام ٢٠٠١ عن عمر ناهز ٧٢ عامًا، ودفن بمكة المكرمة. انظر: العلاّمة محمد بن صالح العثيمين، اللجنة العلمية، في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الموسوعة الحرّة على الإنترنت ويكيبيديا، موقع المختار الإسلامي على الإنترنت، مجلة الجندي المسلم العدد ١٠٢.

اللغـة الثانيـة: لـزوم الفتـح والإفـراد مطلقًا، سـواء خاطبت مذكـرًا، أو مؤنثًـا، أو مثنـى، أو جمعًا، فتقول للرجـل: **(ذلـكَ)**، وللمـرأة: **(ذلكَ)**، وللاثنـين: **(ذلكَ)**، وللجماعـة: **(ذلك)**.

اللغـة الثالثـة: أن تكـون بالإفـراد سـواء كان المخاطـب واحـدًا، أم أكـثر، مفتوحـة في المذكـر مكسـورة في المؤنّـث، فتقـول: (**ذلـكَ**) إذا كان المخاطـب مذكـرًا؛ وتقـول: (**ذلـكِ**) إذا كان مؤنثًـا.

والخطـابُ في **قولـه تعـالى**: (**ذلـك**) لـكلّ مخاطـب يصحّ أن يوجّـه إليـه الخطـاب، والمعنـى: ذلـك أيهـا الإنسـان المخاطَـب.

(**ذلـك الكتـاب**): يجـوز أن نجعـل (**الكتـاب**) خـبرَ (**ذلـك**)، ويجـوز أن نجعلهـا نعتًـا وعطفَ بيـان، فإن جعلناهـا خـبرَ (**ذا**) صـار قولـه: (**لا ريـب فيـه**): جملـة مسـتأنفة، وإن جعلناه بـدلًا عطف بيـان: صارت (**لا ريـب فيـه**): خـبرَ اسـم الإشـارة، و(**الكتـاب**) المشـار إليـه هـو القـرآن، وسـمي كتابًـا لأنّـه مكتـوب في اللـوح المحفـوظ، ومكتـوب في الصحـف التـي بأيـدي الملائكة، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ {١١/٨٠} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ {١٢/٨٠} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ {١٣/٨٠} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ {١٤/٨٠} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ {١٥/٨٠} كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[1]، ومكتوب في المصاحـف التي بـين أيدينا.

(**لا ريـب فيـه**): لا ريـب، مـا معنـى الرّيب؟ الشـكّ. هكذا فسّره أكـثر العلماء أنّ الريب هو الشـكّ، لكن شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- لـه رأي في مثـل هذه الألفـاظ المترادفة، يقـول: لا يوجـد في اللغـة العربية كلمة مرادفـة لأخـرى مـن كلّ وجـه لا بـدّ أن يكـون بينهـما فـرق، فالرّيب هنـا ليس مطابقًا للشـكّ بإزائـه من كلّ وجـه؛ لأنّ الريـب يقـول شـكّ مـع قلـق وارتيـاب، فهـو إذًا أخـصّ من الشـك، لكـن لا مانع أن نفـسر الكلمة بمـا هـو قريـب منهـا، لاسـيّما إذا كان المخاطـب لا يتصوّر الفـرق، وقوله: (**لا ريـب فيـه**)، (**لا**): نافية للجنس فيشـمل أدنى ريـبٍ يعنـي ما فيـه أدنى ريب.

و(**لا ريـب فيـه**): ظاهرهـا أنّهـا جملـة خبريـة تفيـد النفـي، والمعنـى: ليـس فيـه ريـب أبـدًا، وقيـل: إنّ الخـبر هنـا بمعنـى النهـي، فمعنـى: (لا ريـب فيـه) أي: لا ترتابـوا فيـه، والـذي أوجـب أن يفـسّروا

(١) **سورة**: عبس، الآية رقم: ١١ - ١٦.

النفي بمعنى النّهي قالوا: لأنّه قد حصل فيه ريب من الكفار والمنافقين، **قال تعالى**: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[(١)]، فلا يستقيم النفي حينئذ، وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النّهي، ولكنّنا نقول: إنّ الله تعالى يتحدّث عن القرآن من حيث هو قرآن لا باعتبار مَن يتلى عليهم القرآن، والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه، عندما أقول لك: (هذا الماء عذب)، فهذا بحسب وصف الماء بقطع النّظر عن كوْن هذا الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذبًا، كوْن مذاق الماء العذب مرًّا عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب، وقد **قال المتنبي**:

ومَن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ   يجدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

فما علينا مِن هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محلّ ريبة، فإنّ القرآن في حدّ ذاته ليس محلّ ريبة، **والله سبحانه وتعالى**: يصف القرآن من حيث هو قرآن، على أنّ كثيرًا من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولون ذلك جحودًا، كما **قال تعالى**: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(٢)]، فكثيرٌ منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القرآن، ويكون في داخل نفسه يعرف أنّ هذا ليس بقول الرسول ﷺ وأنّ محمدًا ﷺ، لا يستطيع أن يأتي بمثله، ولكنْ مع ذلك يجحدون، وينكرون، وعلى هذا فالوجهُ الأوّل هو الوجهُ القوي الذي لا انفصامَ عنه، وهو **أنّ الله تعالى**: وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر عمّن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.

(**هدى للمتقين**): والجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: (**هدى للناس**)، (**الهدى**) بمعنى الدلالة، القرآن نفسُه لا يهدي هداية التوفيق، لكنّه يهدي هداية دلالة، (**هدى للمتقين**)، في آية أخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، فأي فرق بين هذا وهذا؟، نقول إمّا كونه هدى للناس فهذا هو الأصل أنّ القرآن يمكن أن يهتدي به كلّ أحد،

(١) **سورة**: التوبة، الآية رقم: ٤٥.

(٢) **سورة**: الأنعام، الآية رقم: ٣٣.

وإمّـا إضافـة هـدى إلى المتقـين فـلأنّ المتقـين هـم الذيـن انتفعـوا بـه فصـار هـدًى لهم، ومَـن المتقـون؟ هُم الذيـن قامـوا بأوامـر الله وتركـوا نواهـي الله.

والتّقوى: اتّخاذُ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقولُـه تعـالى: (**لا ريـب فيـه هـدًى للمتقـين**): وقـف بعـض القـراء على قولـه تعـالى: (**لا ريـب**)، وعليه فيكـون خـبر (**لا**) محذوفًـا، والتقديـر: لا ريـب في ذلك، ويكون الجـار والمجرور خبرًا مقدّمًا، و(**هـدًى**)، مبتدأً مؤخـرًا، ووقـف بعضهـم عـلى قولـه تعـالى: (**فيـه**)، وعليـه فيكـون الجـار والمجـرور خـبر (**لا**)، ويكـون قولـه تعـالى: (**هـدًى**): خـبر مبتـدأ محـذوف، والتقديـر: هو هـدًى للمتقين.

وممّـن حـرّر الـكلام في هـذا ابـن تيميـة، حيث قـال: التّرادف في اللغـة قليل، وأمّـا في ألفاظ القـرآن فإمّا نـادر وإمّـا معـدوم، وقـلَّ أنْ يعـبر عـن لفـظ واحد بلفـظٍ واحد يـؤدّي جميع معنـاه، بل يكون فيـه تقريب لمعنـاه، وهـذا مـن أسـباب إعجـاز القـرآن، ثمّ **قـال**: ومن **قـال:** لا ريب: لا شـكّ؛ فهـذا تقريـب، وإلّا فالريب فيـه اضطـرابٌ وحركـة، كـما **قـال**: (**دعْ مـا يريبـك إلى مـا لا يريبـك**)، **وفي الحديـث**: أنّـه مـرّ بظبـي خائـف فقـال: (**لا يُرِبـهُ أحـد**)، فكـما أنّ اليقـين ضمـن السّـكون والطمأنينـة، فالريب ضـدّه، ولفظ الشـك **وإن قيل**: أنّـه يسـتلزم هـذا المعنـى لكـنّ لفظه لا يـدلّ عليه.

ما جاءَ مِن البلاغة والبيان والبديع في قوله تعالى

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

وفي هذه الآية كثيرٌ من العِبَر والفوائد، واللطائف والنّكات:

يقول الدكتور/ صالح الغزالي: إنّ قوله تعالى: (**ذلك الكتاب**) في قوله: (**ذلك**) إشارةٌ إلى علوّ منزلة هذا الكتاب وإظهارٌ لرفعة مكانته.

قال العلماء: أشار إليه بلفظ: (**ذا**) الدّال على البعيد، لبعد مكانته وعلوّ درجته.

وأمّا الفوائد:

الفائدةُ الأولى: تسميةُ القرآن بالكتاب، إشارةٌ إلى جواز كتابة القرآن، وقد اتّفق العلماء على أنّ كتابة القرآن فرضُ كفاية على الأمة.

الفائدةُ الثّانية: جوازُ جمع القرآن الكريم لتسميته كتابًا، وهذا ما فعله أصحاب النبي ﷺ.

الفائدة الثالثة: (**أل**) في الكتاب للعهد، أي ذلك الكتاب المعهود عندكم المعروف لديكم، المحفوظ، فدلّ ذلك على أنّ القرآن محفوظٌ لدى المسلمين، وقد فرّع العلماء على هذه الفائدة حكمين :

الأوّل: وجوب حفظ القرآن الكريم عن الضياع والدرس والتحريف.

الثّاني: أن مَن أنكر شيئًا من ذلك الكتاب ولو حرفًا واحدًا؛ فهو كافر مرتدّ.

الفائدة الرابعة: أنّ لفظ (الكتاب) يدلّ على تعظيم شأن الكتاب؛ لأنّ الله أطلق عليه لفظ الكتاب، فهو الكتاب الكامل، الذي لا يستحقّ غيره أن يُسمّى كتابًا في جنسه.

وفي قوله تعالى: (هدى للمتقين): إثبات أنّ هداية القرآن هداية عامّة في كلّ شيء؛ لأنّ لفظ (**هدى**) جاء مُنكّرًا، والتنكير يدلّ على الإطلاق وعلى العموم.

ويتفـرّع عـن هـذه الفائـدة: الـردّ عـلى المكذّبـين بهدايـة القرآن العامّـة، فبينت هـذه الآيـة الكريمة أنّ القـرآن هـادٍ للمسـلمين في جميـع أمورهـم وفي جميع أحوالهم وشـئونهم.

قال أهلُ السياسة المُنحرفة: القرآن ليس هداية في سياسة الأمة.

وقال أهلُ الكلام المذموم: القرآن ليس هدًى في إثبات المعاد والصفات والنبوات.

وقالـت الشّرذمـة اللادينيـة: إنّ هدايـة القـرآن محصـورة بين العبـد وبين ربه، وقـد أكذبهم اللـه جميعًا في هـذه الآيـة، وأثبـت للقـرآن الهدايـة التامّـة العامـة بلفظ موجـز، وفي **قوله تعـالى**: (**هدى للمتقـين**) دليل عـلى أنّ الاهتـداء بالقـرآن مرتبـط بتقوى اللـه تعالى، ومرتبط بالخـوف من عقابه، وأن غـير المهتدي لا ينتفع بهدايـة القرآن.

ويتفـرّع عـن هـذه الفائـدة: أنّ الداعيـة إلى كتـاب اللـه، وأنّ المُتصدي لإصـلاح الناس ينبغي لـه أولًا أنْ يـزرع في قلوبهـم التقـوى والخـوف مـن اللـه، وأنْ يسـعى لإزالـة القسـوة وأسـباب الإعـراض عن ديـن الله، فـإذا نجـح في هـذا وُفـق للموعظة بالكتـاب، ونجـح في التجـاوب والتأثير.

وفي قولـه تعـالى: (**هـدى للمتقـين**): إيضـاحُ المقصـد مـن القـرآن، وأنـه أُنـزل لسَـوق النـاس إلى الآخـرة وتخويفهـم مـن اللـه ومـن عذابه، فهو كتـابُ موعظة وهداية إلى التقـوى، ويتفرع عن هـذا أنّ القرآن ليس كتابًـا في العلـوم التجريبيـة، لا في الطـب ولا في الفلـك، ولا في الجغرافيـا ولا في علـوم الأحيـاء، وأنّ مَن تكلّف لأجـل إخضـاع آيـات القـرآن لهذه العلـوم ليس بمُصيـب ولم يعرف مقاصده، نعـم قد يوجد فيه إشـارات إلى مسـائل علميـة مُعجـزة، وهـذا لا يُخرجه عن مقصده الأسـاس.

وهناك فوائدُ أخرى ذكرها العلماء:

- **فائـدةٌ إملائيـة**: كثـيرٌ مـن الكلـمات في القـرآن الكريـم احتفظـت برسـمها كـما رسـمت مـن أيـام الخليفـة الراشـد **عثـمان** بـن عفـان، رضي اللـه عنـه، مثـل: الكتـب، الصلـوة، رزقنهـم، الحيـوة؛ عـلى حـين أنهـا تغـيّرت في الكتابـة المدرسـية، ونحـن نعلـم أنّ **أبـا الأسـود الـدؤلي** بـدأ في وضـع علامـات

الإعراب، **والحجّاج بن يوسف الثقفي** قام بتنقيط الأحرف الهجائية، ولم نعلم من التاريخ متى حصل تطوير الكتابة العربية حيث أصبحت مغايرة لكتابة ورسم الكلمات في المصحف.

- **الاسمُ الثلاثي المعتّل الآخر**: والفعلُ الثلاثي المعتّل الآخر مثل هدى، وغزا إذا كان أصل الألف ياء رسمت بالياء، وإن كانت واوًا كتبت ألفًا، وهذا يقودنا إلى وجوب معرفة أصل حرف العلة واوًا أو ياءً. ولمعرفة ذلك ثلاث وسائل:

الأولى: أنْ نحوّل الفعل إلى مضارعه.

الثّانية: أن نسند ماضيه إلى تاء الفاعل.

الثّالثة: أنْ نعيده إلى مصدره، مثل رمى يرمي رميت رميًا وغزا يغزو غزوت غزوًا.

- **إنّ ما يستوقف المتدبّر لهذا المطلع**: هو المرونةُ العجيبة لتشكيل التراكيب والجمل على نحوٍ لا يليق إلّا بكتاب الله المُعجز، فالمطّلع يعدّ سبع أو ثمان كلمات باعتبار (الم)، بيد أنّ احتمالات تآلفها تركيبيًّا ونحويًّا يثير الدّهشة، فتكاد كلّ كلمة أن تصبح قطعة تقبل في كلّ لحظة أنْ تندمج مع جارتها أم تنفصل عنها، فنحصل على تركيبٍ جديد بمعنى غير التركيب السابق، وهذه بعض الاحتمالات كما يلي:

الاحتمالُ الأوّل: (**ذلك الكتاب *لا ريب فيه*هدى للمتقين***)

رمز(*) **يعني**: مكان الوقف الدّلالي حسب المعنى التركيبي المختار.

توجيهُ هذا الاحتمال:

(**ذلك الكتاب**) جملة تامّة مستقلّة تركيبيًّا، ذلك إشارة إلى القرآن، والكتاب إخبار عنه، واللام للمدح والاختصاص، كأنّك قلت إن كان هناك في الوجود ما يستحقّ أن يكون كتابًا فهو القرآن، على نحْو قولك (زيد الرجل) أي لا غيره.

(**لا ريب فيه**): جملة أخرى مستقلّة بالتركيب، مؤلّفة من لا واسمِها وخبرِها، وهي في المعنى توضيحٌ وتأكيد للجملة قبلها، أي مدح آخر للقرآن.

(**هـدى للمتقـين**): جملـة أخـرى تامّـة؛ لأنّ المسـند إليه فيها مقـدّر، تقديـره الكتاب هـدى للمتقين، كما تقـول لِمَن سـألك: مَـن جاء؟ فتقـول (زيد).

الاحتمالُ الثاني: (الم ذلك الكتاب*لا ريب فيه*هدى للمتقين*)

توجيـهُ هـذا الاحتـمال: هـذا التركيـبُ اختلـف عـن الأوّل في اتّصـال (**الم**) بــ (**ذلـك الكتـاب**) فقـد جوّز صاحـبُ **الكشـاف** أن تكـون الإشـارة بذلـك إلى الحـروف المقطّعـة المسـوقة لتعجيز العـرب، فكأنّـه قيل لهم ليـس القـرآن مؤلفًـا إلّا مِـن هـذه الحـروف المعروفـة لديكـم، واقتـصر عـلى ذكـر ثلاثـة للتنبيـه عـلى باقـي الحـروف، خاصّـة إذا عرفنـا أنّ مخـرج الهمـزة مـن أقـصى الجهـاز الصـوتي، والـلام مـن وسـطه، والميـم مـن آخـره، فـكلّ صـوتٍ يمثـل أشـباهه مـن حيـث المخرج.

الاحتمالُ الثالث: (الم*ذلك الكتاب لاريب فيه*هدى للمتقين*)

توجيـهُ هـذا الاحتـمال: نلاحـظ اتّصـال كلمـة: (**كتـاب**) بتعبـير: (**لا ريـب فيـه**)، **فالمركّب الاسـمي**: (**ذلك الكتـاب**): مسـند إليـه، **والمركّـب الاسمي الآخـر**: (**لا ريـب فيـه**): مسـند، وبتعبـير قريـب أخبرنـا عـن ذلـك الكتـاب أنّـه لا ريـب فيـه، أمّـا (**هـدى للمتقـين**): فإعرابـه كـما في الاحتـمال الأول.

الاحتمالُ الرابع: (الم*ذلك الكتاب لا ريب*فيه هدى للمتقين*)

توجيـهُ هـذا الاحتـمال: تعلّقـت (**فيـه**): بما بعدهـا تركيبيًّا، وانفصلت عـمّا قبلها، فتعرب (**فيـه**): متعلّقة بخـبر محـذوف، والتقدير هدًى للمتقـين كائن فيه.

هذا الاحتمالُ وسابقه: معروفان عند القراء، فعنِ الكشّاف أنّ نافعًا وعاصمًا وقَفَا على قوله (**ريب**).

الاحتمالُ الخامس: (الم*ذلك الكتاب*لا ريب فيه هدى للمتقين*)

توجيـهُ هـذا الاحتـمال: تعبـير: (**لا ريـب**) انفصل عن الكتـاب واتّصل بفيـه، فاختلف المعنى عمّا سـبق، فسـابقًا كان نفـي الريـب متّجهًـا إلى الكتـاب، وهنا اتّجه إلى اشـتمال الكتـاب على الهدى.

وقيل: أمّا (لاريب فيه) ففيه وجهان: إرجاع الضمير إلى الحكم، أو إلى الكتاب:

فعلى الأول: يكون بمعنى يقينًا، وبلا شكّ، فيكون جهة وتحقيقًا لإثبات كماله.

وعلى الثاني: يكون تأكيدًا لثبوت كماله والاستغراق في (**لا**) بسبب إعدام الريوب الموجودة، ويشير إلى أنّ المحّل ليس بقابلٍ لتولّد الشكوك، إذْ أقام على الثغور أمارات تتنادى من الجوانب وتطرد الرّيوب المتهاجمة عليه، وفي ظرفية (**فيه**) والتعبير بـ (**في**) بدل أخواتها إشارة إلى إنفاذ النّظر في الباطن، وإلى أن حقائقه تطرد وتطيّر الأوهامَ المتوضعة على سطحه بالنظر الظاهر.

أمّا (**هدى للمتقين**) فاعلمْ أنّ منبع حسن هذا الكلام من أربع نقاط:

الأولى: حذف المبتدأ، إذ فيه إشارة إلى أنّ حكم الاتحاد مسلَّم، كأن ذات المبتدأ في نفس الخبر، حتى كأنه لا تغاير بينهما في الذهن أيضًا.

والثانية: تبديل اسم الفاعل بالمصدر، إذ فيه رمز إلى أنّ نور الهداية تجسَّمَ فصار نفس جوهر القرآن.

والثالثة: تنكير (**هدى**) إذ فيه إيماءٌ إلى نهاية دقّة هداية القرآن حتى لا يُكْتنه كُنْهها، وإلى غاية وسعها حتى لا يُحاط بها علمًا، إذ المنكورية إمّا بالدقة والخفاء، وإمّا بالوسعة الفائتة عن الإحاطة.

والرّابعة: الإيجاز في (**للمتقين**) بدل: (الناس الذين يصيرون متّقين به) أوجز بالمجاز الأول إشارة إلى ثمرة الهداية وتأثيرها، ورمزًا إلى البرهان على وجود الهداية، فإنّ السامع في عصر يستدلّ بسابقه كما يستدلّ به لاحقه.

أمّا الفرق بين دلالة كلمة الكتاب والقرآن في هذه الآية: فيقول: د. فاضل السامرائي:

إنّ كلمة (قرآن): هي في الأصل في اللغة مصدرُ الفعل قرأ مثل غفران وعدوان، **قال تعالى**: (**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**)[1]، ثمّ استعملت علَمًا (**للكتاب**) الذي أُنزل على الرسول ﷺ (**القرآن**).

---

(١) **سورة**: القيامة، الآية رقم: ١٨.

أمّا كلمة (الكتاب): فهي مِن الكتابة، وأحيانًا يسمّى كتابًا؛ لأنّ الكتاب متعلّق بالخطّ، وأحيانًا يُطلق عليه الكتاب، وإنْ لم يُخطّ (**أنزل الكتاب**) لم يُنزّل مكتوبًا، وإنّما أُنزل مقروءًا، ولكنه كان مكتوبًا في اللّوح المحفوظ قبل أن ينزّل على رسول الله ﷺ.

هذا من ناحيةِ اللّغة، إمّا من ناحية الاستعمال، فيلاحظ أنّه عندما يبدأ **بالكتاب** يتردّد في السورة ذكر الكتاب أكثر بكثير ممّا يتردّد ذكر القرآن، أو قد لا تذكر كلمة القرآن مطلقًا في السورة، إمّا عندما يبدأ **بالقرآن** فيتردّد في السورة ذكر كلمة القرآن أكثر من كلمة الكتاب، أو قد لا يردْ ذكر الكتاب مطلقًا في السورة، وإذا اجتمع القرآن والكتاب يتردّدان في السورة بشكل متساوٍ تقريبًا، ونأخذ بعض الأمثلة:

في سورة البقرة: بدأ بالكتاب فقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] فذكر **الكتاب** في السورة: **٤٧ مرة، والقرآن: مرة واحدة** في: آية الصيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[2] .

في سورة آل عمران: بدأ السورة **بالكتاب فقال تعالى:** ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[3] فورد **الكتاب** في السورة: **٣٣ مرة**، ولم ترد كلمة القرآن مطلقًا في السورة كلها.

في سورة طه: بدأ السورة **بالقرآن**، **فقال تعالى**: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾[4] فورد **القرآن** فيها: **ثلاث مرات، والكتاب: مرة واحدة.**

في سورة ق: بدأ **بالقرآن، فقال تعالى** :﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[5] فورد **القرآن** فيها: **ثلاث مرات** في السورة، بينما ورد الكتاب: مرة واحدة.

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢.

(٢) **سورة**: البقرة، الآية رقم:١٨٥.

(٣) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ٣.

(٤) **سورة**: طه، الآية رقم: ٢.

(٥) **سورة**: ق، الآية رقم: ١.

في سورة ص: بدأ **بالقران** وتساوى ذكر **القرآن والكتاب.**

في سورة الحجر: بدأ **بالقرآن، فقال تعالى:**﴿ الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾[١] فورد ذكر **القرآن** فيها: **ثلاث مرات، والكتاب: مرتين.**

في سورة النمل: بدأ **بالقرآن، فقال تعالى:**﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] فورد ذكر **القرآن** فيها **ثلاث مرات، والكتاب**: أربع مرات.

وأمّا دلالة استخدام اسم الإشارة (ذلك) في هذه الآية بدل اسم الإشارة هذا، فيقول: د.فاضل السامرائي:

اسم الإشارة: أحيانًا يستعمل في التعظيم، وأحيانًا يستعمل في الذم، والذي يبين الفرق بينهما هو السّياق، فكلمة (**هذا**) تُستعمل في المدح والثناء، كقولك (هذا الذي للمتقين إمام)، ويستعمل في الذم **كقوله تعالى:**﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾[٣] ، و(**أولئك**) تستعمل في **المدح كقول الفرزدق: (أولئك آبائي فجئني بمثلهم)**: **أولئك**: جمع ذلك، **وهؤلاء**: جمع هذا، وتستخدم أيضًا في الذم، (**ذلك**) و(**تلك**) من أسماء الإشارة ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[٤] وتستعمل في **التعظيم**، وأحيانًا تكون في **الذم** فتقول: ذلك البعيد، لا تريد أن تذكره، فالسياق هو الذي يميز دلالة الاستعمال.

(**ذلك الكتاب لا ريب فيه**) هنا إشارةٌ إلى علوّه وبُعد رتبته، وبُعده عن الريب، وأنه بعيدُ المنال لا يستطيع أن يُؤتى بمثله، (**ذلك**) دلالة على البعيد، **والله تعالى قال** في نفس السورة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ

---

(١) **سورة**: الحجر، الآية رقم: ١.

(٢) **سورة**: النمل، الآية رقم: ١ .

(٣) **سورة**: الفرقان، الآية رقم:٤١.

(٤) **سورة**: يوسف، الآية رقم:٣٢.

إِنْ كُنْتُـمْ صَادِقِيـنَ {٢٣/٢} فَـإِن لَّـمْ تَفْعَلُـواْ وَلَـن تَفْعَلُـواْ فَاتَّقُـواْ النَّارَ الَّتِـي وَقُودُهَا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيـنَ ﴾[١]. هـذا الأمـرُ بعيـدٌ عـن المنال أن يُـؤتى بمثله، إذ: (**ذلك الكتاب**) إشـارة إلى بُعـده وعلوّ مرتبته.

والقـرآنُ يسـتعمل (**هـذا**) لكـنْ في مواطـن، **مثـل:**﴿إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يِهْـدِي لِلَّتِي هِـيَ أَقْـوَمُ﴾[٢]، فعندما قـال يهـدي للتـي هـي أقـوم يجـب أن يكـون قريبًا حتـى نهتدي به، فاسـتخدم **هـذا** للقرب، لكـن حين **قال:** (**ذلـك الكتـاب**): أراد أنّـه عـالٍ بعيـدٌ لا يسـتطاع أن يـؤتى بمثله، ثـمّ أنه حين يذكـر القرآن لا يشـير إليه إلّا بـ (**هـذا**)، ولا يقـول (**ذلـك**)؛ لأنّ القـرآن مـن القـراءة، وهـو مصـدرُ الفعل قـرأ، وكلمة **قـرآن** أصلًا مصـدر، قرأ قـراءة وقرآنًـا، وأنـت إذا قـرأت تقـرأ القريـب، فهـذا هـو **القـرآن**، أمّـا الكتـاب فهو بعيـد؛ لأنّه قـد يكون في مـكان آخـر، فهـو في اللـوح المحفـوظ يسـمى كتابًـا، أمّا **القـرآن** فيكـون قريبًا حتى يُقـرأ، **وفي سـورة الأنعام:** أشـار إلى **الكتـاب فقـال:** ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَـاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُـرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِيـن يُؤْمِنُـونَ بِالآخِـرَةِ يُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَهُـمْ عَلَـى صَلاَتِهِـمْ يُحَافِظُـونَ ﴾[٣]، بينـما لم يقل في آيـة البقرة: هذا الكتـاب لا ريـب فيـه، لكوْنـه بعيدًا، لا يسـتطاع أن يؤتى بمثله، **وقد قال** في السـورة نفسـها: ﴿فَإِن لَّـمْ تَفْعَلُواْ وَلَـن تَفْعَلُـواْ ﴾[٤] يعنـي أنّـه بعيد عليكم، فاسـم الإشـارة (**ذلـك**) دلّ على علـوِّ منزلته.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم:٢٣- ٢٤.

(٢) **سورة**: الإسراء، الآية رقم: ٩.

(٣) **سورة**: الأنعام، الآية رقم:٩٢.

(٤) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٤.

وممّا جاء في البلاغة في هذه الآية موضوعُ الاتّساع

فالاتّساع: مصطلحٌ مشترك تتنوّع دلالاته بحسب خصوصية المجال اللغوي المستعمَل فيه:

فعنـد النحويّـين: الاتسـاعُ دالّ عـلى كلّ صنـوف التغيـير في أصـل التعبـير مـن حـذفٍ، وزيـادةٍ، وتقديـم وتأخـيرٍ، وحمـلٍ عـلى المعنـى، **قـال ابـن جنّـي**: وكيـف تصرّفـتِ الحـالُ فالاتّسـاع فـاشٍ في جميـع أجنـاس شـجاعة العربيـة، وذلـك لأنَّ: (مِـن شـأن العـرب التوسّـعُ في كلّ شيءٍ) فـما يأتي عـلى خلاف الأصـل قيل فيه: هـو عـلى سـعة الـكلام، أو لاتسـاعهم فيه.

فالاتّسـاع إذًا هـو: التخطّـي والتّجـاوز لـكلّ مـا هـو ضابـط أو أصـل أو قاعـدة أو لنقـل هـو نـوعٌ مـن (الخطـأ)، لكنّـه مقبـول ومستسـاغ.

وعند البلاغيّين: يأتي الاتّساع بدلالتين مُختلفتين بحسب الفرع البلاغي المستعمَل فيه:

ففـي فـرع البيـان: يذكر الاتّسـاع في سـياق ذكرهم للمجاز، وهنا أيضًا يتوسّـعون في الاتسـاع، فقد يكون الاتّسـاع أعـمّ مـن المجـاز فيـدلّ حينئـذ عـلى مـا يسـمّيه المعـاصرون: (**الانزيـاح**) أي الخـروج عـن مُقتـضى المألـوف الاسـتعمالي سـواء تعلّـق الأمـر بالمعنـى أم باللفـظ، وقـد يكـون مسـاويًا للمجـاز ومرادفًـا لـه، وقد يكـون أخـصّ منـه وشرطًـا مـن شروطـه، قـال **ابـن جنّـي في** الخصائـص: **الحقيقـة**: ما أقـرّ في الاسـتعمال على أصـل وضعِـه في اللغـة، **والمجـاز:** مـا كان ضـدّ ذلـك، وإنّما يقع المجـاز ويعدل إليـه عن الحقيقة لمعـان ثلاثة، وهـي: الاتسـاع والتوكيـد والتشـبيه، فـإن عُدِمـت الثلاثة تعينـت الحقيقة.

وفي فـرع البديـع: **عـرف ابـن رشـيق بـابَ الاتسـاع**: أنْ يقـول الشـاعر بيتًـا يتّسـع فيـه التأويل، فيـأتي كلّ واحـدٍ بمعنـى، وإنّمـا يقـع ذلك لاحتـمال اللفظ، وقوتـه، واتّسـاع المعنى، وقد بلغ مطلع سـورة البقـرة في تعدّد الاحتـمال التركيبـي شـأوًا بعيـدًا تنـدقّ دونـه كلّ أعنـاق البشر، فهـو الإعجاز في التوسـع التركيبـي لا ريب.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هي سبع كلمات فقط، لكنها من المرونة بحيث تقبل أن تتّخذ أوضاعًا تركيبية متعدّدة، فالكلمة الواحدة يمكن في أي لحظة أن تنفصل عن أختها، أو تتصل بها لاعتبارات تركيبية فيتحصّل من الفصل والوصل تنوعٌ دلالي مذهل، وإعجازٌ في صورة ملموسة لا تنكر عند المنصفين.

فالآية: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فيها عدد من الجُمل :

فلو قلت: ثلاث جُمل لأصبت، **ولو قلت**: جملتان لأصبت، **ولو قلت**: جُملة واحدة لأصبت، ولو قلت بها جميعًا على الشمول أو على البدل لأصبت أيضًا.

فأمّا التركيب الثلاثي: الآية من هذا المنظور المختار مؤلفة من ثلاث سبائك وهي:

ذَلِكَ الْكِتَابُ: جملة ابتدائية تامّة.

لاَ رَيْبَ فِيهِ: جملة استئنافية تامّة.

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ: جملة استئنافية تامّة.

فالجملة الأولى: اسم الإشارة (**ذا**): فيها مبتدأ، و(**الكتاب**): خبره، و(**ال**) الداخلة: على (كتاب) هي لاستغراق خصائص الجنس وصفاته، وينبغي في هذا المقام التمييز بين اللام الاستغراقية التي تكون لاستغراق جميع أفراد الجنس، والتي من ضوابطها أن تخلفها (كل) حقيقة، واقعية، أو عرفية، وبين هذه التي أريد بها استغراق خصائص الجنس وصفاته مبالغة في المدح أو الذم، والتي من ضوابطها أن تخلفها (كل) مجازًا، وتسمّى بـ (كلّ الإحاطية)، **ومثاله**: (زيد الرجل) وتريد أنّه جمع في نفسه ما تفرق في غيره من معاني الرجولة، أو أنّ (زيدًا هو من يستحق أن يوصف بالرجولة).

(**ذلك الكتاب**) أي: إنْ كان في الوجود شيء يستحقّ أن يسمى كتابًا فهو هذا، واحتمال التوسّع في دلالة اللام وارد، فقد تناسب العهد الحضوري والعهد الذهني معًا، ومدار الأمر

على توسّع آخر في دلالة اسم الإشارة: **فقد قيل المراد بقوله: (ذلك الكتاب)** ما قد نزل من القرآن قبل سورة البقرة ما نزل بمكة مثلًا، فيكون العهد حضوريًّا لأنّ نزول القرآن بمثابة حضوره.

وقد قيل إنّ (ال) للعهد الذهني: لأنّ **رسول الله** كان موعودًا من قبل بكتاب، **قال ابن كثير**: وفي حديث **عياض بن حمار** في صحيح مسلم **يقول الله تعالى**: **(إنّي مبتليك ومبتلٍ بك ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا)**(١)، ولمّا نزل بعضه قال الله: هذا هو الكتاب الذي كنت وعدتك به، أو لأنّ (**ذلك**): إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد على رأي **الكسائي**، وقيل إنّ الله كان وعد أهلَ الكتاب أن ينزل على **محمد** ﷺ كتابًا، فالإشارة إلى ذلك الوعد.

حاصلُه أنّ التوسّع: شمل اسم الإشارة بالنظر إلى حقيقة المُشار إليه كما شمل اللام بالنظر إلى أنها للعهد الذهني أو للعهد الحضوري أو لاستغراق خصائص الجنس.

والجُملة الثانية: (لا ريب فيه): جملة اتّسعت من جهتين:

- من جهةِ التركيب إذ احتملت الاعتراض والاستئناف.

- ومِن جهة التّداول إذ احتملت الإخبار والإنشاء.

فمعنى (لا ريب فيه) إخبارًا: أنّ القرآن في نفس الأمر لا شكّ فيه، وإنْ حصل الشكّ في نفوس المبطلين، أو إن المرتابين في القرآن من الكفار لو رجعوا إلى أنفسهم وتجرّدوا من أهوائهم وتعصّبهم؛ لظهرت لهم الحقيقة التي يدّعون خفاءها أو يريدون إخفاءها.

ومعنى (لا ريب فيه) إنشاءً: النّهي عن الارتياب في القرآن **فكأنّ المعنى**: ذلك الكتاب الذي لا ينبغي فيه الارتياب، والجُملة الخبرية في العربية قد يُراد بها الطلب **كقوله**: **(الأئمة من**

---

(١) **الحديث**: رواه مسلم في صحيحه برقم: (٥١٠٩)، شرح النووي لصحيح مسلم ج٩ ص٢٤٧، تفسير غريب ما في الصحيحين ج١ ص٢٤٠، مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج٢ ص٢٦٧.

قريـش)[1] فالأمـرُ في صـورة الخـبر، ولا يجـوز أن يكـون الخـبر حقيقيًّـا لأنّه يلزم عنـه الكذب، فكثـيرٌ من أئمة المسـلمين مـن غـير قريش، فالـلازم محال والملـزوم كذلك.

والجُملـة الثالثـة: (هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ): جُملـة تامّـة مبتدؤهـا مقـدّر يعـود عـلى القـرآن، وحـذف المبتـدأ المعـروف سـائغٌ في العربيـة، وقـد جـاء منـه في القـرآن شـواهدُ كثيرة **منهـا قوله تعـالى:** ﴿ كَأَنَّهُـمْ يَـوْمَ يَرَوْنَ مَـا يُوعَـدُونَ لَـمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا سَـاعَةً مِّـن نَّهَـارٍ بَـلَاغٌ فَهَـلْ يُهْلَـكُ إِلَّا الْقَـوْمُ الْفَاسِـقُونَ ﴾[2]، بـلاغ خـبر لمحذوف تقديـره هـذا بلاغ.

ذَلِكَ الْكِتَابُ: جملة ابتدائية تامّة.

لاَ رَيْبَ: جملة استئنافية تامّة.

فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ: جُملـة اسـتئنافية تامّـة: يتجـلّى الاتّسـاع هنـا في المرونـة العجيبة لـ (**فيـه**)، فيجوز الوقـوف عـلى ريـب والاسـتئناف بــ (**فيـه**)، كـما يجوز الوقـوف على (**فيـه**) والاسـتئناف بـ (**هـدى**) وهذا ما يسـمّى بوقـوف التعانـق، والطريقـة الإعرابيـة أنّ: (**فيـه**) انفصلـت عـن المبتدأ السـابق واتّصلت بمـا بعدها فأصبحـت لا النافيـة للجنـس بـدون خـبر، وهـو سـائغ فصيـح كما تقـول: (لا بـأس)، و(لا فـوت)، و(لا ضير)، وهـذا الحـذف مـمّا يلتزمـه **التميميّـون والطائيّـون**، وأصبـح (**هـدى**): مبتـدأ بعـد أن كان خـبرًا، والمحـذوف مذكورًا.

وتعبـير (**فيـه هـدى للمتقين**) أضـاف معنـى جديـدًا: وهـو الاهتـداء بالقـرآن، وقيـل الاهتـداء في القـرآن فعـلى **المعنـى** الأول: يكـون القـرآن منهجًـا ونـورًا متّبعًـا، وعـلى **المعنـى** الثـاني: يكـون الهـدى داخلـه يبحـث عنـه ويسـتنبط منـه، ومفهـوم الصفـة صحيـحٌ هنـا، فالهدايـة مقتـصرة عـلى المتقـين، ولا

---

(١) **الحديث:** صحيح، أخرجه أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك، والنسائي في سننه، والبيهقي في سننه، والطبراني وغيرهم، كلّهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد صحّحه الألباني رحمه الله تعالى في السلسلة الصحيحة، وكذا شعيب والأرناؤوط في تخريجه لمسند الإمام أحمد قال: صحيح بمجموع طرقه.

(٢) **سورة**: الأحقاف، الآية رقم: ٣٥.

يزيد الفاسقين إلّا ضلالًا، **قال تعالى:** ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

وتعبير (**فيه هدًى للمتقين**) أضاف معنى جديدًا: وهو الاهتداءُ بالقرآن، وقيل الاهتداء في القرآن فعلى **المعنى** الأوّل: يكون القرآن منهجًا ونورًا متّبعًا، وعلى **المعنى** الثاني: يكون الهدى داخله يبحث عنه ويستنبط منه، ومفهوم الصفة صحيحٌ هنا، فالهداية مقتصرة على المتقين ولا يزيد الفاسقين إلّا ضلالًا: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].

وقبل أن نختم الكلامَ على هذا الوجه نشيرُ إلى صيغة (**هدى**)، فانتهاؤها بألفٍ مقصورة يستجيب لحكمةٍ بالغة وهي أنْ تأتي في وضع اتّساعي لا يقطع معها بنصب أو رفع، ومن ثمّ يجوز أن تكون مبتدأ وخبرًا وحالًا.

وأمّا التركيب الثاني: وفيه احتمالات خمسة:

الاحتمال الأول: ذَلِكَ الْكِتَابُ .....لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.

(**ذلك الكتاب**): مدحٌ كما مرّ، والجملة الثانية تأكيدٌ لاشتمال القرآن على الهدى بواسطة أسلوب النفي، (**فيه**): متعلّق بخبر محذوف (كائن)، و(**هدى**): مبتدأ، والجُملة في محلّ رفع خبر (**لا**)، ويجوز أن تكون: (**فيه**): خبر (**لا**)، ليظهر الاتّساع مرّة أخرى في إعراب: (**هدى**)، فتنزل إلى رتبة الفضلة بعد أنْ كانت في رتبة العمدة: إذْ تحتمل أن تكون حالًا، فيكون **المعنى:** لا شكّ كائن في القرآن في حال كوْنه هدى للمتقين، وما كان لهذا الإعراب أن يكون لولا الألف المقصورة في (**هدى**)، حيث تكون العلامة الإعرابية مقدرة، وبالتالي يتّسع المحل لتقدير الرفع والنصب. فلله درّ هذا القرآن.

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٦.

(٢) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ٢٦.

الاحتمال الثّاني: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ...... فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.**

اسمُ الإشارة (**ذلك**): مبتدأ، (**الكتاب**): بدل أو نعت أو عطف بيان، (لا ريب): مركّب خبري، وقد أشرنا قبل إلى صحّة الوقف على ريب والاستئناف بـ (**فيه**).

الاحتمالُ الثّالث: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ.........هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.**

الاختلاف عن السابق يسير: ذكر خبر: (**لا**)، وحذف مبتدأ: (هدى).

الاحتمالُ الرابع: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ- لاَ رَيْبَ فِيهِ- هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.**

الاحتمال الخامس: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ- لاَ رَيْبَ- فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.**

التوسّع في الحالتين الأخيرتين: مبنيّ على اعتبار جملة: (**لاَ رَيْبَ**) أو (**لاَ رَيْبَ فِيهِ**) اعتراضية.

(**ذلك الكتاب**): مركّب ابتدائي، (**هدى**): خبره، (**للمتقين**): مركّب حرفي متعلّق بنعت مرفوع محذوف، أو: (**ذلك الكتاب**): مركّب ابتدائي، (**فيه هدى للمتقين**): جملة اسميّة في محلّ رفع خبر المركّب الابتدائي.

وأمّا التركيب الأحادي: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**: جملة واحدة، لكن الاتّساع هنا ناشئٌ من تعدّد احتمال تعيين أقسامها:

الاحتمالُ الأوّل: (**ذلك**): مبتدأ، (**الكتاب**): خبر، (**لا ريب فيه**): خبر بعد خبر، (**هدى للمتقين**): خبر بعد خبر بعد خبر.

الاحتمالُ الثّاني: (**ذلك**): مبتدأ، (**الكتاب**): نعت أو بدل أو عطف بيان، (**لا ريب فيه**): خبر، (**هدى للمتقين**): خبر بعد خبر.

الاحتمالُ الثّالث: (**لا ريب فيه**): حال.

الاحتمالُ الرّابع: (**هدى**): حال من (الهاء).

هـذا: وليـس التعبـيرُ يزيـد على سـبع كلـمات، فمَن مِن الثقلين يسـتجيب للتحـدّي، هذا، ولـو أدخلنا في الاعتبـار (الم) لـزاد عـدد الاحتمال التركيبـي لدرجة الذهول.

مثـلًا: فعـلى اعتبـار (الم) قسـمًا سـتكون الجُملـة جـوابَ القسـم، وعـلى اعتبـار (الم) اسـمًا للسـورة أو للقـرآن تكـون مبتـدأ خبرهـا (ذلـك الكتـاب)، والـلام للعهـد الذكري والإشـارة إلى الحـروف المقطعـة، ويجوز اعتبـار (الم): بمعنـى المؤلّـف مـن هذه الحـروف، و(**ذلك الكتـاب**): خبر، وتقديـر المعنى: ليس القـرآن مؤلفًا إلّا مـن هـذه الحـروف المتداولـة بـين النـاس، وقد يستشـكل هنـا ورود الخـبر أعمّ مـن المبتدأ، فالقـرآن أكثر مـن تلـك الحـروف الثلاثـة، فكيـف يخبر بـه عنها؟

الجـواب: أنّ تلـك الحـروف الثـلاث ممثلـة لغيرهـا، ألا تـرى أنّ مخـرج الألـف من أقصى الحلـق ومخرج الـلام مـن الوسـط ومخـرج الميم من الطـرف، فتكون بدلالة الإشـارة نبّهت على اسـتغراق كلّ المخـارج وتبعًا لذلـك عـلى كلّ الحـروف، لكـن هـذا غـيرُ مقطـوع بـه، وما أشرنـا إلى هـذه الحـروف إلّا لإبقاء باب الاتسـاع مفتوحًـا، والله أعلم.

والمتّقـي في اللغـة: اسـمُ فاعـل، مـن **قولهـم**: وقـاه فاتّقـى، والوقايـة: فـرط الصيانـة، ومنـه: فـرس واق، وهـذه الدّابـة تقـي مـن وجأهـا، إذا أصابـه ضلـع من غلـظ الأرض، ورقة الحافـر، فهو يقي حافـره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمـه، **وهـو في الشريعـة**: الـذي يقـي نفسـه تعاطـي مـا يسـتحق بـه العقوبـة مـن فعـل أو ترك، واختلـف في الصغائـر، **وقيـل**: الصحيـح أنّـه لا يتناولهـا، لأنّهـا تقع مكفرة عـن مجتنب الكبائـر، **وقيل**: يطلق عـلى الرجـل اسـمُ المؤمـن، لظاهـر الحـال، والمتقـي لا يطلـق إلّا عـن خـبرة، كـما لا يجـوز إطـلاق العـدل إلّا عـلى المختبر.

ومحـلّ هـدى للمتقـين: الرفـع؛ لأنّـه خـبر مبتـدأ محـذوف، أو خـبر مـع لا ريـب فيـه لـ(**ذلـك**) أو مبتدأ إذا جعـل الظـرف المقـدّم خـبرًا عنـه، ويجـوز أن ينصـب على الحـال، والعامل فيـه معنى الإشـارة أو الظرف.

وممّا جاء فيها من البلاغة، كذلك موضوع التقديم والتأخير:

١- **التقديـم**: فقـد قـدّم (**الريـب**) عـلى الجـار والمجـرور لأنّـه أولى بالذكـر، ولم يقلْ سـبحانه وتعـالى: (**لا فيه ريـب**) عـلى حـدّ (**لا فِيهـا غَـوْلٌ**) لأنّ تقديـم الجـار والمجرور يشـعر بما يبعد عـن المراد، وهـو أنّ كتابًا غـيره فيـه الرّيـب، كـما قصـد في الآيـة تفضيـل خمـر الجنـة على خمـور الدنيـا بأنهـا لا تغتـال العقول كـما تغتالهـا فليـس فيهـا مـا في غيرها مـن العيب.

٢- **وضـع المصـدر** (**هـدى**): موضـع الوصـف المشـتقّ الـذي هـو هـاد، وذلـك أوغـلُ في التعبـير عـن ديمومته واستمراره.

٣- **فإنْ قلت:** كيف **قال**: (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) وفيه تحصيل حاصل؛ لأنّ المتقين مهتدون؟

قلـت: إنّمـا صـاروا متّقـين باسـتفادتهم الهـدى مـن الكتـاب، أو المـراد بالهـدى الثبـات والـدوام عليه، أو أراد الفريقـين واقتـصر عـلى المتقـين؛ لأنّهـم الفائـزون بمنافع الكتـاب، وللإيجاز كـما في **قوله تعالى**:﴿سَـرَابِيلَ تَقِيكُـمُ الْحَـرَّ﴾[1] أي والـبرد فحـذف الثـاني للإيجاز.

قـال الإمـام البيضـاوي: **والأوْلى أن**: يقـال إنّهـا أربعُ جُمَل متناسـقة تقـرّر اللاحقة منها السـابقة، ولذلك لم يدخـل العاطـفُ بينهـا، فــ (**الم**): جملـة دلّـت عـلى أنّ المتحـدّى به هو المؤلّـف من جنس مـا يركبون منه كلامهـم، و(**ذلـك الكتـاب**): جملـةٌ ثانيـة مقـرّرة لجهـة التحـدّي، و(**لا ريـب فيـه**): جملـة ثالثـة تشـهد على كمالـه بـأنّ الكتـاب المنعـوت بغاية الكـمال إذْ لا كمال أعلى ممّا للحـّق واليقين، و(**هدى للمتقـين**): بما يقدر لـه مبتـدأ جملـة رابعـة تؤكّـد كوْنـه حقًـا لا يحـوم الشـكّ حولـه بأنـه هـدى للمتقـين، أو تسـتتبع السـابقة منهـا اللّاحقـة اسـتتباع الدّليـل للمدلـول، **وبيانـه**: أنّـه لمّـا نبّـه أولاً عـلى إعجـاز المتحـدَّى بـه مـن حيـث أنّه مـن جنـس كلامهـم وقـد عجـزوا عـن معارضتـه، اسـتنتج منه أنّـه الكتـاب البالغ حـدّ الكمال، واسـتلزم ذلك أنْ لا يتشـبّث الريـب بأطرافـه إذْ لا أنقـص ممّا يعتريه الشـكّ والشـبهة، ومـا كان كذلـك كان لا محالة هدًى للمُتقـين، وفي كلّ واحـدةٍ منهـا نكتـة ذات جزالة.

---

(١) **سورة**: النحل، الآية رقم: ٨١.

ففي الأولى: الحذف والرّمز إلى المقصود مع التعليل.

وفي الثّانية: فخامة التعريف.

وفي الثّالثة: تأخير الظرف حذرًا عن إبهام الباطل.

وفي الرّابعة: الحذف والتّوصيف بالمصدر للمبالغة وإيراده منكرًا للتعظيم، وتخصيص الهدى بالمُتقين باعتبار الغاية تسمية المشارف للتقوى متقيًا إيجازًا وتفخيمًا لشأنه.

وقال الإمام النّسفي رحمه الله: والذي هو أرسخُ عرقًا في البلاغة أنْ **يقال: قوله:** (الم): جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلّة بنفسها، و(**ذلك الكتاب**): جملة ثانية، و(**لا ريب فيه**): ثالثة، و(**هدى للمتقين**): رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصّل البلاغة، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخيةً آخذًا بعضُها بعنق بعض، فالثانية متّحدة بالأولى معتنقة لها، وهلمّ جرّا إلى الثالثة والرابعة.

بيانُ ذلك: أنّه نبّه أولًا على أنّه الكلام المتحدَّى به، ثمّ أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقرير الجهة التّحدي، ثمّ نفى عنه أنْ يتشبه به طرفٌ من الريب، فكان شهادة وتسجيلًا بكماله؛ لأنّه لا كمال أكمل ممّا للحقّ واليقين، ولا نقص أنقص ممّا للباطل والشبهة، ثمّ أخبر عنه **بأنه:** (**هدى للمتقين**)، فقرّر بذلك كوْنه يقينًا لا يحوم الشكّ حوله، وحقًّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثمّ لم تخلُ كلّ واحدة من الأربع بعد أن رُتّبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم الرشيق؛ من نكتة ذات جزالة:

ففي الأولى: الحذف والرّمز إلى المطلوب بألطف وجه.

وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة.

وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف.

وفي الرابعة: الحذف، ووضع المصدر، الذي هو هدى، موضع الوصف، الذي هو هاد، كأن نفسه هداية، وإيراده منّكرًا، ففيه إشعار بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز في ذكر المتقين كما مرّ.

والكتـاب: في الأصـل مصـدر، **قـال تعـالى**: (**كتاب اللـه عليكم**)، وقد يُـراد به المكتوب، وأصـل هذه المادة الدّلالـة عـلى الجمع، ومنه كتيبـة الجيش، وكتبت القربـة: خرزتها.

والكُتبة بضمّ الكاف: الخرزة، والجمع كتب، **قال الشاعر**:

وفراء غرفية أثأى خوارزها   مشلشل ضيعته بينها الكتب

وكتبت الدابة: إذا جمعت بين شفري رحمها بحلقة أو سير، **قال الشاعر**:

لا تأمنن فزاريا حللت به   على قلوصك واكتبها بأسيار

والكتابة عرفًا: ضمّ بعض حروف الهجاء إلى بعض.

والريب: الشكّ مع تهمة، **قال ابن الزبعري**:

ليس في الحقّ يا أميمة ريب   إنّما الريب ما يقول الكذوب

وقال بعضهم: في الرّيب ثلاثة معان:

أحدها: الشكّ: **قال ابن الزبعرى**:

ليس في الحقّ يا أميمة ريب............

وثانيها التّهمة: **قال جميل بثينة**:

بثينة قالت: يا جميل أربتني   فقلت: كلانا يا بثين مريب

وثالثها الحاجة، قال الشاعر:

قضينا من تهامة كلّ ريب   وخيبر ثمّ أجمعنا السيوفا

وممّا جاء فيها من البلاغة كذلك:

تضمّنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع، نوجزها فيما يلي:

١ – المجاز العقلي (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**) أسند الهداية للقرآن وهو مِن الإِسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين، ففيه مجاز عقلي.

٢ – الإِشارة بالبعيد عن القريب (**ذَلِكَ الكتاب**) للإِيذان بعلوّ شأنه، وبُعد مرتبته في الكمال.

٣ – تكرير الإِشارة ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين.

٤- (**على هُدًى**)، (**على**) تفيد الاستعلاء، فإذا قلت أنتَ على الجواد فإنك تعلوه، كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل، ولكنه يرتفع إلى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير إلى خير.

من هداية الآية:

١- **هذا الكتاب** لا رَيْبَ فِيهِ، لا شكّ في أنّه من عند الله، هداية ورشاد لِلْمُتَّقِينَ الذين وقوا أنفسهم ممّا يضرّها، فالتزموا الأوامر الإلهية، وتجنّبوا النواهي والمحظورات، فالقرآن هو المنهج والطريق لكلّ مَن يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية.

٢- **حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ**: الاعتقاد بِالقلب وَالْإِقرار بِاللسان والعمل بالأَركانِ. أنّه إيمان شامل كامل، كما في الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: (**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَوْضَعُهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**)(١) .

---

(١) **الحديث**: ثبَتَ في الصحيحين من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي،ﷺ، قال: (الإيمان بضعٌ وستون شُعْبة، والحياء شُعْبة من الإيمان)، وجاء في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم ٣٥، وفي سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه، ذكر شعب الإيمان برقم ٥٠٠٥.

قال ابن كثير: كثيرًا ما يُقرن تعالى بين الصلاة والإِنفاق من الأموال؛ لأنّ الصّلاة حقُّ الله وهي مشتملةٌ على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإِنْفاقُ هو الإِحسان إلى المخلوقين وهو حقّ العبد.

٣- **أرشدت الآيات إلى أنّ التقوى**: وهي الخوفُ من المخالفة، وفيها جماعُ الخير كلّه، وهي وصية الله في الأوّلين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان.

٤- **دعوة المؤمنين وترغيبهم في الاتصاف**: بصفات أهل الهداية والفلاح، ليسلكوا سلوكهم فيهتدوا ويفلحوا في دنياهم وأخراهم.

إعرابُ قولِه تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

أولًا: النحو: في قوله تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين:

(ذَلِكَ): ذا: اسم إشارة مبنيّ السّكون في محلّ رفع مبتدأ، و(**اللام**): حرف دالّ على البعد لا محلّ له من الإعراب، و(**الكاف**): حرف للخطاب لا محلّ له من الإعراب، **وقيل**: (**ذلك**): ذا: اسم إشارة، والألف من جملة الاسم، **وقال الكوفيّون**: الذالّ وحدها هي الاسم، والألف زيدت لتكثير الكلمة، واستدلّوا على ذلك **بقولهم**: ذه أمَة الله، وليس ذلك بشيء؛ لأنّ هذا الاسم اسم ظاهر، وليس في الكلام اسمٌ ظاهر على حرفٍ واحد حتى يحمل هذا عليه، ويدلّ على ذلك **قولهم في التصغير**: ذيا فردّوه إلى الثلاثي، والهاء في ذه بدل من الياء في ذي، وأمّا اللام فحرف زيد ليدل على بعد المشار إليه، **وقيل:** هي بدلٌ من ها، ألا تراك تقول هذا، وهذاك؛ ولا يجوز هذلك، وحرّكت اللام لئلّا يجتمع ساكنان، وكُسرت على أصل التقاء الساكنين، وقيل كسرت للفرق بين هذه اللام ولام الجر، إذ لو فتحتها **فقلت**: ذلك، لالتبس بمعنى الملك، و**قيل**: ذلك ها هنا بمعنى هذا، وموضعه رفع، إمّا على أنّه خبر: (**الم**).

(الْكِتَابُ): خبرٌ لاسم الإشارة (**ذلك**) مرفوع، وعلامة رفعه الضمّة الظاهرة، ويمكن إعرابه بدلًا من اسم الإشارة (**ذا**) مرفوع، وعلامة رفعه الضمّة، **وقيل**: عطف بيان على (ذلك) مرفوع وعلامة رفعه الضمّة، وجملة (**ذلك الكتاب**): ابتدائية لا محلّ لها من الإعراب.

(لَا): ـنافية للجنس، حرفٌ مبني على السكون، لا محلّ له من الإعراب، تعمل عمل (**إن**) فتنصب الاسم وترفع الخبر.

و(ريب): اسمها مبنيّ على الفتح في محلّ نصب، **وقيل أن**: (**رَيْبَ**): اسم (**لا**) النافية منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، (**ولا ريب**): في موضع نصبٍ على الحال، أي هذا (**الكتاب**) حقًّا أو غير ذي شكّ، وإمّا أن يكون (ذلك): مبتدأ، (**والكتاب**): خبره، (**ولا ريب**) حال، ويجوز

أن يكـون (**الكتـاب**): عطـف بيـان، (**ولا ريـب فيـه**): الخـبر، (**وريـب**): مبنـي عنـد الأكثريـن؛ لأنّـه ركـب مـع (**لا**)، وصيرّ بمنزلـة خمسـة عـشر، وعلّـة بنائـه تضمنـه معنـى مـن، إذ التقديـر لا مـن ريـب، واحتيـج إلى تقديـر (**مـن**) لتـدلّ لا عـلى نفـي الجنـس، ألا تـرى **أنّـك تقـول**: (لا رجـل في الـدار): فتنفـي الواحـد ومـا زاد عليـه، **فـإذا قلـت**: (لا رجـلٌ في الـدار)، فرفعـت ونوّنـت، نفيـت الواحـد ولم تنـفِ مـا زاد عليـه إذ يجـوز أن يكـون فيهـا اثنـان أو أكـثر.

(فِيـهِ): في: حـرفُ جـرّ مبنـيّ عـلى السـكون، لا محلّ له مـن الإعراب، و(**الهـاء**): ضمير متصـل مبني على الكـسر في محـّل جـرّ بفـي، وشـبه الجملـة من الجـارّ والمجرور في محـلّ رفع خـبر (**لا**)، **وقيـل إن**: (**فِيهِ**) جار ومجـرور متعلّقـان بخـبر محـذوف تقديره حاصـل، **وجملة**: (**لا ريب فيه**) خبرٌ لاسـم الإشـارة.

وقولُه: (**فيه**) فيه وجهان:

أحدهما: هو في موضع خبر لا، ويتعلّق بمحذوف تقديرُه لا ريب كائن فيه، فيقف حينئذ على فيه.

والوجْـهُ الثـاني: أن يكـون لا ريـب آخـرَ الـكلام، وخـبره محـذوف للعلـم بـه، ثمّ تسـتأنف **فتقـول**: (**فيه هـدى**)، فيكـون (**هـدى**): مبتـدأ، وفيـه الخبر، وإنْ شـئت كان هـدى: فاعـلًا مرفوعًا بفيه، ويتعلـق (**في**) على الوجْهـين بفعـل محـذوف، وجُملـة: (لا ريـب فيـه..) في محـلّ رفع خبر المبتـدأ (ذا).

(هُدًى): في إعرابها وجهان:

الأوّل: الرفع: وذلك:

١ـ إمّا أن تكون: مبتدأ، مرفوع بضمّة مقدرة بداية لجملة: (**هدي للمتقين**).

٢ـ وإمّا أن تكون: خبراً لمبتدئ محذوف: هو هدى.

٣ـ وإمّا أن تكون خبراً ثانٍ لـ (**ذلك**) مرفوع بالضمّة المقدرة.

٤ـ أن تكون: مبتدأ مؤخّرًا، وخبرها: شبه الجملة (**فيه**).

الوجهُ الثاني: النّصب: ويكون في:

١ـ في موضع نصبٍ على الحال من الهاء في (**فيه**)، أي لا ريب فيه هاديًا، فالمصدر في معنى اسم الفاعل، والعامل في الحال معنى الجملة **تقديره**: أحققه هاديًا، ويجوز أن يكون العامل فيه معنى التنبيه، والإشارة الحاصل من قوله (**ذلك**).

٢ـ أو حال للكتاب منصوب، وعلامة نصبه الفتحة.

٣ـ أو النّصب على الحال فيكون منصوبًا لـ (**لا ريب فيه**).

وقيل إنّ: (**هُدًى**) خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة، مرفوع بالضمّة المقدّرة، وألفهُ منقلبة عن ياء، **لقولك**: هديت والهدى.

(**لِلْمُتَّقِينَ**): **اللام**: حرفُ جرّ مبني على الكسر، لا محلّ لها من الإعراب، **المتقين**: اسم مجرور باللام، وعلامة جرّه الياء لأنّه جمع مذكر سالم، والجار والمجرور في محلّ رفع خبر: المبتدأ (**هدى**) على قول إنّها مبتدأ، **وقيل إنّ**: (**لِلْمُتَّقِينَ**): **المتقين**: اسمٌ مجرور بالياء لأنّه جمع مذكر سالم، متعلّقان بهدى، **وقيل إنّ**: (**للمتقين**) اللام متعلّقة بمحذوف **تقديره**: كائن أو كائنًا على ما ذكرناه من الوجْهين في الهدى، ويجوز أنْ يتعلق اللام بنفس الهدى؛ لأنّه مصدر، والمصدر يعمل عملَ الفعل، وواحدُ المتّقين متّقي، وأصل الكلمة مِن وقى فعل، ففاؤها واو، ولامها ياء، فإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاءً، وأدغمتها في التاء الأخرى، **فقلت**: اتّقى، وكذلك في اسم الفاعل وما تصرّف منه، نحو متّق ومتّقى، (**ومتقٍ**): اسمٌ ناقص، وياؤه التي هي لام محذوفة في الجمع لسكونها وسكون حرف الجمع بعدها، **كقولك**: متّقون ومتّقين، ووزنه في الأصل مفتعلون؛ لأنّ أصله موتقيون، فحذفت اللامُ لما ذكرناه، فوزنه الآن مفتعون ومفتعين، وإنّما حذفت اللام دون علامة الجمع؛ لأنّ علامة الجمع دالّة على معنى، إذا حذفت لا يبقى على ذلك المعنى دليل، فكان إبقاؤها أولى.

(**للمتقين**): **المتّقي**: اسمُ فاعل من اتقى، وهو افتعل مِن وقى بمعنى حفظ وحرس، وافتعل هنا للاتّخاذ أي اتّخذ وقاية، وهو أحد المعاني الاثني عشر التي جاءت لها افتعل، وهو: الاتخاذ، والتّسبب، وفعل الفاعل بنفسه، والتخيّر، والخطفة، ومطاوعة افعل، وفعل، وموافقة تفاعل، وتفعل، واستفعل، والمجرد، والإغناء عنه، مثل ذلك: اطبخ، واعتمل واضطرب، وانتخب، واستلب، وانتصف مطاوع أنصف، واغتم مطاوع غممته، واجتور وابتسم، واعتصم، واقتدر، واستلم الحجر. وإبدال الواو في اتقى تاء وحذفها مع همزة الوصل قبلها فيبقى تقى مذكور في علم التصريف.

جاء في كتاب معاني القرآن لأبي الحسن المجاشعي، المعروف بالأخفش الأوسط رحمه الله:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قال: (**لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**)، **وقال**: ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1] : فنصبهما بغير تنوين، وذلك أنّ كلّ اسم منكور نفيته بـ (**لا**) وجعلت (**لا**) إلى جنب الاسم فهو مفتوح بغير تنوين، لأنّ (**لا**): مشبّهة بالفعل، كما شبهت (**إنْ**) و(**ما**) بالفعل، و(**فيه**): في موضع خبرها، وخبرها رفع، وهو بمنزلة الفاعل، وصار المنصوب بمنزلة المفعول به، و(**لا**) بمنزلة الفعل، وإنّما حذفت التنوين منه لأنك جعلته و(**لا**) اسماً واحدًا، وكلّ شيئين جُعِلا اسمًا لم يصرفا، والفتحة التي فيه لجميع الاسم، بني عليها وجعل غير متمكّن، والاسم الذي بعد (**لا**) في موضع نصب عملت فيه (**لا**).

---

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٧٣.

ثانيًا: الصّرف: في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(ذا): اسمٌ للإشارة، والألف من أصل الاسم، وفيه حذف بعض حروفه لأنّ تصغيره ذيّا، فوزنه فع بفتح فسكون، وألفهُ منقلبة عن ياء كما يقول **ابن يعيش**: **قالوا**: أصله **ذيّ** زنة حيّ، ثمّ حذفت لام الكلمة فبقي ذي، ساكن الياء، ثمّ قلبت الياء ألفًا حتى لا يشابه الأدوات كي، أي.

(الكتاب): اسمٌ جامد يدلّ على القرآن الكريم، والأصل في اللفظ أخذه من المصدر الكتابة.

(ريب)، مصدر راب يريب، باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون.

(هُدًى)، مصدرٌ سماعي لفعل **(هدى)** باب ضرب، وفي الكلمة إعلالٌ بالقلب، أصلُه هدي بياء في آخره؛ لأنّك تقول هديت، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفًا فأعلّت في المصدر كما أعلّت في الفعل.

(المتّقين): اسُم فاعل، مفردُه المتّقى، من فعل اتّقى الخماسيّ، على وزن مضارعه بإبدال حرف المضارعة ميمًا مضمومة، وكسر ما قبل الآخر.

وفي **(المتقين)**: إعلالٌ بالحذف، حذفت الياء الأولى بعد الجمع بسبب التقاء الساكنين، وزنُه مفتعين، وفي **(المتقين)**: إبدالٌ كما في فعله، فالفعل **(اتّقى)** الذي مجرّده **(وقى)** قلبت فيه فاء الكلمة وهي. **الواو** إلى **تاء** لمجيئها قبل تاء الافتعال، وهذا مطّرد في كلّ من الواو والياء إذا جاءتا قبل تاء الافتعال حيث تقلبان تاءً في الأفعال ومشتقاتها، وما جرى من إبدال في الفعل جرى في اسم الفاعل **(المتقين)**.

قال الإمامُ البيضاوي: واعلمْ أنّ الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب: أن يكون **(الم)** مبتدأ على أنّه اسم للقرآن، أو السورة، أو مقدّر بالمؤلف منها، وذلك خبره، وإن كان أخصّ من المؤلف

مطلقًا، والأصل أنّ الأخصّ لا يحمل على الأعمّ لأنّ المراد به المؤلف الكامل في تأليفه البالغ أقصى درجات الفصاحة ومراتب البلاغة، والكتاب صفة ذلك، وأن يكون (**الم**): خبر مبتدأ محذوف، و(**ذلك**) خبرًا ثانيًا أو بدلًا، والكتاب صفته، (**ولا ريب**) في المشهورة مبنيّ لتضمّنه معنى من منصوب المحلّ على أنه اسمُ لا النافية للجنس العاملة عملَ إن، لأنّها نقيضتها ولازمة للأسماء لزومها، وفي قراءة **أبي الشعثاء**: مرفوع بلا التي بمعنى ليس، وفيه خبره ولم يقدّم كما قدّم في **قوله تعالى**: (**لا فيها غول**) لأنّه لم يقصد تخصيص نفي الرّيب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمّة، أو صفته وللمتقين خبره، وهدى نصبٌ على الحال، أو الخبر محذوف كما في (**لا ضير**)، فلذلك وقف على لا ريب، على أنّ فيه خبرَ هدى قدم عليه لتنكيره، والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك: مبتدأ، والكتاب: خبره على **معنى**: أنّه الكتاب الكامل الذي يستأهل أنْ يسمّى كتابًا، أو صفته وما بعده خبره، والجملة خبر (**الم**).

وقال الإمام النّسفي رحمه الله: والمتّقي في اللغة اسمُ فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، وإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاءً، وأدغمتها في التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية: فرط الصّيانة، **وفي الشريعة**: من يقي نفسه تعاطي ما يستحقّ به العقوبة من فعل أو ترك، ومحلّ هدى الرفع؛ لأنّه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع لا ريب فيه لذلك، أو النّصب على الحال من الهاء في (فيه).

وقال المفسّر السّمين الحلبي في تفسيره الدرّ المصون: ولها أحكام كثيرة وتقسيمات منتشرة مذكورة في النحو:

واعلمْ أنّ (لا): لفظٌ مشترك بين النفي، وهي فيه على قسمين: قسم تنفي فيه الجنس، فتعمل عملَ (**إن**)، كما تقدّم، وقسم تنفي فيه الوحدة، وتعمل حينئذٍ عملَ (ليس)، وبين النهي والدعاء، فتجزم فعلًا واحدًا، وقد تجيء زيادة، كما تقدّم في ولا الضّالين، و(**ذلك**) اسم إشارة: الاسم منه (**ذا**)، واللام للبعد، والكاف للخطاب، وله ثلاث رتب:

دنيا: ولها المجرّد من اللام والكاف، نحو: ذا، وذي، وهذا، وهذي.

ووسطى: ولها المتّصل بحرف الخطاب، نحو: ذاك، وذيك، وتيك.

وقصوى: ولها المتّصل باللام والكاف، نحو: ذلك، وتلك، لا يجوز أن يؤتى باللام إلّا مع الكاف، ويجوز دخول حرف التنبيه على سائر أسماء الإشارة، إلّا مع اللام، فيمتنع للطول، وبعض النحويين لم يذكرْ له إلّا رتبتين: دنيا، وغيرها.

واختلف النحويّون في ذا: هل هو ثلاثيّ الوضع، أم أصله حرفٌ واحد؟ **الأوّل: قول البصريّين**، ثمّ **اختلفوا**: هل عينُه ولامه ياء؛ فيكون من باب (حيي) أو عينه واو ولامه ياء؛ فيكون من باب «طويت»؛ ثمّ حذفت لامُه تخفيفًا، وقلبت العين ألفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، وهذا كلّه على سبيل التمرين، وإلّا فـ (**هذا**) مبني، والمبني لا يدخله تصريف.

وإنّما جيء هنا بإشارة البعيد تعظيمًا للمشار إليه، أو لأنّه لمّا نزل من السماء إلى الأرض أشير بإشارة البعيد، أو لأنّه كان موعودًا به نبيّه عليه السلام، أو أنّه أشير به إلى ما قضاه وقدّره في اللوح المحفوظ.

وفي عبارة المفسّرين: أشير بذلك للغائب، يعنونَ البعيد، وإلّا فالمشار إليه لا يكون إلّا حاضرًا ذهنًا أو حسًّا، فعبّروا عن الحاضر ذهنًا بالغائب، أي حسًّا، وتحرير القول ما ذكرته لك.

مباحث: في قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

المبحثُ الأوّل:

لماذا الإشارة إلى البعيد؟

نعلـم أنّ كلمـة (**ذلـك**) إشـارةٌ إلى البعيـد في لغة العرب، وقـرب القرآن من أيدي النّـاس يقتضي أن تكون الإشارة للقريب.

السـببُ في اسـتعمال اسـمِ الإشـارة للبعيـد يعـود إلى بيـان سـموّ القـرآن ورفعتـه، حتـى كأنـه في عظمته يحتـلّ نقطـة الـذّروة في هـذا الوجـود، ومثل هذا الاسـتعمال شـائعٌ في سـائر اللغـات أيضًا حين يراد الإشـارة إلى شـخص ذي منزلـة كبيرة.

معنـى الكتـاب: (**الكِتَـابُ**) يعنـي المكتـوب والمخطـوط، ولا شـكّ أنّ المـراد منـه في الآيـة كتـاب اللـه الكريـم، وهنـا يثار سـؤالٌ حول سـبب اسـتعمال كلمة الكتـاب للقرآن وهـو آنئذ لم يكتب كلّـه، وفي **الجواب نقـول**: اسـتعمالُ هـذه الكلمـة لا يسـتلزم أنْ يكـون القرآن كله مكتوبًا؛ لأنّ اسـم القرآن يطلـق على كلّ هذا الكتـاب، وعـلى أجزائـه أيضًـا، أضف إلى ذلـك أن: (**الكتـاب**) يطلق أحيانًا بمعنى أوسـع، ليشـملَ كلّ ما يليق أن يكتـب فيـما بعـد، وإن لم يكـنْ كذلـك حـين إطـلاق اسـم الكتـاب عليـه، **ففـي آيـة أخـرى نقـرأ**: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ مُبَـارَكٌ لِّيَدَّبَّـرُوا آيَاتِـهِ وَلِيَتَذَكَّـرَ أُوْلُـوا الأَلْبَـابِ ﴾[1] ، ومن المؤكد أنّ القرآن لم يكن بشـكل كتاب مـدوّن بـين النّـاس قبـل نزولـه، وثمّـة احتـمال آخر وهـو أنّ التعبـير بالكتاب يشـير إلى كتابة القـرآن في اللوح المحفوظ.

---

(١) **سورة**: ص، الآية رقم: ٢٩.

مـا هـي الهدايـة؟: كلمـة (الهدايـة) لهـا عـدّة معـانٍ في القـرآن الكريـم، وكلّها تعـود أساسًا إلى معنيين:
الهدايـة التكوينيـة: وهـي قيـادة ربّ العالمـين لموجـودات الكـون، وتتجـلّى هـذه الهدايـة في نظـام الخليقـة والقوانـين الطبيعيـة المتحكّمـة في الوجـود، وواضـح أنّ هـذه الهدايـة تشـمل كلّ موجـودات الكـون، يقـول القـرآن عـلى لسـان **مـوسى عليـه السـلام:**﴿قَالَ رَبُّنَـا الَّـذِي أَعْطَـى كُلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدَى﴾[1] .

الهدايـة التشريعيـة: وهـي التـي تتـمّ عـن طريـق الأنبيـاء والكتـب السـماوية، وعـن طريقهـا يرتفـع الإنسـان في مـدارج الكـمال، وشـواهدها في القـرآن كثيرة، منها **قولـه تعالى**: ﴿وَجَعَلْنَاهُـمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَـا إِلَيْهِـمْ فِعْـلَ الْخَيْـرَاتِ وَإِقَـامَ الصَّـلَاةِ وَإِيتَـاء الـزَّكَاةِ وَكَانُـوا لَنَـا عَابِدِينَ ﴾[2].

لمـاذا اختصّـت هدايـة القـرآن بالمتقـين؟ واضـح أنّ القـرآن هدايـة للبشرية جمعـاء، فلـماذا خصّت الآية الكريمـة المتقـين بهـذه الهدايـة؟ السـبب هو أنّ الإنسـان لا يتقبـل هداية الكتب السـماوية ودعـوة الأنبياء، مـا لم يصـلْ إلى مرحلـة معينـة مـن التقـوى، مرحلـة التسـليم أمـام الحـقّ وقبـول مـا ينطبـق مـع العقـل والفطـرة، **وبعبـارة أخـرى**: الأفـراد الفاقـدون للإيمـان على قسـمين:

قسم يبحث عن الحقّ: ويحمل مقدارًا من التقوى يدفعه لأنْ يقبل الحقّ أنّى وجده.

وقسـم لجـوج متعصّـب: قـد اسـتفحلت فيـه الأهـواء، لا يبحـث عـن الحـقّ، بل يسـعى في إطفـاء نوره حيثـما وجـده، ومـن المسـلم به:

أنّ أفراد القسم الأول: هُم الذين يستفيدون من القرآن أو أيّ كتاب سماوي آخر.

أمّا **القسم الثاني**: فلا حظَّ لهم في ذلك.

(١) **سورة**: طه، الآية رقم: ٥٠.

(٢) **سورة**: الأنبياء، الآية رقم: ٧٣.

وبعبارةٍ ثالثة: كما إنّ فاعليّة الفاعل شرطٌ في الهداية التكوينية وفي الهداية التشريعية، كذلك قابلية القابل شرطٌ فيهما أيضًا، فالأرض السّبخَةُ لا تثمر وإنْ هطل عليها المطر آلاف المـرّات، فقابلية الأرض شرطٌ في استثمار ماء المطر، وساحة الوجود الإنساني لا تتقبّل بذر الهداية ما لم يتمّ تطهيرها من اللّجاج والتعصّب والعناد، ولذلك **قال سبحانه** في كتابه العزيز إنّه: (**هُدىً لِلْمُتَقِينَ**).

المبحثُ الثّاني: (**ذلك**) فيه قولان:

أحدهما: أنّه بمعنى هذا، وهو **قول: ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكسائي، وأبي عبيدة، والأخفش**، واحتجّ بعضهم بقول **خفاف بن ندبة:**

أَقول له والرمح يأطر متنه تأمّل خفافًا إِنني أنا ذلكا

أي: أنا هذا، **وقال ابن الأنباري**: إنّما أراد: أنا ذلك الذي تعرفه.

والثّاني: أنّه إشارة إلى غائب.

ثمّ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه أراد به ما تقدّم إنزاله عليه من القرآن.

والثّاني: أنّه أراد به ما وعده أنْ يوحيه إليه في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(١)].

والثالث: أنّه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتب السالفة، لأنّهم وعدوا بنبي وكتاب.

و(**الكتاب**): القرآن، وسمّي كتابًا، لأنه جمع بعضه إلى بعض، ومنه: الكتيبة، سميت بذلك لاجتماع بعضها إلى بعض، ومنه: **كتبت البغلة**.

---

(١) **سورة**: المزمل، الآية رقم: ٥.

(**لا ريب فيه**) **الرَّيب**: الشّك، **والهدى**: الإِرشاد، **والمتقون**: المحترزون ممّا اتقوه.

وفرَّق بعضهم بين التقوى والورع، **فقال: التقوى**: أخذ عدّة، والورع: دفع شبهة، **فالتقوى**: متحقّق السبب، و**الورع**: مظنّون المسبَّب.

واختلف العلماءُ في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ ظاهرها النفي، **ومعناها**: النهي، و**تقديرها**: لا ينبغي لأحدٍ أن يرتاب به لإتقانه وإحكامه، **ومثله**:﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ﴾ (**ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء**)[1] أي: ما ينبغي لنا، و**مثله**: (**فلا رفث ولا فسوق**)، وهذا مذهبُ **الخليل، وابن الأنباري**.

والثاني: أنّ **معناها**: لا ريب فيه أنّه هدىً للمتقين، **قاله المبرّد**.

والثّالث: أن **معناها**: لا ريب فيه أنّه من عند الله، قاله **مقاتل في آخرين**، **فإنْ قيل**: فقد ارتاب به قوم، **فالجواب**: أنّه حقّ في نفسه، فمَن حقّق النظر فيه علم. **قال الشاعر**:

ليس في الحقّ يا أمامة ريب إنّما الريب ما يقول الكذوب

فإنْ قيل: فالمتقي مهتد، فما فائدة اختصاص الهداية به؟ فالجواب من وجهين: **أحدهما**: أنّه أراد المتقين والكافرين، فاكتفى بذكر أحدِ الفريقين، كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[2]، أراد: والبرد. **والثاني**: أنّه خصَّ المتقين لانتفاعهم به، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[3]، وكان منذرًا لمَن يخشى ولمَن لا يخشى.

---

(١) **سورة**: يوسف، الآية رقم: ٣٨.

(٢) **سورة**: النحل، الآية رقم: ٨١.

(٣) **سورة**: النازعات، الآية رقم: ٤٥.

المبحثُ الثّالث:

(**ذَلِكَ الْكِتَابُ**): أي هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدّمين والمتأخّرين من العلم العظيم والحقّ المبين، فـ (**لَا رَيْبَ فِيهِ**): ولا شكّ بوجهٍ من الوجوه، ونفي الرّيب عنه، يستلزم ضدّه، إذ ضدّ الريب والشك اليقين، فهذا (**الكتاب**): مشتملٌ على علم اليقين المزيل للشكّ والريب.

وهذه قاعدةٌ مفيدة: أنّ النفي المقصود به المدح، لا بدّ أن يكون متضمنًا لضدّه، وهو الكمال؛ لأنّ النّفي عدم، والعدم المحْض لا مدحَ فيه، فلمّا اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلّا باليقين قال: (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**): **والهدى**: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشّبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال (**هُدًى**) وحذف المعمول، فلم يقلْ هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنّه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشدٌ للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبيِّنٌ للحقّ من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضعٍ آخر: (**هُدًى لِلنَّاسِ**) فعمّم، وفي هذا الموضع وغيره (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**): لأنه في نفسه هدًى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأسًا، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأمّا المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو التقوى التي **حقيقتها**: اتّخاذ ما يقي سخطَ الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غايةَ الانتفاع، **قال تعالى**: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللـهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[1]

فالمتّقون: هُم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

---

(١) **سورة**: الأنفال، الآية رقم: ٢٩.

ولأنّ الهدايـة نوعـان: هدايـة البيـان، وهدايـة التوفيـق، فالمتّقـون حصلـت لهـم الهدايتـان، وغيرهـم لم تحصلْ لهـم هدايـة التوفيـق، وهدايـة البيـان بـدون توفيـق للعمـل بهـا، ليسـت هدايـة حقيقيـة تامّة.

المبحثُ الرّابع:

(**ذلـك الكتـاب**): في هـذه الآيـة مـن سـورة البقـرة وصـفُ اللـه سـبحانه وتعـالى القـرآن الكريـم بأنـه الكتـاب، وكلمـة (**قـرآن**) **معناهـا:** أنّـه يُقـرأ، وكلمة (**كتـاب**) **معناهـا:** أنّه لا يحفـظ فقط في الصـدور، ولكن يُـدوّن في السّـطور، ويبقـى محفوظًـا إلى يـوم القيامـة، والقـول بأنّه (**الكتـاب**): تمييز له عـن كلّ كتب الدنيا، وتمييـز لـه عـن كلّ الكتـب السـماوية التـي نزلـت قبـل ذلـك، فالقـرآن هـو الكتـاب الجامـع لـكلّ أحـكام السّـماء، منـذ بدايـة الرسـالات حتى يوم القيامة، وهـذا تأكيدٌ لارتفاع شـأن القرآن وتفرّده وسـماويّته ودليلٌ عـلى وحدانيـة الخالـق، فمنـذ فجـر التاريـخ نزلـت عـلى الأمـم السـابقة كتـب تحمل منهـج السـماء، ولكنْ كلّ كتـاب وكلّ رسـالة نزلـت موقوتـة في زمانهـا ومكانهـا تؤدّي مهمتَها لفـترة محددة، وتجاه قـوم مُحدّدين، فرسـالة **نـوح**- عليـه السـلام- كانـت لقومـه، وكذلـك **إبراهيـم ولـوط وشـعيب وصالـح عليهـم السـلام، كلّ** هـذه رسـالات كان لهـا وقـتٌ محـدود، تمـارس مهمتَهـا في الحياة، حتى يـأتي (**الكتـاب**): وهو القـرآنُ الكريم الجامـع لمنهـج اللـه سـبحانه وتعـالى، ولذلـك بُـشّر في الكتـب السـماوية التي نزلت قبـل بعثة محمّـد- عليه الصـلاة والسـلام- بـأنّ هنـاك رسـولًا سـيأتي، وأنّـه يحمـل الرسـالة الخاتمة للعـالم، وعـلى كلّ الذيـن يصدّقون بمنهـج السـماء أن يتبعـوه، وفي ذلـك يقـول الحـقّ سـبحانه وتعـالى: ﴿الَّذِيـنَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِندَهُـمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ﴾[1] والقـرآن هـو الكتـاب؛ لأنّـه لـن يصـلَ إليـه أي تحريف أو تبديل، فرسـالات السـماء السـابقة ائتمن الله البشر عليها، فنسـوا بعضها، وما لم ينسـوه حرّفوه، وأضافـوا إليـه مـن كلام البـشر، مـا نسـبوه إلى اللـه سـبحانه وتعـالى ظلـمًا وبهتانًـا، ولكـن القـرآن الكريـم

(١) **سورة**: الأعراف، الآية رقم: ١٥٧.

محفـوظ مـن الخالـق الأعـلى، مصداقًـا **لقولـه تعالى**:﴿إِنَّا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُـونَ﴾[1]، ومعنى ذلـك إلّا يرتـاب إنسـان في هـذا الكتـاب، لأنّ كلّ مـا فيـه من منهـج الله محفوظ منـذ لحظة نزولـه إلى قيام السـاعة بقـدرة الله سـبحانه وتعالى.

(**لَا رَيْـب فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ**): والإعجـازُ الموجود في القـرآن الكريم هو في الأسـلوب وفي حقائق القرآن وفي الآيـات، وفيـما رُوِيَ لنـا مـن قصـص الأنبيـاء السـابقين، وفيـما صحّ مـن التـوراة والإنجيـل، وفيـما أتى به مِـن علـمٍ لم تكـن تعلمـه البشريـة، ولازالـت حتـى الآن لا تعلمـه، كلّ ذلـك يجعل القـرآن لا ريب فيـه؛ لأنّه لـو اجتمعـت الإنـسُ والجـنّ مـا اسـتطاعوا أن يأتـوا بآيـةٍ واحـدة مـن آيـات القـرآن، ولذلـك كلّـما تأمّلنـا في القـرآن وفي أسـلوبه، وجدنـا أنّـه بحـقّ لا ريـب فيـه، لأنّـه لا أحـد يسـتطيع أن يـأتي بآيـة، فما بالـك بالقرآن، فهـذا (**الكتـاب**) ارتفـع فـوق كلّ الكتـب، وفـوق مـدارك البـشر، يوضح آيـات الكـون، وآيات المنهـج، وله في كلّ عـصرٍ معجزات.

إنّ كلمـة (**الكتـاب**): التـي وصـف اللـه سـبحانه وتعـالى بهـا القـرآن تمييـزًا لـه عـن كلّ الكتب السـابقة، تلفتنـا إلى معـان كثيرة، تحـدّد لنـا بعـض أساسـيات المنهـج التـي جـاء هـذا (**الكتـاب**) ليبلغنـا بهـا، وأول هـذه الأساسـيات أنّ نـزول هـذا الكتـاب، يسـتوجب الحمـدَ للـه سـبحانه وتعـالى، واقـرأ **قولـه تعـالى**: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّـذِي أَنـزَلَ عَلَـى عَبْدِهِ الْكِتَـابَ وَلَـمْ يَجْعَـل لَّـهُ عِوَجَـا {١/١٨} قَيِّمًـا لِّيُنـذِرَ بَأْسًـا شَـدِيدًا مِـن لَّدُنْـهُ وَيُبَشِّـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ الَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَـاتِ أَنَّ لَهُـمْ أَجْـرًا حَسَـنًا ﴾[2]، ويلفـت اللـه سـبحانه وتعـالى عبـاده إلى أنّ إنزالـه القـرآن عـلى رسـوله ﷺ يسـتوجب الحمـدَ مـن البـشر جميعًـا؛ لأنّ فيـه منهـج السـماء، وفيـه الرّحمـة مـن اللـه لعبـاده، وفيـه البشـارة بالجنـة والطريـق إليهـا، وفيـه التحذيـر مـن النـار ومـا يقـود إليهـا، وهـذا التحذيـر أو الإنـذار هـو رحمـةٌ مـن اللـه تعـالى لخلقـه؛ لأنّـه لـو لم ينذرهـم لفعلـوا مـا يسـتوجب العـذاب، ويجعلهـم يخلـدون في عـذاب أليـم، ولكـن (**الكتـاب**) الـذي جـاء

(١) **سورة**: الحجر، الآية رقم: ٩.

(٢) **سورة**: الكهف، الآيات رقم: ١ - ٤.

ليلفتهـم إلى مـا يغضـب اللـه حتـى يتجنّبـوه، إنّمـا جـاء برحمـة تسـتوجب الحمـد لأنّهـا أرتنـا جميعًـا الطريـقَ إلى النجـاة مـن النـار، ولـو لمْ ينـزل اللـه سـبحانه وتعـالى (**الكتـاب**) مـا عـرف النـاسُ المنهـجَ الـذي يقودهـم إلى الجنـة، ومـا اسـتحقّ أحـدٌ منهـم رضـا اللـه ونعيمَـه في الآخـرة، وفي سـورة الكهـف نجـد تأكيـدًا آخـر.. أنّ كتـاب اللـه، وهـو القـرآن الكريـم، لـن يسـتطيع بـشرٌ أن يبـدّل منـه كلمـة واحـدة، واقـرأ **قولـه جـلّ جلالـه:** ﴿ وَاتْـلُ مَـا أُوحِـيَ إِلَيْـكَ مِـن كِتَـابِ رَبِّـكَ لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ وَلَـن تَجِـدَ مِـن دُونِـهِ مُلْتَحَـدًا ﴾[1].

ويبـيّن اللـه سـبحانه وتعـالى لنـا: أنّ هذا **الكتاب** جـاء لنفع الناس، ولنفـع العباد، وأن اللـه ليس محتاجًا لخلقـه، فهـو قـادرٌ عـلى أن يقهـر مَن يشـاء عـلى الطاعة، ولا يمكـن لخلق من خلـق الله أن يخـرج من كوْن اللـه عـن مـرادات اللـه، واقـرأ **قولـه سـبحانه وتعـالى:** ﴿ طسـم {١/٢٦} تِلْكَ آيَـاتُ الْكِتَـابِ الْمُبِيـنِ {٢/٢٦} لَعَلَّـك بَاخِـعٌ نَّفْسَـكَ أَلَّا يَكُونُـوا مُؤْمِنِيـنَ {٣/٢٦} إِن نَّشَـأْ نُنَـزِّلْ عَلَيْهِـم مِّن السَّـمَاء آيَـةً فَظَلَّـتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِيـنَ ﴾[2]، ويـأتي اللـه سـبحانه وتعـالى بالقسـم الـذي يلفتنـا إلى أنّ كلّ كلمـة مـن القرآن هـي من عند اللـه، كـما أبلغهـا جبريـل عليه السـلام لمحمد ﷺ في **قوله سـبحانه:** ﴿**فَلَا أُقْسِـمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُـوم {٧٥/٥٦} وَإِنَّـه لَقَسَـمٌ لَّـوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيـمٌ {٧٦/٥٦} إِنَّهُ لَقُـرْآنٌ كَرِيمٌ {٧٧/٥٦} فِـي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ {٧٨/٥٦} لَّا يَمَسُّـهُ إِلَّا الْمُطَهَّـرُونَ {٧٩/٥٦} تَنزِيـلٌ مِّـن رَّبِّ الْعَالَمِيـنَ**﴾[3]، ثـمّ يلفتنـا الحقّ- سـبحانه وتعـالى- إلى ذلك **الكتاب** الـذي هـو منهـج للإنسـان عـلى الأرض، فبعـد أن بـيّن لنـا جـلّ جلالـه، بمـا لا يـدع مجـالًا للشـكّ أنّ **الكتـاب** منـزّل مـن عنـده، وأنـه يصحّح الكتب السـابقة كالتـوراة، والإنجيل والتي ائتمـن الله عليها البـشر، فحرّفوها وبدّلوهـا، وهـذا التحريـف أبطـل مهمّـة المنهـج الإلهـي بالنسـبة لهـذه الكتب، فجـاء **الكتاب** الـذي لم يصلْ إليـه تحريـف ولا تبديـل، ليبقـى منهجًـا لله إلى أن تقوم السـاعة.

(١) **سورة:** الكهف، الآية رقم: ٢٧.

(٢) **سورة:** النمل، الآيات رقم: ١، ٢، ٣.

(٣) **سورة:** الواقعة، الآيات رقم: ٧٥ - ٧٩.

إنّ أوّل ما جاء به هذا: الكتاب هو إيمان القمّة، بأنّه لا إله إلّا الله الواحد الأحد، **والله سبحانه وتعالى يقول:** ﴿ الم {١/٣} اللـهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ {٢/٣} نَـزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ بِالْحَـقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَـيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ ﴾[١]، وهكـذا نعـرف أنّ **الكتـاب** نـزل ليؤكّـد لنـا أنّ اللـه واحـد أحـد، لا شريـك لـه، وأنّ القـرآن يشـتمل عـلى كلّ مـا تضمّنتـه الشرائـع السّـماوية مـن تـوراة وإنجيـل، وغيرهـا مـن الكتـب، فالقـرآنُ نـزل ليفـرق بـين الحـقّ الـذي جاءت بـه الكتـب السّـابقة، وبين الباطـل الذي أضافـه أولئك الذيـن ائتمنـوا عليها.

ثـمّ يحـدّد الحـقّ تبـارك وتعالى لنا مهمّتنا في أنّ هـذا **الكتاب**: مطلوب منّـا أن نبلّغه للنـاس جميعًا، **فيقول:** ﴿ المـص {١/٧} كِتَـابٌ أُنـزِلَ إِلَيْـكَ فَـلاَ يَكُن فِي صَـدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْـهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْـرَى لِلْمُؤْمِنِـينَ ﴾[٢]، فالخطاب هنا لرسـول اللـه ﷺ، وكلّ خطـابٍ لرسـول اللـه ﷺ في القرآن الكريم يتضمّـن خطابًا لأمّته جميعًا، فالرسـول ﷺ كلّـف بـأن يبلـغ **الكتـاب** للنـاس، ونحـن مكلّفـون بأن نتبـع المنهج نفسـه، ونبلـغ ما جـاء في القرآن للنـاس حتى يكـون الحسـاب عـدلًا، وأنّهـم قد بُلِّغـوا منهج الله، ثـمّ كفروا بـه أو تركوه.

إذًا فإبلاغ الكتاب من المهمّات الأساسية التي حدّدها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن.

والكتـاب: فيـه ردّ عـلى حجـج الكفـار وأباطيلهم، قـال تعالى: ﴿ الـر تِلْكَ آيَـاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيـمِ {١/١٠} أَكَانَ لِلنَّـاسِ عَجَبًـا أَنْ أَوْحَيْنَـا إِلَى رَجُـلٍ مِّنْهُـمْ أَنْ أَنـذِرِ النَّـاسَ وَبَـشِّرِ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَنَّ لَهُـمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِندَ رَبِّهِـمْ قَـالَ الْكَافِـرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ مُّبِـينٌ ﴾[٣]، وفي هـذه الآيـات الكريمـة: يلفتنـا الله سـبحانه وتعالى إلى حقيقتين :

الحقيقـةُ الأولى: هـي أنّ الكفّـار يتّخـذون مـن بشريـة الرسـول حُجّـةً بـأنّ هـذا **الكتـاب**: ليـس من عند الله.

---

(١) **سورة**: آل عمران، الآيات رقم: ١، ٢، ٣.

(٢) **سورة**: الأعراف، الآيات رقم: ١، ٢.

(٣) **سورة**: يونس، الآيات رقم: ١، ٢.

وكان الـردّ هـو: أنّ كلّ الرّسـل السـابقين كانـوا بـشرًا، فـما هـو العجـب في أن يكـون محمـد ﷺ رسـولًا بشرًا.

والحقيقـةُ الثانيـة: هـي أنّ هـذا القـرآن مكتوبٌ بالحروف نفسـها التي خلقهـا الله لنا لنكتـب بها، ومع ذلـك فـإنّ القـرآن الكريـم نزل مسـتخدمًا لهذه الحـروف التي يعرفهـا الناس جميعًـا، معجزًا في ألا يسـتطيع الإنـس والجـن مجتمعـين أن يأتوا بسـورةٍ واحدة منه.

ثـمّ يلفتنـا الحـقّ سـبحانه وتعـالى لفتـة أخـرى إلى أنّ هذا **الكتـاب** محكمُ الآيات، ثـمّ بيّنه اللـه لعباده، واقـرأ **قولَـه جـلّ جلالـه:** ﴿الَـر كِتَابٌ أُحْكِمَـتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِـن لَّدُنْ حَكِيـمٍ خَبِيـرٍ {١/١١} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّــهَ إِنَّنِـي لَكُـم مِّنْـهُ نَذِيـرٌ وَبَشِـيرٌ ﴾[١]، هـذه هـي بعض الآيـات في القرآن الكريـم، التي أراد الله سـبحانه وتعـالى أنْ يلفتنـا فيهـا إلى معنـى **الكتـاب:** فآياتُه مـن عند الله الحكيـم الخبير، وكلّ آية فيها إعجـازٌ مُتَحدًّى به الإنـس والجن.

وهـذا الكتـاب لا بـدّ أن يبلـغ للنـاس جميعًـا، **فالكتـاب** ينذرهـم ألّا يعبـدوا إلّا اللـه، ليكـون الحسـاب عـدلًا في الآخـرة، فمَـن أُنـذر وأطـاع كان لـه الجنـة، ومَـن عصى كانـت له النـار والعياذ باللـه، ثـمّ يلفتنا الله إلى أنّ هـذا **الكتـاب** فيـه قصـص الأنبياء السـابقين منذ **آدم عليه السـلام**، **يقول جـلّ جلاله:** ﴿ الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَـابِ الْمُبِـينِ {١/١٢} إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لَّعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ {٢/١٢} نَحْـنُ نَقُـصُّ عَلَيْكَ أَحْسَـنَ الْقَصَصِ بِمَـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هَـذَا الْقُـرْآنَ وَإِن كُنـتَ مِـن قَبْلِـهِ لَمِـنَ الْغَافِلِـينَ﴾[٢]، وهكـذا نجـد أنّ القـرآن الكريـم قد جـاء ليقـصّ علينـا أحسـنَ القَصـص بالنسـبة للأنبيـاء السـابقين، والأحـداث التي وقعـت في المـاضي، ولم يأتِ القـرآن بهـذه القَصـص للتسـلية أو للترفيـه، وإنّمـا جاء بهـا للموعظة، ولتكون عـبرة إيمانية، ذلـك أنّ القصص القـرآني يتكـرّر في كلّ زمـان ومـكان، ففرعـون هو كلّ حاكمٍ طغـى في الأرض، ونصّب نفسَـه إلهًا، وقارون هو

---

(١) **سورة:** هود، الآيات رقم: ١، ٢.

(٢) **سورة:** يوسف، الآيات رقم: ١، ٢، ٣.

كلّ مَـن أنعـم اللـه عليـه فنسـبَ النّعمـة إلى نفسـه، وتكبّر وعـصى الله، وقصة يوسـف هي قصـة كلّ إخوة حقـدوا عـلى أخٍ لهـم، وتآمـروا عليـه، وأهـلُ الكهـف هـمْ كلّ فتية آمنـوا بربهم، فنـشر الله لهم مـن رحمته في الدنيـا والآخـرة، مـا عـدا قصـة واحـدة هي قصـة مريم وعيـسى، عليهما السـلام، فهـي معجزة لـن تتكرّر، ولذلـك عـرف اللـه- سـبحانه وتعـالى- أبطالهـا، فقـال عيسى بـن مريم وقـال مريم ابنـة عمران.

والكتـاب: الـذي أنزلـه اللـه- سـبحانه وتعـالى- فيـه لفتـة إلى آيـات اللـه في كوْنه، واقـرأ **قوله تعـالى**: ﴿ المـر تِلْـكَ آيَـاتُ الْكِتَـابِ وَالَّـذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِـن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ {١/١٣} اللـــُه الَّذِي رَفَـعَ السَّـمَاوَاتِ بِغَـيْرِ عَمَـدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَـمًّى يُدَبِّـرُ الأَمْـرَ يُفَصِّلُ الآيَـاتِ لَعَلَّكُـم بِلِقَاء رَبِّكُـمْ تُوقِنُونَ ﴾[١].

وهكـذا بـيّن لنـا اللـه في الكتـاب: آياتـه في الكـون ولفتنـا إليهـا، فالسّـماء مرفوعـة بغـير عمـدٍ نراهـا، والشّـمس والقمـر مسـخّران لخدمـة الإنسـان، وهـذه كلّهـا آيات لا يسـتطيع أحدٌ مـن خلق اللـه أن يدّعيها لنفسـه أو لغيره، فـلا يوجـد، حتـى يـوم القيامـة مَن يسـتطيع أن يدّعـي أنّه رفع السـماء بغير عمـد، أو أنّه خلـق الشـمس والقمر وسـخّرهما لخدمة الإنسـان، ولـو تدبّر الناس في آيـات الكون لآمنـوا، ولكنهم في غفلة عـن هـذه الآيات.

ثـمّ يحـدّد الحـقّ- سـبحانه وتعـالى- مهمّـة: هـذا (**الكتـاب**) وكيـف أنّـه رحمـة للنـاس جميعًـا، **فيقـول جـلّ جلالـه**: ﴿ الَـر كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِـنَ الظُّلُـمَاتِ إِلَى النُّورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِـمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيـدِ {١/١٤} اللــهِ الَّـذِي لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ وَوَيْـلٌ لِّلْكَافِرِيـنَ مِـنْ عَذَابٍ شَـدِيدٍ﴾[٢].

(١) **سورة**: الرعد، الآيات رقم: ١، ٢.

(٢) **سورة**: إبراهيم، الآيات رقم: ١، ٢، ٣.

أيْ أنّ مهمّـة هـذا الكتـاب: هـي أنْ يخـرج النـاس مـن ظلـمات الجهل والكفـر والشرك إلى نـور الإيمان، لأنّ كلّ كافر مـشرك تحيـط بـه ظلـمات يـرى الآيـات فـلا يبصرهـا، ويعـرف أنّ هنـاك حسـابًا وآخـرة ولكنّه ينكرهـما، ولا يـرى إلّا الحيـاة الدنيـا القصـيرة غـير المأمونـة في كلّ شيء، في العمـر والرزق والمتعـة، ولو تطلّع إلى نـور الإيمـان؛ لـرأى الآخـرة ومـا فيها مـن نعيمٍ أبـدي ولَعَمِلَ من أجلهـا، ولكن لأنّه تحيط بـه الظلمات لا يـرى، والطريـقُ لأنْ يـرى هـو هـذا **الكتـاب**، القرآن الكريـم لأنّه يخرج النـاس إذا قرؤوه مـن ظلمات الجهل والكفـر إلى نـور الحقيقـة واليقـين، وبـيّن الحـقّ- سبحانه وتعـالى- أنّ الذين يلتفتـون إلى الدنيـا وحدها هُم كالأنعـام التـي تـأكل وتـشرب، بـل إنّ الأنعـام أفضـل منهـم؛ لأنّ الأنعام تقـوم بمهمّتهـا في الحيـاة، بينما هُم لا يقومـون بمهمّـة العبـادة، فيقـول **الحقّ تبـارك وتعالى**: ﴿الَر تِلْـكَ آيَاتُ الْكِتَـابِ وَقُرْآنٍ مُّبِيـنٍ {١/١٥} رُّبَمَا يَـوَدُّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ لَـوْ كَانُـواْ مُسْـلِمِينَ {٢/١٥} ذَرْهُـمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُـواْ وَيُلْهِهِـمُ الأَمَلُ فَسَـوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[١]، هكـذا يخبرنـا الحـقّ أنّ آيـات كتابـه الكريم ومنهجه لا تؤخَذ بالتمنـي، ولكن لا بدّ أن يعمل بهـا، وأنّ الذين كفـروا في تمتّعهـم بالحيـاة الدنيـا لا يرتفعـون فوق مرتبـة الأنعام، وأنّهـم يتعلّقون بأمـل كاذب في أن النعيم في الدنيـا فقـط، ولكـن الحقيقة غـير ذلك وسـوف يعلمون.

وهكـذا بعـد أن تعرّضنـا بإيجـاز لبعـض الآيـات التـي ورد فيها ذكـرُ **الكتاب** أنـه: **كتاب**: يبصرنـا بقضية القمّـة في العقيـدة، وهـي أنّـه لا إلـه إلّا اللـه وأنّ محمـدًاﷺ رسـول اللـه، وهـو بهـذا يخـرج النـاس مـن الظلـمات إلى النـور، وأنْ يلفتهـم إلى آيـات الكـون، وأنْ يعرفـوا أنّ هنـاك آخـرة ونعيـمًا أبديًّـا وشـقاءً أبديًّـا، وأنْ يقيـم الدليـل والحجّـة عـلى الكافريـن، وأنّ **قولـه تعـالى**: (**ذَلِـكَ الكتـاب**) يحمـل معنى التفـوّق الكامل الشّـامل عـلى كلّ مـا سـبقه مـن كتـب، وأنه سـيظلّ كذلك حتـى قيام السـاعة؛ ولذلـك وصفه الحـقّ- تبارك وتعـالى- بأنّـه (**كتـاب**) ليكـون دليلًا عـلى الكمال.

---

(١) **سورة**: الحجر، الآيات رقم: ١، ٢، ٣ .

ولا بـدّ أنْ نعـرف أنّ: (**ذلـك**) ليسـت كلمـة واحـدة، وإنّمـا هي ثـلاثُ كلمات، (**ذا**): اسـم إشـارة، (**واللام**) تـدلّ عـلى الابتعـاد ورفعة شـأن القرآن الكريـم، و(**ك**) لمخاطبـة الناس جميعًا بـأنّ القرآن الكريم لـه عموميّة الرسـالة إلى يـوم القيامـة، ونحـن عندمـا نقرأ سـورة البقرة نسـتطيع أن نقـرأ آيتها الثانيـة بطريقتين:

الطريقةُ الأولى أنْ نقول: (**الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ**) ثمّ نصمت قليلًا، ونضيف: (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**).

والطريقـة الثانيـة أنْ نقـول: (**الم ذَلِـكَ الكتـاب لاَ رَيْـبَ**)، ثـمّ نصمـت قليـلًا، ونضيـف: (**فيـه هـدى للمتقـين**).

وكلتـا الطريقتـين: توضّـح لنـا معنـى (**لا ريـب**) أي: لا شـكّ، أو نفـي للشـكّ وجـزمٌ مطلـق أنّـه (**كتـاب**) حكيـمٌ منـزّل مـن الخالـق الأعـلى، وحتـى نفهـمَ المنطلـق الـذي نأخـذ منـه قضايـا الديـن، والتـي سـيكون دسـتورنا في الحيـاة، فـلا بـدّ أنْ نعـرف مـا هـو الهـدى؟ ومَـن هـم المتقـون؟

فالهـدى: هـو الدّلالـة عـلى طريـقٍ يوصلـك إلى مـا تطلبـه، والإشـارات التـي تـدلّ المسـافر عـلى الطريق هـي هـدى لـه؛ لأنّهـا تبيّن له الطريـق الذي يوصله إلى المـكان الذي يقصـده، والهدى يتطلـب هاديًا ومهديًا وغايـة تريـد أن تحقّقـه، فـإذا لم يكـن هنـاك غايـة أو هدف فـلا معنى لوجـود الهدى لأنك لا تريـد أنْ تصل إلى شيء. وبالتـالي لا تريـد مـن أحـدٍ أن يدلّـك عـلى طريـق، إذًا لا بـدّ أن نوجـد الغايـة أولًا، ثـمّ نبحث عمّن يوصّلنـا إليها.

(**هُـدًى لِّلْمُتَّقِـينَ**): مـا معنـى المتقـين؟ متقـين: جمـع متـق. والاتقـاء مـن الوقايـة، والوقايـة: هـي الاحـتراس والبعـد عـن الـشر، لذلـك يقـول **الحـقّ تبـارك وتعالى**:﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا قُـوا أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُـمْ نَـارًا وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ ﴾[1] أي اعملـوا بينكـم وبـين النـار وقايـة، احترسـوا مـن أنْ

(١) **سورة**: التحريم، الآية رقم: ٦ .

تقعوا فيها، ومن عجيب أمرِ هذه التقوى أنك تجد الحقّ- سبحانه وتعالى- يقول في القرآن الكريم، والقرآنُ كلّه كلام الله: ﴿اتقوا الله﴾ ويقول: ﴿اتقوا النار﴾، كيف نأخذ سلوكًا واحدًا تجاه الحقّ- سبحانه وتعالى- وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون؟ **فالله تعالى يقول**: ﴿واتقوا النار﴾: أي لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تعذبوا في النار، فكأنّك قد جعلت بينك وبين النار وقايةً بأنْ تركت المعاصي وفعلت الخير.

يقول الحقّ سبحانه وتعالى: (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**): ولقد قلنا إنّ الهدى هدى الله؛ لأنّه هو الذي حدّد الغاية من الخلق، ودلّنا على الطريق الموصل غليها، فكوْن الله هو الذي حدّد المطلوب ودلّنا على الطريق إليه؛ فهذه قمّة النعمة؛ لأنّه لم يترك لنا أن نحدّد غايتنا ولا الطريقَ إليها، فرحمنا بذلك ممّا سنتعرّض له من شقاء في أنْ نخطئ ونصيب بسبب علمنا القاصر، فنشقى وندخل في تجارب، ونمشي في طرق، ثمّ نكتشف أنّنا قد ضللنا الطريق فنتّجه إلى طريق آخر فيكون أضلّ وأشقى، وهكذا نتخبّط دون أن نصل إلى شيء، **وأراد سبحانه**: أنْ يجنّبنا هذا كلّه فأنزل القرآن الكريم، كتابًا: فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكي نتقي عذاب الله وغضبه.

والله سبحانه وتعالى قال: (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**): أي أنّ هذا القرآن هدى للجميع، فالذي يريد أن يتقي عذاب الله وغضبَه يجد فيه الطريق الذي يحدّد له هذه الغاية، فالهدى من الحقّ تبارك وتعالى للناس جميعًا، ثمّ خصّ مَن آمن به بهدًى آخر، وهو أن يعينه على الطاعة، إذًا فهناك هدى من الله لكلّ خلقه وهو أن يدلّهم- سبحانه وتعالى- ويبيّن لهم الطريق المستقيم، هذا هو هدى الدّلالة، وهو أن يدلّ الله خلقه جميعًا على الطريق إلى طاعته وجنّته، **قال تعالى**: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[١].

(١) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ١٧ .

إذًا، الحـقّ- سـبحانه وتعـالى- دلّهـم: عـلى طريـق الهدايـة ولكنّهـم أحبّـوا طريـق الغوايـة والمعصيـة واتّبعـوه، هـذه هدايـة الدّلالـة، أمّـا هدايـة المعونـة ففـي قولـه سـبحانه: (**والذيـن اهتـدوا زَادَهُـمْ هُـدًى وَآتَاهُـمْ تَقْوَاهُـمْ**)[٢]، وهـذه هـي دلالـة المَعونـة، وهـي لا تحـقّ إلّا لمَـن آمن باللـه واتّبع منهجـه، وأقبل على هدايـة الدّلالـة، وعمـل بهـا، **واللـه- سـبحانه وتعـالى**- لا يعـين مَـن يرفـض هدايـة الدّلالـة، بـل يتركـه يضـلّ ويشـقى، ونحـن حـين نقـرأ القـرآنَ الكريـم نجـد أنّ اللـه **تبـارك وتعالى**: يقـول لنبيـه ورسـوله ﷺ:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَـنْ أَحْبَبْـتَ وَلَكِـنَّ اللـهَ يَهْـدِي مَن يَشَـاءُ﴾[١]، وهكـذا نفى الله- سـبحانه وتعالى- عن رسـوله ﷺ، أن يكـون هاديًـا لمَـن أحـبّ، ولكـنّ **الحـقّ يقـول** لرسـوله ﷺ: ﴿وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾[٢].

(١) **سورة**: القصص، الآية رقم: ٥٦ .

(٢) **سورة**: الشورى، الآية رقم: ٥٢ .

الفوائدُ

١- **من فوائد الآية: بيانُ علوّ القرآن: لقوله تعالى: (ذلك)**، فالإشارةُ بالبعد تفيد علوّ مرتبته، وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بدّ أن يعود ذلك على المتمسّك به بالعلوّ والرفعة؛ لأنّ **الله سبحانه وتعالى يقول:** ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[1]، وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضًا لِمَن تمسّك به.

٢- **ومنها: رفعة القرآن:** من جهة أنّه قرآنٌ مكتوب مُعتنٍ به، **لقوله تعالى: (ذلك الكتاب)**: وقد بيّنّا أنّه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

٣- **ومنها: أنّ هذا القرآن نزل من عند الله يقينًا: لقوله تعالى: (لا ريب فيه)**.

٤- **ومنها: أنّ المهتدي بهذا القرآن هُم المتقون**: فكلّ مَن كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنّه عُلِّق الهدى بوصف، والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحُكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأنّ الوصف عبارة عن علّة، وكلّما قويت العلة قوي المعلول.

٥- **ومنها: فضيلة التقوى:** وأنّها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية، أي هداية الإرشاد، والتوفيق.

فإنْ قيل: ما الجمع بين **قوله تعالى: (هدًى للمتقين)، وقوله تعالى: (هدًى للناس)؟ فالجواب: أنّ الهدى نوعان**: عام، وخاصّ:

(١) **سورة**: التوبة، الآية رقم: ٢٣ .

فأمّـا العـام: فهـو الشّـامل لجميع الناس وهـو هداية العلم، والإرشـاد، ومثاله **قولُه تعـالى عن القرآن:**﴿هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ﴾[1]، **وقوله تعالى عـن ثمود:** ﴿وَأَمَّـا ثَمُـودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَـى الْهُدَى﴾[2].

وأمّـا الخـاصّ: فهـو هدايـة التوفيـق: أي أنْ يوفّـق اللـه المرءَ للعمـل بما علـم، مثاله: **قوله تعـالى**: (**هدًى للمتقـين**)، **وقولـه تعالى:**﴿قُـلْ هُوَ لِلَّذِيـنَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاء﴾[3].

(١) **سورة**: البقرة، الآية رقم: ١٨٥ .

(٢) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ١٧ .

(٣) **سورة**: فصلت، الآية رقم: ٤٤ .

الخاتمة

ذلك ما تيسّر جمعُه وبيانُهُ لك أيّها القارئ المبارك من قطوفٍ من رياض القرآن، لعلّه أن يكون بابًا لي ولك للولوج إلى هذه الرياض الغنّاء، من تفسير وبيان ونحوٍ وصرف وبلاغة وبديع، ممّا في كتاب الله عزّ وجلّ، وممّا تذوّق حلاوته الرعيلُ الأوّل من سلف هذه الأمّة الناطقة بالعربية سليقةً، فتمسّكوا به وطبّقوه قولًا وعملًا بعد أنْ فهموا مراد الله- جلّ وعلا- من إنزاله وتبيينهِ للناس، وأنّه بقدر ما يقترب المسلمون من كتاب ربّهم بقدر ما تتفتّح أبصارهم وتَعي قلوبهم ويأتيهم العون والتّوفيق من الله ربّ العالمين، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾[1]، وإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ الابتعاد عن القرآن الكريم أهمّ سببٍ من أسباب انتشار الأفكار الخاطئة والبدع المضلّة بين المسلمين، وأهمّ سببٍ لوقوع الفرقة والاختلاف بينهم، كما أنّه ممّا لا ريب فيه أنّ العودة إلى كتاب الله تعالى والاستظلال بظلّه والاعتصام بحبله هو السبيلُ الوحيد للخلاص من كلّ ما شاب عقائد المسلمين وممارساتهم من شوائبَ بعيدةٍ عن روح الإسلام، وهو الطريق الكفيل بإيجاد الاتحاد من جديد بين أبناء الأمّة، وهذا ما بيّنه الله- عزّ وجلّ- بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾[2]، **حيث فسّر النبيُّ ﷺ حبلَ الله بالقرآن فقال: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)**[3]، كما أمر الله- عزَّ وجلَّ- بالعودة إلى القرآن عند التنازع والاختلاف بوصفه العصمة من الضّلال فقال: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[4]،

(١) **سورة**: محمد، الآية رقم: ١٧ .

(٢) **سورة**: آل عمران، الآية رقم: ١٠٣ .

(٣) **الحديث**: أخرجه أحمد (٣ / ١٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٦ رقم ٥)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع ٤٤٧٣) و(السلسلة الصحيحة (٢٠٢٤).

(٤) **سورة**: النساء، الآية رقم: ٥٩ .

فهـذه الآيـة الكريمـة تحـدِّد بشـكلٍ كلِّيٍّ المرجعَ الذي يجب أن يرجعَ إليه المسـلمون عند الاختـلاف والتنازع، وهـو الـردّ إلى اللـه والرسـول، فالـردُّ إلى اللـه، الأخـذ بمُحْكـم كتابه، والـردُّ إلى الرسـول الأخذ بسـنّته الجامعة غـير المفرّقة.

فالعـودةُ إلى القـرآن والاعتصـام بحبـل الله هـو طريق الهداية والنجاة، وسـبيل النجاح والفـلاح في الدنيا والآخـرة، فعـلى المسـلمين جميعًـا أنْ يرجعـوا إلى القـرآن ويَعْرِضُـوا عقائدَهـم وآراءهـم جميعًـا عليـه فبهذا سـيبتعدون- بفضـل الاعتصـام والاستمسـاك بكتـاب الله- عـن كلّ زيغ وانحـراف وكلّ تفرق واختـلاف، وأوّل آيـة كانـت تسـتوقفني كثـيرًا، وأندهش لهـا غايـة الاندهاش هي قولـه تعالى:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة